2272
.4055
.374

2272.4055.374
al-Majdhūb
Qiṣaṣ min mujtama'inā

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 074077965

al-Majdhūb, Muḥammad

محمد المجذوب

Qiṣaṣ min mujtamaʿinā

قصص من مجتمعنا

منشورات
مكتبة الارشاد بحماه

2272
.4055
.374

أبو جهاد

كان ابو جهاد في الخامسة والسبعين من العمر ، ولم يكن هو يخفي ذلك ، ولكن جميع ظواهره مستعدة ان تخدع كل ناظر فلا يقدر له اكثر من الخامسة والخمسين . ومرد ذلك بالدرجة الاولى الى تلك الرشاقة العجيبة التي يطالعك بها في كل حركة ، فتريك اياه كتلة من النشاط الفائق لا تكاد تجد له مثيلا حتى اوساط اقرانه من البحارة والصيادين .. انك لتراه يقذف بنفسه في زورق الصيد بمثل خفة النمر ، ثم ياخذ في دفعه بكلا المجذافين وحيدا ، يوازن سيره ، وينظم سرعته وهو مع ذلك يراقب اعماق الماء ، حتى يستقر بصره على المكان الملائم ، فيلقي مرساته في اناة ، ثم يبدأ عمله في الصيد ، وهو غارق في التدخين الذي لا ينفك عنه منذ اللفافة الاولى ...

لقد ورث ابو جهاد حرفة الصيد عن ابيه ، الذي قضى حياته الطويلة مقصورا على صيد الشص والقصبة والفانوس ... ولكن نشاطه ابى عليه ان يقف عند موضع ابيه ، فما برح يسعى سعيه حتى صار اليه هذا الزورق ، وفيه مختلف ادوات الصيد ، من القصبة ، الى (الماطريان) الى الشبكة ، الى (الاوكس) .. وعلى الرغم من كرهه لاستعمال المتفجرات فهو يحتفظ في مكان ما في الزورق بعدة اصابع معدة للعمل .. وقد كان لهذا الزورق طالعه الموفق اذ استطاع ان يوفر من دخله حتى الان

مامكنه من شراء دار صغيرة تتسع لاكثر من اسرته التي لم تزد عن خمس انفس ... فضلا عن عدد من الشباك الحريرية التي كلفته ما لا يقل عن الف ليرة ...

ونجاح كهذا من شأنه ان يقابل بالقناعة الراضية عند غير ابي جهاد ... ذلك لان طموح الرجل كان وراء هذه الحدود ، وما كان للسنين ان تنهنه من هذا الطموح في صدره ... ولعل شعوره بسلامة جسمه ، وحدة نشاطه قد ساعده على استبقاء جذوة الامل حية متقدة كعهدها في صدور الاقلين من الشبان وربما كانت هذه الميزة النفسية هي التي اكسبته كنية (ابي جهاد) في الوسط الذي يعيش فيه ... وبخاصة عندما نعلم ان له ثلاثة ابناء ليس بينهم واحد باسم جهاد .. !

ولقد كان ابو جهاد صيادا عاديا لم يدخل كتابا قط ... ولم يتعلم حرفا من اي كتاب .. ولكنه كان الى ذلك ذا نظر ثاقب يدرك به ما يعجز الكثيرين من ابناء حرفته ... وقد ركز الطموح في نفسه آراء كثيرا ما يطرحها على رفاقه عند تجمعهم حلقة النرجيلة في زاوية المقهى الذي الفوا التلاقي فيه ...

انه موقن الاثبات لشيء في هذه الحياة .. كل شيء يتحرك متبدل. الفقر لا يدوم ... والغنى كذلك ... والناس عابرون الى الفناء ، وفي طريقهم يمرون بمختلف الحظوظ .. فرخاء وشقاء .. وضيق وانفراج ... وصعود ونزول ... والمهم الا ينظر الذين هم تحت الى وضعهم كشيء نهائي غير قابل للتغيير .. وكثيرا ما يمثل لافكاره بهذه الدور التي تشرف من بعيد على المقهى ... انها في خلال ايامه هو قد تداولها عدد من المالكين ، كالكرة التي يعبث بها الاطفال .. وما دام الامر كذلك في كل شيء فلماذا يقنع هؤلاء الفقراء بواقعهم المزري ويسمونه النصيب ، ان نصيب الانسان هو كل ما يجده في الحياة ، فاذا كان نصيبه اليوم هذا الحرمان الذي يكدحون فيه فبقليل من الجد قد يتغير فيصبح نصيبهم

شيئاً آخر ...!

وبديهي ان اولئك الرفاق مع اعجابهم البالغ بافكار ابي جهاد هذه لم يكونوا متفقين معه في كل ما يذهب اليه ، ولعـــل مرد ذلك الى الاختلاف الطبعي بينهم وبينه في مجـال النشاط ،الذي لا يخجلهم ان يقروا له بالسبق في حلبته ..

٢

وكان الوقت قبيل العصر عندما أخـــذ أبو جهاد يفرش شباكه فوق المنبسط المطل على الشاطىء .. وبعد جـولة تفتيشية قصيرة عليهـــا هنا وهناك ألقي بنفسه في ظل أحـــد البيوت القريبـة ، وأخـذ يعمل في ترميم بعض العرى الممزقة من احدى هذه الشباك ...

وكان الجو فاتراً نديا كأي وقت مماثل من ايلول ، تمر نسائمه في بطء كأنهـا تثاؤبة مكدود أكره على النهوض من نوم غـــير كاف . وكانت هينمات صارخـــة تتصاعـد بـين اللحظـة والاخـرى ، كالقهقهة المحبوسة يطلقها انطراح بعض الموجات الخفيفة على اضلاع الزورق المشدود الى الصخر القريب ... ومن بعيد ارتفع أنين سلسلة حـديدية فك رباطها عامل في سيارة شحن .. ثم تلا ذلك دوي الـــتراب يتهاوى من صندوق الشاحنة الى أسفل التجويف البحري . وهنا أمسك ابو جهاد عن حبك الخيوط ، وراح يدير عينيه في انحـاء هـــذا الافق الشاسع .. وسرعان ما شغل عن شباكه باشياء واشياء ..

ووجـــد نفسه موزع الخواطر بين اشتات التصورات .. وتذكر في اثناء ذلك ماضيه القديم أيام كان يزرع هـــذا الشاطىء وراء أبيه باحثين عن طعوم للشص ، أو ساعيين بقصبتيهما خلف الاسماك ..

لقد ولد وفي يده الشعر والقصبة ... وها هـــو ذا يدلف نحو الثمانين ولا يزال حيث كان من الحياة لم يختلف عـــن أمسه البعيد الا قليلاً .. وقـــد بات شديد الخشية ان يترك أبناءه الثلاثـة على مثل ما

تركه أبوه ، يضربون في أكناف هـــذا الشط باحثين عـن القوت الى قيام الساعـــة !.. وفجأة تذكر ان هذا الشاطىء نفسه سوف يغلق في وجهه بعد قليل ، لان مرفأ كبيراً يوشك ان ينشأ مكانـه ، فـلا يتاح له ولا لأبنائه من بعد متابعة السعي في هذه البقعة ..

وهنـا وقف بفكره كمن اصطدم بحـاجز مباغت . ثم أخـــذ يتساءل : انـــه لعمل ضخم يستوعب مئات الايـدي وعشرات السفن .. فلماذا لا أفكر بايجاد منفذ اليه !؟...

وغير مكان جلسته ، واشرأب بعنقه ناحية الفجوة الهائلة الـتي اختيرت للمرفأ .. وطالعه من بعيد مشهد عشرات العمال يتحركون في اتجاهات مختلفة ، وبينهم عـــدد من المتبرنطين ، أحدهم يحدق في منظار وآخر يشرف على تثبيت أوتاده .. وعلى رأس الطرف الاقصى من الفجوة اثنان منهم أو أكثر يحصرون اشاراتهم في امتداد البحر ..

ولم يعد أبو جهاد قادراً على ضبط أفكاره في حدود هذه المرئيات من حركات العمال والمهندسين .. وأحس بحاجة لا تدفع الى الاستلقـاء ، فوضع حذاءه على حجر ، ثم جعل رأسه فوقه ، وأطلق لعينيه عنان التأمل تجوبان خلال عالم غير منظور .

★ ★ ★

.. وكان الشاطىء الصخري يعج بالخلق على مـدى الانحناء الذي احدثه مئات العمال والخبراء ، وهنا وهناك عشرات الجرافات والحفـارات تناطح الصخور ، أو تشق الاخاديد ، أو ترفع الانقاض ، لتقذف بهـا فوق الثلم الذي اخذ يمتد وينبسط في قلب البحر ليؤلف الذراع الجبارة التي يراد منها ان تحيط بحمايتها عشرات البواخر ..

وعلى مبعدة ميلين من الشط باخرة من عابرات المحيط تتحـــرك روافعهـا دائبة ، لتنقـل الى سفينتي (التجريم) محتوياتهـا من اجهزة المرفـــأ . . .

وفي مقدمة احدى السفينتين انتصب ابو جهاد كالوتد الراسخ يعض لفافته ويراقب حركة عماله ، وهو يصيحُ بين الحين والحين : الله مع الشباب ... الله مع الجدعان ... من هذه الجهة يا ابو حمود ..

وكثيراً ما يأخذه الغضب فاذا هو يبصق الشتائم دون تقييد : دين .. سماء .. رب .. يا أخو الـ ... » ! ولكن العمال غارقون في حركتهم ، لا يلتفتون الى شيء غير اذرع الروافع ، يدفعون هذه الى مكانها المنشود ويحـــاولون تلك ليرفعوا قبضتها عن حمولتها من الاجهزة الحديدية ..

ولا يغفل ابو جهاد عن مراقبة السفينة الاخرى ، فهو من مكانه يوزع مثل هاتيك المقذوفات على عمالها يحمسهم مرة ويشتمهم مرات ..

وقد كان في وسع أبي جهاد ان يريح نفسه من بعض هـــذا العناء لو شاء الاعتماد على ولديه اللذين بدأا يساعدانه في الاشراف على السفينتين ، فهما لا يقلان عن ابيهما يقظة وارتفاع صوت .. ولكن طبيعة ابي جهاد التي عودته ابداً الاعتماد على نفسه تأبى عليه نشدان الراحة في مثل هذا الجو المشحون بالحركة ..

وتضطرب السفينتان بين الباخرة والشط .. كأنهما رئتان لا عمل لهما سوى الفراغ والامتلاء .. وينتقل أبو جهاد بينهما قافزاً من هذه الى تلك في عرض البحـــر كالسمكة الطائرة أو كالسنجاب الواثب بين الاشجار .. !

وكان ابو جهاد ينسى في هذه الغمرة الصاخبة ايام الصيد ، فلا تمر بخياله الاطيوفا عابرة .. وأين للزورق والشبكة وما اليهما ان يجدا سبيلا الى رأسه ، بعد ان اصبح باجمعه ملكا خالصا لهذا العمل الذي أوشك ان يصرفه عن كل شيء ..!

ان خمسين عاملا يتحركون بين يديه من قبل مطلع الشمس الى ما بعد غروبها ، وعليه ان يلاحظ كلا منهم فلا يضيع دقيقة بغير

فائدة .. وهناك السفينتان اللتان تتطلبان رعاية دائبة من اصلاح ودهان .. ثم هناك الحساب ، وهو وحده يستغرق الجهود الكبار : اوزان المنقولات، وعدد الساعات والايام ، ثم استيفاء الاجور على ذلك ، وتوزيع الحصص الاسبوعية على اصحابها من العمال ..

وتبعا لتطور العمل في المرفأ بات عليه ان يستعد لزيادة عماله ووسائل (تجريمه) فسيستقبل الميناء بعد قليل اكثر من باخرة في اليوم ، وهذا يقتضي ان يكون لديه عدد آخر من السفن .. ثم تأتي ظروف المواسم حيث تفرغ البواخر لتملأ حبوبا وقطنا ، وفي هذه الحالة ستكون الحاجة الى اسطول من سفن التجريم ومئات من العمال ..!

لقد دخل ابو جهاد منطقة المرفأ بسفينة واحدة لم يحصل عليها الا بعد ان باع كل ما يملك من دار وزورق وادوات صيد .. وكانت هناك سفينة اخرى قد سبقته الى هذا العمل .. فما هو الا ان الف جوه الجديد واحاط بملابساته حتى ادرك ان المجال ـ على سعته ـ لا يصلح له اكثر من مالك واحد ، فاما ان يبيع سفينته لذلك المتنافس ، او يشتري هو سفينته ..! ولم يكن امر المال بالشيء الهام بعد ان انفتح له هذا الباب الواسع من الموارد اليومية المتزايدة ، وما كان ليخطر في باله ان يغادر هذا المرفأ بعد ان دخله ، فما عليه اذن الا اختراع الوسيلة التي تمكنه من ادخال السفينة الاخرى في ملكيته بأي ثمن .. ولم يعدم ابو جهاد القدرة على تنفيذ خطته .. فما هي سوى ايام معدودة حتى خلا له وجه المرفأ واصبح المالك الوحيد للسفينتين الوحيدتين فيه ...

٣

لم يفاجأ ابو جهاد بشيء .. وصح ماتوقعه من ازدياد حركة المرفأ اضعافاً ، فكان مستعدا لذلك ، وهاهوذا الان يملك عشرا من سفن التجريم .. عليها مئتان وخمسون من انشط عمال البحر ، وقد عرف كيف ينظم هذا العمل الكبير ، فحشد فيه كل فتى من اقربائه الادنين

والابعدين ، وجعل لهم علاوات لا ينالها سائر العمال .. ومن بوادر التوفيق ان شيئا من ذلك على كثرة تكاليفه ، لم يثقل كاهله بما لا يطيق ، فهو قد خصص كل فائض من دخله الضخم لبناء السفن ، فاذا هي تتابع وفق الحاجة واحدة أثر اخرى ، وبذلك كانت كل واحدة وليدة سابقتها ، بدخلها تقدم وعلى مددها تعتمد ... وكان اول الامر يشتري السفينة مصنوعة تامة ولكن ذلك قد انتهى من السفينة الخامسة ، اذ احدث مصنعاً خاصاً لاصلاح السفن القديمة وانشاء الحديثة ..

وفي مصنعه اليوم استعداد مستمر لبناء عشر اخرى من السفن ينتظر ان توافي البحر خلال شهر ..

وهكذا تجلت النعمة على ابي جهاد دفاقة مدهشة .. وما هي إلا سنوات ثلاث فقط حتى احتل ذكره المركز الاول بين رجال المال في البلد ... وبدأت مظاهر الثراء تطل باسمه دوراً هنا ، وحقولا هناك ، وعشرات السيارات المركوب والشحن ، لا يكاد هو يعرف عددها ولا أسماء سائقيها إلا حين يأتونه لقبض مرتباتهم ! ... وشاعت قصص كرمه على الشفاه والالسن بشكل لا تعرف له نظيراً الا في نوادر (الف ليلة وليلة) ...

ولو أصغيت الى بعض هؤلاء المتحدثين باخبار الرجل لسمعت الاعاجيب : فكم من أرملة انشأ لها ولايتامها داراً آوتهم بعد تشرد .. وكم من مريض كاد يغتاله المرض والفقر لولا نجدة أبي جهاد الذي حمله الى أرقى المستشفيات ، حيث أجريت له الجراحة المنقذة ، ثم عاد الى أهله يرفل الصحة وينعم بالمال ...!

وكم من قرية لا مسجد لها فوجئت بمال أبي جهاد ينشيء لها المسجد ويؤمن لمسجدها الاوقاف وان كان هو لا يعرف ما يصنع الناس داخل المسجد !.. و ...

وصحيح ان اخبار العامة كثيرة الاكاذيب ... الا ان الواقع

يؤكد ان اخبار الرجل لم تكن لغواً كلها ، ذلك لأنه موقن بالمثل القائل : (أطعم التسعة لتأكل العشرة) وقد اطعم بالفعل ، ومد بالعون الكثيرين من المعوزين ، وحسبه فضلاً أنه أغنى أقرباءه حتى لا تكاد تجد بينهم ـ على كثرتهم ـ ذا حاجة ، ومكن لأكثر من واحد من هؤلاء ان ينفق ويتصدق ويفعل الخير ...

يضاف الى ذلك كله أن أبا جهاد قد ظل حتى الساعة محتفظاً بطابعه الشعبي ، لم يغير طراز ثوبه ، ولا وضع طربوشه الذي اعتاد ان يلقيه فوق شعره دون ترجيل فيطل من حوله على غير نظام .. وكثيراً ما تراه بين العشرات من عماله مقعياً على الارض لا يحول بينها وبين ثيابه شيء . وقد عجزت الملايين عن ان تبعث فيه الزهو ، أو ان تنسيه نشأته الاولى ، ومن أجل ذلك تسمعه في كثير من الاحيان يحدث عماله أو سواهم عن ايام الفقر اذ كان رزقه يقطر من ثقب فلا يتجاوز قوت يومه .. ولقد بلغ من الحاحه على ابراز ذلك الماضي انه لم يستنكف عن الاشادة بذلك البيت الكريم الذي كان لا يفتأ يتعهده بالمآكل الشهية في أكثر الاماسي التي اعتاد ان يفرش شباكه في ظله .

ومن هنا جاء تقدير الناس لأبي جهاد ، اذ جعلوا يقصون عن تواضعه القصص التي تشبه الاساطير ، ومن حقهم ان يفعلوا ، لان الذي يرونه ويسمعونه من أعمال الرجل تخالف كل ما ألفوه من اصحاب المال ابناء الطبقات التي ورثت الجاه والثراء في هذا البلد .

ان الواحد من هؤلاء ليشمخ بانفه الى السماء ، فاذا اضطر الى مواجهة احد العمال او الصناع من اوساط الناس أو فقرائهم نظر اليه من فوق في اشمئزاز وتقزز كأنه حشرة حقيرة ، ثم لا يرضى حتى يشعره بمكانه من الهوان في نفسه !.. وقد احتكر هؤلاء لابناء طبقتهم الممتازة أمكنة القيادة في المجتمع فهم يتقاسمونها فيما بينهم ، ثم لا يسمحون

لأي من اولئك (المنبوذين) ان يتطلع اليها أياً كان موضعه من النبوغ او التفوق .

وانه لوضع مزر من شانه ان يشحن صدور الناس بالنقمة الخفية، فاذا اتاح القدر لواحد من غمارهم ان يزحم هذه الطبقة المتسلطة بالمال او الجاه وجدوا في ظهوره نوعا من الثأر لكرامتهم . المجروحة فوجهوا اليه ، وراحوا يتحدثون عن حسناته ، ويخلقون له مالا يملك من الحسنات!.. ولعل القوم ، بدافع من هذا الاعجاب بانتصارات ابي جهاد ، قد سمحوا لانفسهم بالاغضاء عن بعض نواحي قسوته التي ذاق منها الكثير من عماله الامرين !

ان الذين شهدوا كل تلك المظاهر الجميلة من تواضعه قد رأوا كذلك غير قليل من مظاهر العنف التي يذلل بها عماله .. ان ابا جهاد الذي يجالس هؤلاء على الارض ، ويطرفهم بانباء ماضيه المتواضع ، هو نفسه الذي يثور بأحدهم لاتفه الاسباب ، فيصب عليه سيول الشتائم ، حتى اذا جرؤ على كلمة احتجاج صرخ به على مسمع الجميع : برا . . لقد قطعت رزقك ! وهي كلمة توازي الحكم باعدام العامل المغضوب عليه ، لانها تقضي بالقائه خارج العمل دون شفقة ..

ولقد لقي هذا المصير عدد غير قليل من اولئك العمال الذين ساقهم سوء الطالع الى مجابهة ابي جهاد بأي احتجاج او جدال ، مما اعقب في صدور بقيتهم هيبة شديدة ، جعلت كلا منهم يعمل المستحيل لتجنب مثل تلك النهاية ، دون ان يخطر في بالهم ان في الدنيا وسيلة اخرى لرد هذا البلاء الذي يتهدد الجميع ..!

ولقد رأوا عددا من هؤلاء المطرودين يتجمعون للدفاع عما يسمونه حقوقهم في العمل ، فكانت العاقبة معركة اوقد ابو جهاد نارها في قلب المدينة ، اذ زحف على رأس طائفة من عماله واقربائه لتأديب هؤلاء العصاة ، فأطلقوا الرصاص ، وحطموا الابواب ، ثم انقلبوا سالمين

لم يمسسهم سوء .. وكانت النتيجة اندحار العصاة ، ثم خفوت صوتهم نهائيا .. ولم تكلف المعركة كلها ابا جهاد سوى بضع مئات من الليرات ، دفع بعضها تعويضا لأصحاب المقاهي ، وقطع ببقيتها السنة يجب ان تخرس !

وهكذا اصبح ابو جهاد ملء السمع والبصر .. مهابة وثراء ، وبها بات محط انظار الجميع واعجابهم .. وكان لذكائه الفطري ،وشجاعته المغامرة ، وتحقيقه لقانون (اطعم التسعة لتأكل العشرة) اليد الطولى في كل ذلك المجد .

٤

والنعمة جالبة الحسد .. فما برزت في مكان من الارض الا تبعها ذلك الغول يحاول طمسها او التهامها .. وما دامت ميازيب النعمة قد انهمرت اليوم على ابي جهاد ، فلا بد من ان ترافقها ضربات الحاسدين .

وكان حساد ابي جهاد اشتاتا من الناس : الفقراء والاغنياء ورجال السياسة ، وقادة الاحزاب ... وكثيرون غير هؤلاء واؤلئك ..

وقد استطاع ان يصمد لا كثرهم ويهزمهم .. ولكن الحساد كانوا اشبه بخلايا السرطان تسبق بالنمو فاعلية العلاج ، فاذا هو عن قهرها عاجز !.

لقد بدأت خصومة الحساد ضمن نطاق المرفأ ثم وصلت الى الشارع، والآن قد بلغت من الاتساع حد الافات طاقة الرجل ، لانها انست مشكلة الدولة .. يتحدث بها النواب في البرلمان ، وتملأ أخبارها اعمدة الصحف ، وتهتز بانبائها اسلاك البرق تنقلها الى الدنيا وكالات الانباء العالمية .. وفي هذا الجو برز الكلام عن تأميم اعمال التجريم ..

والتأميم بالنسبة الى ابي جهاد نكبة لا تحتمل .. انه استيلاء الدولة على اسطوله ، ثم قطع علاقته نهائيا بالمرفأ .. وكانت قوانين العمل قد

اخذت تشق الطريق لحماية العمال وضمان رزقهم عند التسريح .. ومعنى هذا انه لن يقبض درهما واحدا من ثمن المراكب الذي قد لايفي بتعويضات التسريح وحدها ! ..

اجل ان الضربة ليست من النوع المميت ، ومهما تأخذ من ماله فسيظل له مايعجزه حسبانه ، ثم ان في هذه الابنية والحقول والسيارات ما يضمن له موردا لا تحرقه النار .. ولكن القضية قضية معركة لاينبغي ان يهزم فيها ولو كلفته كل شيء ..

وجاءه بعض السياسيين يؤكدون له ان السبيل الوحيد لدفع الكارثة هي انجاح عدد من النواب يتولون المعارضة لمبدأ التأميم في المجلس القادم الذي سيكون من شأنه وحده البت في الامر .. وكان عرضا معقولا لم يعي بفهمه ، ولم يتردد في قبوله ..

وكان موعد الانتخاب على الابواب .. فاذا هناك سوق تزاحم فيها السماسرة وحمي المزاد ، وبيعت الاصوات بالمئات والآلاف .. وفتحت خزائن ابي جهاد لتصب المال صباً ..

ولم يبق شيء من ذلك في طي الخفاء .. ولم التخفي .. وحماة القانون في خدمة المعركة يتلقون قسمتهم حلالا زلالا .!

وفي قلب المعركة جاءت سيارة رسمية فحملت ابا جهاد لمواجهة صاحبها الذي بادره بالانكار الشديد لتصرفه الذي تحرمه القوانين .. واندره بما لاتحمد عقباه ! ولكن ابا جهاد كان املك لزمام المنطق .. فاذا هو يتنصل من كل تهمة ترميه بشراء الاصوات .. وكل ما هنالك صدقة يوزعها على المحتاجين .. واكبر دليل على ذلك انه غير مرشح ، ولا قرابة بينه وبين المرشحين ! . وقبل ان يسمع رد المسؤول وضع على مكتبه كيسا منتفخا من الورق وهو يقول : وهذه هبة ارجو ان تتكرموا بتوزيعها على من ترون من المعوزين . !

وبذلك انتهت كل محاولة لعرقلة المعركة التي سار كل شيء منها

في طريقه المرسوم ..

على ان المعركة لم تنته بفوز نواب ابي جهاد هنا وهناك ، بل واصلت طريقها الى قلب البرلمان نفسه .. وسرعان ما تالفت جبهة باسم الدفاع عن حرية العمل ، وقفت نفسها لمهاجمة كل سياسة تستهدف التأميم. ولم تعدم هذه الجبهة انصارا لها في اوساط الصحافة ، فاذا ساحة المعركة تتجاوز البرلمان الى كل مكان ، وما هي الا مناورات معدودة حتى طغت انباؤها على السياسة الدولية .. واصبح ابو جهاد بطلا شعبيا يقصد السواح الى بلده لينظروا عن كثب الى الرجل الذي استطاع ان يشغل الدولة ، ويقيم لنفسه جنودا حتى تحت قبة البرلمان .

والمعارك دائماً لا بد فيها من التضحيات والتكاليف .. ولقد كبرت تكاليف هذه المعركة وجلت ، فلم تكتف بالملايين تلتهمها من أموال أبي جهاد حتى راحت تنهش اعصابه في ضراوة .

ان جسمه ، الذي لم يعرف المرض قط الا بعض السعال ينشأ عن جمعة بين اللفافة والنرجيلة ، قد شرع منذ معركة المرفأ يتعرف أنواعاً من الاوجاع ما كان له بمثلها عهد من قبل .. ولقد بدأت طلائع هذه الاوجاع بالأرق ، ثم أعقبه صداع شبه دائم ، عجزت عقاقير الاطبة عن مداواته .. ومنذ عامين يعاني الأمرين من هذا الدوار المحموم الذي يسمونه ضغط الدم ..

وها هو ذا اليوم يضيق ذرعاً باكداس الادوية منثورة على مقربة من فراشه ، فلا يكاد يلمحها حتى يشعر بانقباض في معدته وقرف يقتل منه كل رغبة في طعام الصباح .. وهو مع ذلك مضطر الى استعمالها جميعاً ، بل مضطر الى تغيير الكثير منها بين يوم وآخر ، حتى أصبح وكأنه مخبر عقاقير .. وخيل اليه ان جسده قد بات من الضعف بحيث لا يمكنه الحركة الا متوكئاً على المحاقن وأصناف الأدوية .. وقد تجلى هذا التغيير اوضح ما يكون في شعر رأسه الذي بدأ يتساقط

بكثرة ، بعد ان غلب عليه البياض وهـــو الذي لم يتسرب اليه المشيب من قبل .. الا شعيرات انتثرت هنا وهنـاك ، كخيوط الفجر الكاذب في ثنايا ليلة حالكة ..

وظهر كذلك في شاربيه ، اذ بدا عليهما الاهمال فتهدلا فيانكسار حزين ، بعد تلك العناية التي طالما تعهدهما بها ، أيام كانا مرتع اصابعه تعمل بهما فتلا وتوجيهاً نحو الاعالي ..

وقـــد انطفأ معظم ذلك البريق الذي كان اول ما يطالع الرائي من خلال الحمرة الخفيفة الـــتي تغشى بيـاض عينيه الواسعتين ، فيوحي اليه بما خلفه من فطنة فطرية نفاذة .. وانتشرت التجاعيد في جميع انحاء وجهه بعد ما كانت محصورة من قبل في بعض جبهته المسطحة .

حتى هندامه الانيق ، الذي اعتاد الظهور به في اوقات الفراغ ، قد فارقته تلك العناية القديمة ، فلم يعد له ذلك الايحاء الذي يرسم للناظر معاني الاعتداد والقوة ..

ان سرواله اليوناني الطراز لا يزال كعهده القديم يترنح بين ساقيه سرجه ، وتتجمع في الاعلى طياته بشكل يؤكد انه مستهلك مقداراً غير يسير من القماش ..

والصدار المخملي لا يبرح مستريحاً فـوق ذلك السروال ، يعرض ذوق جيله بذينك الخطين المتوازيين من العرى المصنوعـة من الـــبريم الحريري .. وكذلك سترته لا تزال تبدو على منكبيه في شكلها المألوف قصيرة مشقوقة الاسفل من خلف بشكل يحفظ لها امتيازها الاصيل عن الطراز الغربي ..

ولكن ذلك كله قد فقد سحره المعهود .. فاذا هو مشعث كشعر صاحبه ، مضطرب الاوضاع كذهنه المشوش ، ليس له من إيحـاء سوى أنه رداء يؤدي وظيفته في ستر الجسم على أي حال ..

أجل .. لقد كانت معركة المرفأ تأكل من أعصاب أبي جهـاد ؛

فتغير معالم حياته ، وتلتهم صحته في غير رحمة .. وهو مع ذلك مضطر الى ان يخوضها مبتسما ، يتصنع عدم المبالاة ، خشية ان يقع عدو منه على ظاهرة ضعف تهدم في لحظة كل ما تظاهر به من تجد حتى اليوم .

ولقد كان هذا الكبت سبباً هاماً في مضاعفة متاعبه النفسية ، اذ ما يكاد يخلو الى فراشه بعد نصف الليل حتى تنبسط أمامه مشاكل النهار متعاقبة الواحدة تلو الاخرى .. فاذا ما أمكن للكرى بعد هذا ان يتسلل الى جفونه تبعته أشباح المشاكل الى عالم الاحلام ، حتى ليسمع أهل بيته من هذيانه وسبابه أثناء ذلك ما يسلبهم القدرة على مواصلة النوم ..

ويالها اعباء لم يكن في وسع مثله ان يتصور بعضها قبل دخوله هذا المرفأ ، فكأنما كتب عليه ان يكون همه وشقاؤه على نسبة محصوله من المال ، فكلما أحرز منه دفعة كان عليه ان يواجه محنة !.

وفي مثل هذا الجو المشحون بالارهاق كان طبيعياً ان تقفز الى خياله صور الأمس .. الامس الذى طالما شغلته عن تذكره طلائع النجاح الكبير ، فظنه قد انطوى في غياهب الزمن الى غير رجعة ، فاذا بهذه الصور اليوم سلوته الوحيدة في ركام هذا البلاء ...

لقد ذهبت الشبكة بخيوطها القانية ، وغاب هيكل المجذاف في ثنايا الفناء .. وفارق الشص والقصبة و (المطريان) يديه وعينيه .. ولكنها جميعها لا تزال حية تختلج في أعماق قلبه .. لقد استحالت الى ارواح خفية تجيش في خاطره وتهمس في مشاعره ، فترده الى ذكريات اكبر من حقيقة الماضي .. الذي ما كان ليصدق ان فيه اثارة من جمال ..

على ان ذلك كله كان ممكن الاحتمال لو جاءت النتائج حاملة الى قلب ابي جهاد بعض العزاء .. ولكن مما يضاعف الأسى ان كل نتيجة جاءت اشد ايلاما من مقدمتها ، وها هو ذا اخيراً يشهد نهاية الفاجعة بتأميم اعمال

المرفأ ، وحجز جميع المراكب التي بذل في انشائها عرق جبينه ودم فؤاده .

وكان عليه بعد ذلك ان يهجر المرفأ الى الأبد ، كي لا يقع بصره على منشآته المغصوبة ، تعمل لغير مصلحته ، وتحت غير قيادته .. وحاول تحقيق هذا الهجر بكل ما بقي لديه من قوة .. ولكن عبثاً .. لأنه كان أعجز من ان يصرف قلبه عن قرب هذا البحر الذي استقبل طفولته واحتضن شبابه ، وشهد مراحل شيخوخته ..

وتحت ضغط هذا الهوى القديم جعل يجر قدميه كل صباح الى المقهى المطل على المرفأ ليقضي معظم اوقاته .. ولكنه ما كان ليطيق رؤية مراكبه المحجوزة .. فهو يتخذ مقعده مداراً البحر ؛ مواجهاً صدر المقهى .. الذي طالما تزاحم رواده حول ابي جهاد ، يصغون الى حديثه وينتظرون اشارته .. فاصبح اليوم كالنسي لا يكاد يجد فيه انيساً سوى افراد قلائل من زملاء الشيخوخة !..

ويتمالك أبو جهاد بازاء ذلك ضاغطاً على عواطفه ، ويحاول اغراق همومه في ذلك الضباب الذي ينفثه من دخان النرجيلة .. فاذا خياله ينطلق من جديد وراء الماضي البعيد الذي دفنه ذات يوم في البقعة الزائلة من هذا المرفأ كما ينطلق خيال الغريق وهو يستحضر طيف ليلة سعيدة .

قصة قنبلة

ست عشرة سنة قد تراكمت حتى الساعة فوق تلك اللحظة .. ولكنها لا تزايل خاطري ، وكثيراً ما تطالعني بها الذاكرة على غير موعد ، فأحس لها من الرهبة ما يجعلني أعيشها من جديد ، كأني أشهد أحداثها لتوي ، فاذا أنا متوتر الاعصاب ثائر الفكر ، أتصور عشرات الوسائل التي من شأنها ان تساعدني على دفع الخطر .

كان كل شيء يومئذ ينذر بالشر .. وكان الحذر هو الصفة البارزة التي تغمر الناس ، فكل فرد يتوقع شيئاً مخيفاً ، وان كان لا يدري من أين سينقض عليه ..

وعلى الرغم من شدة التدابير التي اتخذها الفرنسيون لعزل أسماع الناس عن اخبار المدن السورية الأخرى ، فقد كانت هذه الانباء تأخذ طريقها الى كل مكان ومن كل مكان ، مصورة المسلك الوحشي الذي عمدوا اليه في دمشق وحمص وحماه وحلب واللاذقية ، لخنق الانتفاضة الجديدة ضد استمرار ظلام الاستعمار ، تلك الانتفاضة التي كانت حصيلة الكبت الثقيل الذي أناخ بكلكله على الصدور طوال خمس سنوات الحرب فجاءت تعبيراً عن الأمل الجديد الذي أخذ يراود الشعوب المستضعفة في كل أقطار آسية وأفريقية ، بأن تكون هذه الحرب الطاحنة مبدأ مرحلة جديدة في طريق التحرر التام من جميع ألوان الظلم والاغتصاب والآلام .

والحق لقد كان لسوء تصرف الفرنسيين في كل مكان فضل كبير في اثارة النفوس ودفعها للنضال من جديد ، على وجه أتم وأجدى مما كانت عليه من قبل ، ولقد أفاق الطرطوسيون ذات يوم ليجدوا أنفسهم في جو كل شيء فيه يوحي بأن ثمة معركة تقترب ، فالطرق مغلقة ، والجنود الغلاظ من السود والمرتزقة يقفون بحرابهم على مدخلها ، لا يسمحون لاحد باجتيازها الا بعد كثير من الاهانات ، وعديد من اللكمات .. وما هو إلا يسير من الوقت حتى كان الشعور بالخطر قد أخذ بتجميع القوى ، وتوحيد الافكار .

وقد عجل في ذلك جبن الفرنسيين الذي أحاطهم بجو من الخوف جعلهم يتخيلون أن كل شيء يستعد للانقضاض عليهم فلم يجدوا ما يحمون به انفسهم سوى الارهاب ، يصبونه على الناس بمختلف الاشكال . . ويدؤوا يسيرون دورياتهم في جميع ساعات الليل والنهار ، على صورة لا يعرفها الناس الا في جبهات المعارك . . وقد بلغ هذا الارهاب قمته خلال هذا الاسبوع ، اذ انطلقت تلك الدوريات في شاحنات مكشوفة ، نصبت فيها المدافع الرشاشة موجهة الى صدور المارة ، وخلفها الجنود بخوذهم الفولاذية ، مستعدين لاطلاقها لدى أول اشارة ، وجعلت هذه الشواحن تجوب الاحياء كلها ، يرشدها زمرة من الموتورين الذين استولى عليهم الاجنبي بغير ثمن . . فيثير منظرها كوامن الأحقاد ، ويشحن النفوذ بالوقيد الذي يجعلها على أهبة التفجر ...

وفي هذا الجو الحربي أضحى السلاح أهم ما يفكر به كل فرد ، فيسعى للحصول عليه من أي سبيل ، ولم يكن ذلك متعذرا مادام الطريق الى حماة مفتوحا ، فحماة تخوض معركتها الكبرى ضد العدو صفا مرصوصا لم يتخلف عنه قادر .. وأخبار انتصاراتها الرائعة تملأ قلوب الطرطوسيين وسائر مدن الساحل حمية وتشوقا الى مثلها .. وقيادة حماة الوطنية تعرف أن موقع طرطوس يؤلف جبهتها الخلفية التي سيمعد العدو

حتما الى التسرب منها الى حماة .. فواجب اذن لامناص منه أن يملأ هذا النفر الحساس بالسلاح الذي يكفي لشغل العدو ..

وتوثقت الصلة بين طرطوس وحماة بشكل لم يعرف له مثيل من قبل فمن حماة يرد السلاح الى طرطوس ، ومن طرطوس ينقل الجنود المغاربة الى حماة .. اولئك الذين يفرون من ثكنات العدو ، ليسهموا مع اخوانهم بنصيبهم من القتال ضد العدو المشترك ....

وهكذا ، وخلال وقت يسير ، كانت درويات الشباب الطرطوسي الشاكي السلاح تجوب أطراف المدينة في كل ليلة ، حتى تنتهي الى حدود الثكنة الفرنسية ، وأقبلت نجدات الجيش الوطني للاسهام في حماية البلد ، فازدادت بذلك معنويات الشعب قوة ، وعرفت طرطوس أيامئذ ألوانا من التضامن العجيب بين كل فرد وآخر من العاملين في جبهة الحرية ، وبين هؤلاء وافراد الجيش الوطني الذين غمرهم الأهلون من الرعاية والخدمة والحب بما جعلهم كتلة من الحماسة المتدفقة ..

وطبيعي أن ينتهي هذا الاستعداد من كلا الجانبين الى الاحتكاك الذي لا مهرب منه وقد حدث ذلك ظهر أمس إذ بلغ تحدي الفرنسيين أشده ، حين بعثوا بالمرتزقة من جنودهم يستفزون الناس ، ويعتدون على المارة ... وما هو الا ان انتشر الصريخ في أحياء المدينة حتى انطلقت القوى الشعبية تتجمع هنا وهناك .. وقد استقر في قلوب الجميع دون اتفاق سابق ، أنه لا بد من ضربة تشعر العدو بقوة الصف الشعبي ... وانفجرت الشرارة الاولى بحزمة من المتفجرات قذفهم بها أحد الفتيان على حين غفلة ، فاذا هم يتدافعون بالمناكب في الطريق الى الثكنة ، وقد كاد يدوس بعضهم بعضاً . وفي هذه الغمرة من الاضطراب فوجئوا بسيل من بندقية رشاشة خرّ على أثره سبعة منهم يلفظون انفاسهم .. ولولا تحرك القوة الانجليزية لحماية بقيتهم لارتفع عدد ضحاياهم أضعافا مضاعفة .. وكان هذا درساً كافياً أقنع الفرنسيين بأن الامر قد افلت من ايديهم ،

فليس من مصلحتهم أن يغادروا أوكارهم بعد اليوم إلا تحت ستور الظلام .

وجاء صباح اليوم التالي ، وكنت على مقعد خارج المستودع ، أدقق حساب اليوم الماضي ، منتظراً فراغ الخدم من ترتيبه ، حين لمحت عيني تلك المفاجأة الرهيبة .. جندي من مرتزقة العدو يمشي في حذر شديد ، وفي يده شيء .. وعيناه منصبتان عليّ ...!

وفي سرعة أدركت كل شيء .. لقد كان ذلك الشرير قابضاً على قذيفة يدوية في وضع التأهب للاطلاق ، وكان اتجاهه مركزاً على المستودع ! ...

لم أكن بحاجة الى كبير ذكاء حتى أعلم أنني ورفاقي المستخدمين نوشك أن نتحول أشلاء .. ثم يعقب ذلك مجزرة لا يدري غير الله عواقبها ... !

ومن يدري .. فقد يكون وراء هذا الشيطان عشرات من رفاقه ينتظرون بدء المعركة ، ليثأروا للضحايا الذين خسروهم أمس .. وربما كان الأمر أيسر من ذلك فلا يعدو أن يكون وحيداً عجز أمس عن اللحاق برفاقه فاختبأ في احدى الدور الموالية حتى الساعة .. وهو الآن يأخذ طريقه الى الثكنة ! ...

واذا صح التوقع الاخير فليست هذه القذيفة بيده إلا دليلا على ما يركبه من شديد الخوف .. ومهما يكن من شيء فان امامي مشكلة هائلة تقتضي ان افكر وأحكم وانفذ في سرعة البرق ..!

وكاد الندم يصعقني عندما تذكرت انني وضعت المسدس قبل دقيقة في درج المكتب ، وهو الذي ما كانت حمائله لتفارق عنقي منذ شهر على الأقل .. فلم يبق ثمة أمل اذن باستعمال السلاح ، وكل ما استطيعه هو ان أدعه حتى يصير الى أضيق نقطة من الطريق المواجه لمدخل المستودع ، فأثب عليه بخفة النمر لاقذف به الى المنخفض .. منخفض

الشاطىء المقابل ..

واتخذت وضع المتحفز ، وأنا أراقب خطوات الجنـــدي بمؤخر عيني ...

وأحسست أن لدي من القوة ما أستطيع به ان أرفعه كالريشة وأضرب به الارض ....

ولكن ... شاءت حكمة الله أن تبطل في اللحظة الاخيرة كل ما أعددته من خطط لدفع الكارثة ...

حدث ذلك حين أطل عليَّ وجه الموظف (مدحة ...) من طرف الشارع الايمن ، فرفعت صوتي باسمه أدعوه الى تناول مخصصات دائرتـه من الحبوب والسكر ..

ووصل الموظف (مدحة ...) ورفيق معه الى باب المستودع .. في اللحظة نفسها التي وصل فيها الجندي الى المكان المنتظر ...

وأدرك هذا انه ان قذف بالقنبلة فسيقضي معنا على اثنين من أذناب أسياده.. وهي خسارة يتعذر تعويضها في هذه الظروف العصيبة ...

وهكذا لم ير متسعاً لتنفيذ جريمته .. وبالتالي لم اجد ضرورة لتنفيذ مغـامرتي ..

وكفى الله المؤمنين القتال ...

★ ★ ★

المفاجأة الاخيرة

كان ذلك ١٩٤٠ ، وفي اليوم العاشر من شهره الأول ..

وكان من موجبات الرياضة الصباحية التي أخذت بها نفسي أيامذاك أن أخرج على دراجتي الى ظاهر المدينة (ـ طوطوس ـ حتى جسر الغمقة) ذلك النهير الذي يجري نحو الشـــاطىء القريب ، يتدفق في بعض ، الفصول في نشاط وقوة حتى ليتغلب على حواجز الجسر فيطغى فوقه قاطعا الطريق على المارة ، ويبطوء في فصول أخرى ، ويسرف في البطء والتكاسل ، حتى ليعجزه الجري ، فيقف منهوكا ، ويفيض أكثره ، فلا ترى منه دليلا على الحياة الا بقعا من الماء متفرقة هنا وهناك ، تسبح في بعضها بقايا الحنكليس مفتشة عن طعامها ، ويعج بعضها الآخر بصغار الضفادع متدافعة نحو النور من تحت النسيج الطحلبي الكثيف ..

وما أدري بالتحقيق لماذا كنت أستشعر الضيق المرهق عندما تؤخرني بعض المشاغل عن موعد هذه الرحلة عقيب صلاة الفجر من كل يوم ، أهو ولعي بالطبيعة الذي ملك هو اي فلا تستريح عيني الى منظر الا تخلله شيء من زرقة البحر ، أو صفرة الأصيل ، أو خشوع الهضاب النائمة على مقربة من البلد الصغير في ناحية المشرق .

أم هو ثقل الضغط الذى أناخ على صدري منذ حين ، فشحن أعصابي بالتوتر الذي ينذر بالانفجار ..!

والظاهر أن الأمر يعود الى هـذه الناحية الثانية دون غيرهـا ،

ذلك لأن الجو الخانق الذي كان يحيط بي أيامئذ من شأنه أن يدفعني للبحث دون وعي عن متنفس أفتح له صدري ، في نجـــوة من العيون التي كنت أحسها تلاحقني أني أتجهت ..

انه جو الحرب الذي يملأ الفضاء برائحة البارود ، ويفعم الخيال بصورة الأشلاء ، ويهوي على الصدور بآلاف التوقعات المخيفة المخزنة ..!

كنا قبيل عام ١٩٣٩ في غمرة من النشاط الجارف ، نشعر بكثير من العزة اذ نرى أنفسنا نحن الشباب قادرين على ازعاج ذلك الغاصب الذي اكتسح وطننا منذ عشرين ســـنة ، ولا يزال باذلا أقصى ، لتثبت وجوده بكل ضروب الاغراء والارهاب .

ولم تكن ثمة خطة منظمة تقودنا في هذه المعركة غير المتكافئة ، ولكنها روح الكفاح العام ، الذي أثارته بطولات هنانو والجابري والاتاسي والأطرش والخراط ومئات المناضلين الكبار من اخوانهم ، كان يهز كياننا بعنف ، فيبعث في أعطافنا طاقة لم تلبث أن غمرت السهل والجبل من محافظة اللاذقية ، فاذا هناك المنشورات نوزعها في كل مكان ، ومنها أخبار النضال الذي تخوضه دمشق وحمص وحماة ، وحلب ، مما حال المستعمر دون وصوله الى أسماع الناس هنا ، . وفيها حث على الاضراب احتجاجا على المجازر التي يثيرها ذلك الوحش الغاضـــب في وطننا الأبي ، وتوسيعا لجبهة العمل القومي الذي لا يجـــوز أن يتخلف عنه ذو ضمير ..

وجاءت ظلمة الحرب .. وكأنما كانت بالنسبة الى الكفاح الوطني هدنة جبرية ، فوجيء بها الناس فاضطروا لوضع سلاحهم الى حين ..

وفرض على سورية ان تتجرع قسطها المر من أهـــوال الحرب : مصادرة للحريات ، وحصراً للأموال ، وأخذا بالشبهات وكان حظي من ذلك بعد تسريحي من وظيفتي في التعليم الابتدائي أن زج بي في السجن العسكري مع خليط عجيب من الناس بينهم ذوو العمل السياســـي الذين يقودوا مثلي السجون ، وفيهم من كان اعتقاله خطأ مطبعيا ، فاذا هو ينطلق

بالبكاء ويحلف بكل الأيمان انه لم يأت اثما .. ولم يشارك قط في عمل وطني ...! ..

ولم يطل زمن سجني هذه المرة فاذا أنا اخرج منه ، لا لأسترد حريتي بل لأجد نفسي في سجن آخر حدوده البيت والشارع والمقهى ، أما حراسه فطائفة من (الجارد موبيل) يتبادلون نوبة (المحافظة على راحتي) ، من الصباح حتى لحظة النوم ! ..

وما كان هذا بالامر الذي لا يحتمل لولا ردود الفعل التي أثارها من حولي في نفوس الضعفاء الذين هالهم ذلك ، فلم يجرؤوا على معاملتي أو مقاربتي ، ما قضي علي أن أزجي وقتي في قلق ووحشة لا يقدران ..

وكنت مضطرا للبحث عن الرزق ، فيسره الله في عمل تجاري ، اقترضت رأس ماله من صديق طرابلسي ، رضي ان يقدم لي بعض المال مقابل قسم معين من الربح ..

واقبلت على عملي الجديد شاغلا به كل طاقتي ووقتي انهض له مبكرا ، ثم لا أعود منه الا الى صلاة العشاء ومن ثم الى النوم . .

ومن هنا كانت رحلتي هذه جزءاً من تنظيم يومي فرضته على نفسي ، لأساعدها على التخفف من أعباء ذلك الضغط الذي ليس أجدي في مكافحته من التشاغل عن مواجهته ..

وحملتني الدراجة الى مكاني المألوف من جسر الغمقة ، وأسندتها الى أحد جدارين لأهبط نحو الماء ، حيث اعتدت ان اعقد حبوتي بجانب تلك الشجيرة اليتيمة من التين ..

واستسلمت الى بقية من الاحلام الشعرية تفتح مغاليق قلبي لنقيق تلك الضفيدعات التي استقبلتني بحزمة ضخمة من الاصوات المنتظمة الضائعة بين التحية والاحتجاج ..!

وتركت لأناملي ان تعبث ببعض العشب النائم تحت التينة ... وراقني ذلك اللون القرمزي الذي يصبغ ما حوله من الحصى فأخذت أقلبه وأنعم فيه النظر كأنني أبصره لأول مرة في حياتي .

وحانت مني التفاتة ناحية الحقل المقابل ، فاذا رجلان من القرويين يشخصان ببصرهما الي ، ولكنهما ما ان صافحا نظري حتى انصرفا الى عملهما في الحفر ، وانصرفت الى تأملاتي الحالمة ، ولكنني لم ألبث ان عاودت النظر اليهما في غير وعي ، فاذا هما يشخصان ببصرهما إليّ ثم ينصرفان الى عملهما .. كشأنهما في المرة الاولى .

وتكرر ذلك مني ومنهما كرة بعد أخرى ... ولعلنا أنا وهما كنا نلتقي بأفكارنا عند نقطة واحدة لا تستحق منا اكثر من الضحك .. انها النقطة التي يلتقي عندها طفلان أجبر كل منهما ان يحدق في عين الآخر ، فما يلبثان ان ينفجرا ضاحكين !!..

وكدت أضحك عند هذا التصور ـ لولا انني فقدت القدرة على الضحك من زمان .. فقدتها تحت ثقل هذا الجو الخانق الذي جفف عضلات وجهي ، فلا تتحرك الا في جهد !...

وبدأت خيوط الشمس تتسلق الافق الشرقي مؤذنة باطلالتها المدفئة ... فكان عليّ ان أنهض .

ولم أنس وأنا في الطريق الى متجري أن القي على القرويين العاملين في الحقل تحية الصباح .

.. وتتابعت الساعات وكل شيء يسير في مجراه الطبيعي .. القرويون يعرضون نتاجهم .. ويساومون على حاجتهم والباعة يحاولون اجتذاب المارة بكل وسائل الاعلان ..

ووقفت على مدخل متجري أرقب المارة ، وأفكر في هذا المسكين الذي كلف اليوم مراقبتي ، فاتخذ مجلسه على باب المخزن المقابل منذ أربع ساعات عندما فتحت محلي .. غير أنه كان أشد وقاحة من زملائه ، اذ بلغ به الفضول ان

جاء يفتش بعض الداخلين الى حانوتي .. ينظر في هوياتهم ، ويسألهم عن حاجاتهم . فكأنه مكلف بقطع رزقي ، ومنع الناس من دخول متجري ..

ولكنني لم أعارضه بشيء سوى أنني قررت في نفسي أن أقدم الى الحاكم الفرنسي معروضاً ألتمس به نقلي الى السجن .. اذا كان مصمما على الاستمرار في مضايقتي الى هذا الحد .

وفي هـــذه اللحظة طالعني من جانب الشارع الايسر شخص أعرفه من جلاوزة البلدية ، وقـــد لفت نظري منه تلك الابتسامة المريبة مصحوبة بنظرات اليّ متعمددة .

ثم ما لبث أن ألقى عليّ التحية في لهجة أشعرتني أن لتلك الابتســامـــة علاقة بي وثيقة ورددت التحية بخير منها .. وبطبيعة البائع قلت له : تفضل .

ولم يكن بحاجـــة الى أكثر من هذه الكلمة ، فاذا هو ينحرف نحوي ، ثم يدخل الحانوت مشبـكا يديه خلف ظهره ، ودون مقاومـــة انطلق في قهقة صغيرة ..

قلت له مازحاً : لعلها بقية من سكرة بائتة ..!

قال بل هي سكرة جديدة من أثر قصتك ..!!

قلت : ولكن الحرب لم تدع لنا مجالا لنشر أي قصة .

وهنا جدد ضحكته ثم قال : انها قصتك التي لم تكتبها بعد .

وكان عليّ أن أفكر بما يريد ، فلم أجـــد في ذهني شيئاً ، ولم ألف تفسيراً لكل ما أرى ... فقلت : أوضح .. فأنا منك اليوم أمام لغز لا أعرف له حلاً ..

وتلفت يمنة ويسرة ثم قال : أتذكر القرويين الذين لقيتهما عنـد جسر الغمقة !...

انهما جنديان من (الجارد موبيل) كانا مكلفين باعتقالك وتقيدك ، وباطلاق النار عليك اذا أبديت أقل مقاومة ..!

أما لماذا .. فاسمع : لقد حمل البريد أمس رسالة الى رئيس البلدية تنذره ان ابنه (رياضاً) معرض للاغتيال اذا هو لم يشتر حياته بمئتي ليرة ذهبية ... فعليه اذا شاء انقاذه أن يضع المبلغ المطلوب غرب جسر الغمقة ، تحت شجرة التين ، ضمن مهلة تنتهي مساء أمس ، والا نفذ حكم الموت بابنه خلال الاسبوع .

وتابع الشرطي : ولقد عرض الرئيس موضوع الانذار على الحاكم الفرنسي ، فاتخذ للامر ما يجب من التدابير ، وفي مقدمتها مراقبة مكان الشجرة ، والقبض على كل قادم نحوها حياً أو ميتاً !.. ولم ير الجنديان ضرورة التعجيل بعد ان عرفاك وابصراك متلبساً بالجريمة .. جريمة الجلوس عند التينة ، وتفتيش ما تحتها واكتفيا بتقديم تقريرهما الى الحاكم الذي اودعها السجن عقوبة لهما على ذلك التهاون . وقبل قليل كان الحاكم على أهبة اصدار الامر باحتجازك لولا المفاجأة الاخيرة ...

وسكت قليلا ليثير أشواقي ثم تابع : لقد جاء السائق (فلان) الى رئيس البلدية يقص عليه خبر الانذار ، ويعترف انه ورفيقه (فلانا) قد كتباه ثم أودعاه البريد تحت تأثير السكر ...

الطاغية ...

كنت مساء امس اعاني نوبة من زحار قديم .. فكانت ملازمتي للدار شيئا طبيعياً وفي الوقت نفسه فرصة مناسبة لمتابعة انباء الاضراب صورة غير مباشرة ،وكانت الانباء سارة .. لقد ذاع منشور الاضراب في كل مكان من البلد ، وتردد اصحاب الحوانيت في الصباح بين ان يفتحوها او يدعوها مغلقة .. ولكن الاكثرين آثروا استجابة الدعوة فوقفوا على مقربة من حوانيتهم يترقبون الاحداث .. حتى اولئك الذين اعتادوا التمرد على دعوة الاضراب قد اخذوا يتناقصون اليوم حتى اوشكوا ان يختفوا ، ولا سيما بعد ان شاهدوا اسراب الصغار يطوفون الشوارع وهم يصيحون في نغم صاخب : (سكر سكر يا ...) وقد حاول احدهم ان لا يسكر فاذا هم يصبون على بابه سيلا منهمرا من الحجارة اضطرته الى التسليم ...

وما هي الا ساعة حتى خيم الصمت على شوارع طرطوس ، ولولا شذوذ القسم الجنوبي المألوف في مثل هذه المناسبات الوطنية لكان الاجماع تاما لا يشوبه اي انحراف ..

وكنت ارى من وراء نافذتي المطلة على طريق عام افواج المارة وهم يتحدثون حول الاضراب .... واشاهد افراد الدرك يتطلقون بأسلحتهم صوب الشارع .. وابصرت خلف هؤلاء ، رأيت واحداً من كبار اصحاب الوجاهة

يتحدث مع القائم مقام وهو يشير بيديه في حركات عصبية .. وانتهى الى مسمعي من كلامـــه مايترجم حنقه عليّ بصفتي في زعمه رأس المدبرين لهذا الاضراب ...

وفي الحقيقة كان اضرابنا اليوم عملاً وطنياً مزدوجا ، فهو من ناحية تعبير عن تضامن البلد مع دمشق واخواتها من مدن سورية ، ومن ناحية اخرى محاولة لعزل هذه الطبقة ذات الوجاهة الموروثة عن ميدان القيادة الشعبية ... وقد حاول الفرنسيون واعوانهم استغلال هـذه المحاولة فراحوا يثيرون اعصاب هذا الرجل ضد الشباب الذين ينهضون بعبء العمل في مقاومـة الاتجـاه الاستعماري ، ملقين في روعمان في هذا تحديا جريئـاً لنفوذه ولمصالحه في البلد ، فهـــو بدافع من هذا الايحاء يمضي الآن لاستعمال نفوذه في إفساد الاضراب .. ولكن عبثا يحاول ، فانا واثق من ان الناس قد بداوا يتعلمون من هذه الفئة التي فرض الجهل سلطانها على رقابهم ، اذ اصبحوا اكثر وعياً لفكرة الحرية ولمعنى الوحدة السورية ، التي حطمهـا هؤلاء المستعمرون ، فجزأوا الاقليم الواحـد الى عـدد من الحكومات والدويلات . ليتمكنوا من تفتت القوة المقاومة لأغراضهم الجهنمية .. ثم لم يمض سوى نصف ساعة حتى جاءتني الاخبار بتوكيـد ما توقعت اذ ان الناس قد رفضوا الاستماع لـكلام هذا الكبير ، وراحوا ينقسمون من حوله ، حتى لم يبق غير القائمقام .

وطرق باب الدرج بضربات غريبـة ، واسـرع ولدي يهمس اليّ بصوت مبحوح : انهم الدرك .. ثلاثة من الدرك ! .. وما كنت لأفاجـأ بهذا فأنا انتظر وصولهم منذ منتصف الليل ، فاستهلتهم ريثما ارتدي ثيابي الخارجيـة ، ثم مضيت معهم دون كلام حتى انتهـوا بي الى مكتب الطاغية (فيو) ...

ولقد سبق ان رأيت فيو هذا قبل عشرة أيام وذلك عقيب حمـلة تفتيشية اراد ان تكون طليعة اعماله في طرطوس ، اذ وجه كوكبـــة

من الدرك فأحاطت بمنزلي وحاوتي اثناء صلاة الجمعة ، وجاءني الخبر الى الجامع ، فعملنا على تمديد وقت الصلاة ريثما تمكنا من انقاذ ما يمكن انقاذه ، ثم انتهت الحملة بمصادرة بعض الاوراق التي لا طائل تحتها ، ويومئذ بعث هذا بطلبي ليرد إليّ هذه الاوراق وليقول لي : ان (جارنياس) الذي اطمعك حلمه قد ذهب الى غير رجعة .. وسترى ان (فيو) رجل آخر يعرف كيف يسحق كل العقبات . . !

وكانت شخصية فيو هذا لا تزال مجهولة عند الناس ، يحاك حولها من الاحاديث ما يشبه الاساطير .. فهو عند بعضهم الرجل المتواضع ، العامل ، يطوف بأزقة المدينة ليستكشف بنفسه مواطن الحاجة الى الاصـــلاح ، ولا يضن على فقير بالتحية .. وهو عند الآخرين الغشوم الفاتك الذي ملأ قضاء مصياف من قبل رعباً وترويعـــاً .. وقد جيء به الى طرطوس لقضاء على حركة هؤلاء المغامرين من الشباب ، الذين لم يحسن جارنياس تأديبهم و . . .

.. وما هي الا لحظات حتى فتح باب المكتب ودعيت للدخول على المستشار الذي استقبلني بنظرات حادة حاول ان يسكب فيها كل معاني الوعيد . . .

وسرع يهز منشوراً بيده وهو يقول : من عمل هذا ؟..

قلت : لعلك أعلم مني ...

ولكنه لم يكن راغباً في افساح المجال لأي جـــدال فقال في لهجة أراد ان تكون حاسمة : لا مجال للكذب ولا للتملص ... اني أعرف كل شيء ..

وكانت صدمة مريعة دفعتني الى التساؤل : ليت شعري . . أهو صادق في مايقول ؟.. أتراه قد علم اني صائغ المنشور !.. وانه نسخ بأقلام اولئك الفتيات اللواتي لم يعرف بهن أحد الا أنا ورفاقي الثلاثة !.. وأينا هو الذي كشف الستر عن السر !. ان أحد الثلاثة شقيق لموظف هو خادم الوجيه الكبير صديق الفرنسيين ..

ليت شعري امن هنا جاءت الخيانة ...!!

ولم أستطع القطع بالامر فقد يكون كلام فيو ضرباً من حرب الاعصاب ، ومهما يكن فلا ينبغي ان افرط بالسر ...

وأصررت على موقفي ... ووقف يضرب على مكتبه بجمع يده وهو يصيح بصوته الحديدي الفظ : قلت لك .. أعرف كل شيء .. فلا مجال للجدال ..

ورأيت ان انهي هذه التمثيلية غير الممتعة فقلت بتصميم : ان القوة هي التي تتكلم على لسانك ... وليس لديّ ما يقابلها فأصنع ما تشاء ...

واخذت طريقي مع الثلاثة الى حيث اراد ...

٢

كان البرد جدّ قارس تلك الليلة ، وكانت الرياح في معركة هائلة قيل ان طرطوس لم تشهد مثلها منذ عشرات السنين ، وقد بلغ عصف الدبور حداً أطاح معه بعدد من الدور ، كان أحد ضحاياها شيخاً مسكيناً من بقايا أتراب والدي ...

وحضرت الى حجرة مظلمة كان لها فيما مضى نافذة تطل على ساحة المخفر ، ثم بدا لهم ان يقيموا بجوارها غرفة اخرى ملئوها بسروج الخيول وادواتها الاخرى ، فباتت لذلك مصباً للروائح النتنة ترسلها هذه المحتويات ، فتمتزج ببخار الروث والابوال الوافدة من الاصطبل المجاور ...

وأبى فيو ان يسمح لي بالفراش فلففت جسدي بتلك العباءة التي استعرتها وأنا في الطريق من احد الاصدقاء ، وجلست على لوح خشبي عريض لا ادري كيف غفلوا عنه فرفعني عن مباشرة الرطوبة الارضية ..

ولما وافت الساعة العاشرة من الليل تسرب اليّ مع عصف الرياح عويل ، سرعان ما تبينت من خلاله صوت رفيقي (ا . م) آتياً من الحجرة

الواقعة على مدخل المخفر ، تتخلله طقات سـوط تتصاعد بين اللحظة والاخرى ... فكان عليّ ان انتظر دوري واتهيأ لتحمل القسمة المناسبة من هذه السياط ..

ومرت دقائق ثقيلة اصابني خلالها مثل الدوار ، وشعرت بثقل يضغط على معدتي فأكاد الفظ مافيها حتى انقطع الصوت ، وساد سكون قصير قمقمة نقمة احدية ثقيلة تضرب الارض في خطوات عسكرية ، وقد بدأت خفيفة بعيدة ثم جعلت تتضخم وتتقدم حتى اختتمت فجأة عند باب حجرتي ... وسمعت صليل مفتاح يتحرك في القفل ، ثم فتح الباب وبدأ لعيني من خلال الظلام صف من الدرك طويل يسند كل من افراده بندقيته الى كتفه . يتقدمهم ذلك الضابط ـ رسلان ـ سوطه اللعين ... فكأنهم قادمون لتنفيذ حكم بالاعدام ! ...

وبحركة غير واعية نهضت على قدمي وانا اقول : اني مريض لا احتمل اي ضرب ...

وجاءني صوت رسلان يصيح وقد اثقل لسانه السكر : مريض ! ... ولازم تموت كمان ..

وما ادري الذي حدث هنا ، ولكنني سمعت دفعات من الشتائم القذرة تنصب على اسماء كنا نعتبرها ايامذاك موضع الاحترام والتقديس ...

ثم اغلق الباب وانسحب الدركيون ، وتلاشت اصوات احذيتهم في الممرات البعيدة ... وما اذكر انني ذقت طعم النوم في بقية ذلك الليل الا قبيل منتصفه ، اذ سمعت حركة المفتاح وهو يدار ببطء كثير... ثم شاهدت ـ على ضوء المصباح الخافت ـ وجه رئيس المخفر (ي . ع) يطل من شق الباب ، وهو يحمل اليّ غطاءه الصوفي ويقول في همس حذر : استعن بهذا الى الفجر .. » وعاد من حيث أتى ..

وقدرت الرجل صنيعه بهذه المغامرة التي قد تكلفه كثيراً والتي اتاحت لي

عفوة كانت جد ضرورية في هذه الساعات الرهيبة ...

وكان علي ان أتوقع ظروفاً عصيبة لا نعرف مـــتى تنتهي لذلك صممت على الاضراب عن الطعام .. ووجدت في ذلك اقصر طـريق الى التخلص من وجـه ذلك المجرم السكير رسلان ... ولماذا لا أقول أيضاً : للتخلص من ذلك الطعـام الذي لا ينتهي اليّ الا بعد ان تفسده العيدان القذرة بحثاً عما يسمونه بالاشيـاء الممنوعة ...!

وما كان أشد وقع هـــذا الاضراب على المستشار واعوانه ! .. فمـا إن جاء اليوم التالي حتى هاجوا وماجوا ، وراحوا يستعينون بـكل وسيلة لاقنـاعي بالعدول عنه ، وبعثوا بالطبيب يتفحصني ويتلطف بي ، فـكان هـــذا يزيدني اصراراً ويرفع طاقتي النفسية ، فرحت انحداهم قائـــلاً : ليبعثوا جلادهم . وليصبوا كل ما لديهم من أنواع العذاب ... لقـد صممت على الموت ولن أعود .. »

ومضت ليلتنـا تلك دون تعذيب .. ثم تلتها ليال أخر كذلك .. حـتى كان بعد الظهر من يوم الجمعة .. فاذا بالباب ، يفتح ويطل عـليّ دركي طيب القلب طالما زجرته فصبر عليّ ، ودعاني لمواجهـــة المستشار وهو يقول في حذر : لقـــد أفرج عن رفيقـــك ... ولعلك ستتبعه الآن ..)

ومضيت نحو غرفة المستشار .. وصعدت ســـلم السراي مستعيناً بالجدار لأقي نفسي السقوط ... وهناك استقبلني فيو بوجه يتصنع الابتسـام وهـــو يقول : ايه سيد غاندي !... هـــل تريـد ان ينتهي رمضان ؟...

قلت وأنا منصرف عنه الى النافذة : انتم الذين جعلتم من شباط رمضان .. وفي يدكم ان تصححوا الوضع ..

قال حسناً .. لقد اردنا ان نشعرك بان لدينا سجونا واشياء اخر .. وأرجو ان تكون قد انتفعت بذلك !..

فشعرت بانتفاضة هزتني هزاً ، وأحسست بالحقد يكاد يخنقني فلم أتمالك ان قلت : لم اكن اجهل هـــذا .. ولكنني تعلمت في سجونكم اشياء جديدة ما كان ينبغي ان تفوتنا ..

قال : وما هي ..

قلت: ان نتخلص من ظلمكم واستكباركم مهما يكلفنا ذلك من الثمن ..

وربجر فيو .. وانتصب كالدب المصارع وراء مكتبه .. وراح يقـــول :

سأفرج عنك الآن .. ولكن تذكر دائماً ان تلك الحجرة الجميلة بانتظارك ..

٣

وكان الاضراب قـــد سجّل يومه الستين ، وعجزت اسلحة الفرنسيين عن إيهانه وتفتيته ، وكان ذلك الاضراب ذروة سلســـة من كفاح ملأ حوانب الوطن السوري باشلاء الشهداء .. بدأ بدمشق ثم سرى في أعصاب البلاد كالنار في يابس الهشيم ، حتى شمل كل مدنها ساحلاً وداخلاً .. وكان على العناصر الوطنية في منطقة اللاذقية ان تنهض بالحظ الوافر من هذا النضال ، لتثبت للفرنسيين ان عناصر التفرقـــة لا تمثل إلا مصالحها الزائلة ، وان جماهير الشعب في الشط يـد واحدة وقلب واحد في طلب الوحدة السورية أمل الجميع . ومن هنا تفجرت طاقات العاملين نشاطاً لا يفتر ، وعزيمة لا تكل . ومساعي جبارة سرعان ما آتت أكلها بتجمع العناصر العاملة والمترددة في مؤتمر وطني يقرر مصير هذه المنطقة بشكل حاسم ..

وشاء القدر ان يجتمع المؤتمر في منطقة نفوذ فيو ، وتحت مسكنه شرقي دار الحكومة في طرطوس . وامل فيو نفسه قـد سعى الى توجيه المؤتمر الى هذا المكان بغية التأثير في مقرراته .. ولم يدخـــر وسعاً في

حشوه بالالغام الناسفة ، إذ دس فيه العديد من عناصر التخريب الذين لا يعصونه ما أمرهم ..

وكانت معركة بكل ما في المعارك من خطط واحكام ومناورات ..

وانتشر دعاة التيارات المختلفة يبثون افكارهم هنا وهناك ، ويحاول كل منهم اصطياد المؤيد لاتجاهه وكان للشباب المؤمن في طرطوس أثر طيب في هذا الميدان الصاخب ..

وفي قلب الصراع جاءني رئيس مخفر السجن ، يقول: « ان المستشار يذكرك بأن الحجرة فارغة بأنتظارك .. »

ولم يكن في يومنا ذاك متسع لخوف ، أو تردد ، فرددت عليه : « قل لفيو : ان الحياة في ظلكم سجن كبير .. فلا فرق بين مكان وآخر منه .. ولكن نهاية هذا السجن قريبة ان شاء الله فلينتظر قليلاً .. »

وكانت زوجتي تعالج مخاضاً .. وبلادي تعالج مخاضاً .. وكان المألوف ان بين كل ذكر وآخر من أولادي انثيين ، وكان الدور هذه المرة للأنثى ، فقلت لأهلي وأنا أغادر المنزل يومئذ : ربما لا أعود . فاذا ولدت انثى فانتظروا بتسميتها نتيجة المؤتمر ، فأما شر فتسموها (تعساء) وأما خير فتسموها (نعماء) ...

ولم يأت أصيل ذلك اليوم حتى خرجت ابنتي الرابعة الى احضان الدنيا ، وشاء الله ان يجير قلبها فجنبها اسوأ الاسماء وكساها الاسم الذي لايزال رمزاً على انتصار الوحدة في ذلك المساء (نعماء) ... وتعالت الاحداث السعيدة ذلك اليوم .. وكان أروعها نبأ وصل دمشق يؤكد ان المدو قد انحنى امام تصميما لحق .. واعلن مفوضه (السامي) اقرار فرنسة السورية بوحدتها واستقلالها ..

وامتلأت طرطوس يومئذ بالافراح ، ورفعت اعلام الوحدة في كل مرتفع منها .. وكان ذلك اليوم آخر عهد لطرطوس بالطاغية (فيو) ... !

نبأ صغير

لم اعد اذكر بالضبط في اي شهر حدث هذا ... ولكنه بالتأكيد عام ١٩٣٤ .

كانت الساعة قرابة التاسعة صباحاً عندما جاءني ذلك الدركي فحياني بأدب ، ثم قال : (إن القائد ينتظر قدومك ...) ولم تكن مفاجأة، اذ كنت اتوقع مثل هذه الدعوة بين اللحظة والاخرى . وشعرت برغبة في استعجال الامور فما ان تواري الدركي في اعماق الشارع حتى كنت على اثره ..

ونقرت باب القائد عمر ، ثم تقدمت فصافحته واخذت مجلسي على مقربة من مكتبه ، وهنا ابصرت رفيقي عليا جاثما في صمت كئيب على مقعد في طرف الغرفة . وقد اسند وجهه الى راحته ، وبدت في ملامحه مسحة من الجزع العميق ، لعل مردها الى انه لأول مرة يجد نفسه في مثل هذا المأزق ..

وتبادلنا انا وعلي النظر ، وفهمت بغير كلام انه هنا منذ قليل ، وانه لم يسأل عن شيء بعد ..

ثم لم يطل بنا المقام حتى رأينا القائد عمر يغادر القاعة تاركا اياانا مع كاتبه الذي راح يسألنا في همس : عما هناك من الامور ، فنفينا علمنا بأي شيء ، وقلت له : لعلها دسيسة من احد المخبرين .. وأكتفى بهز رأسه .. بينما كان الباب يفتح ليطل منه رأس قائده يدعونا

لمرافقته ..

وتقدمنا القائد الى داخل مكتب المستشار ، ثم عاد ليشير الينا بالدخول وكان طبيعياً ان نبدأه بالتحية ، غير اننا لم نتلق رداً مطمئنا ، ذلك بأن المستشار ظل معتصما بمنضدته ، متكئا بمرفقيه عليها ، مسندا وجهه الى قبضتيه ، مركزاً بصره في اوراق امامه وكأنه قصد الى ارهابنا فرد تحيتي من طرف لسانه في لهجة حادة ومبتورة . وساد الصمت اكثر من دقيقة ، وكنا جميعاً وقوفاً نحن والقائد والمترجم نراقب هذه التمثيلية .

ورفع المستشار عينيه اليّ ، ولمحت في زرقتها بروق الغضب كأنها طلائع العاصفة ، وانطلق يسأل في نبرة تعمد ان تكون صارمة قاسية كطلقات المسدس : ما هذا الذي فعلتماه امس ؟!

وتوليت انا الجواب ، فقلت في كثير من الهدوء المثير : الافضل ان تمالك اعصابك اولاً ، فأنت في وضع لا يصلح للاستجواب ...

وكأني وضعت النار على البارود ، فاذا هو يهب من وراء مكتبه ، ويندفع نحوي في خفة الذئب ، وبلمحة خاطفة كانت لكمة ثقيلة تنصب على انفي ، وصوت يصيح : ايها الحيوان !

وتمالكت اعصابي ما استطعت ، وجعلت أضغط على الدم بمنديلي ، بينما راح جارنياس ـ المستشار ـ يهوي بيديه وقدميه على رفيقي الذي لم يستطع ضبط نفسه ، فانطلق يصرخ بكلام لا يفهم ... ثم لم يلبث ان عاد اليّ ، وقد ركز قبضتيه الضخمتين في وضع الملاكم . ثم اخذ يصيح بالفرنسية : تكلم ايها الـ ..)

ونظرت الى هذا الطاغي ينتصب امامي وقد ارتفعت قامته ربع متر فوق اطوالنا ، وبدت اطرافه وكأنها قوائم بغل قد اكتنزت لحماً ، وطبقت شحماً ، فكان كمصارع من الوزن الثقيل تهيأ لمباراة حاسمة ! .. وكنت على اتم الثقة من ان هذا المغشوم لن يكتفي مني بمثل ما نال من

رفيقي ، لأنني بنظره الخصم الاول ، الذي يثير في وجهه المتاعب ... والقضية التي يحاسبنا عليها اليوم لاتستحق كل هذه الثورة ، فليس هناك اضراب دعونا اليه ، ولا تظاهرة هيأنا لها ، وكل مافي الامر اننا سددنا منافذ الشر على المفسدين ، ففوتنا عليهم فرصة احداث فتنة طائفية ما كان يعلم عواقبها الا الله ، لولا هاتيك المساعي التي بذلناها يوم امس انا ورفاقي من اعضاء (جمعية النهضة الخيرية) .. ولو ان هذا الاجنبي ممن يهمه خير هذا البلد لاسرع الى شكرنا وتقدير عملنا ، ولكنه على العكس انما ينقم منا اطفاءنا جذوة هذه الفتنة التي كانت بنظر قومه وعملائهم فرصة صالحة لاستبعاد فكرة الوحدة السورية التي يعمل لها جميع العناصر النظيفة من رجال البلاد في الساحل والداخل ...

ولقد يكون لعميلهم الطبيب (ر . ز) يد في اثارة هذه العاصفة ، وهو الذي صارحني اول امس انه سيوعز الى المستشار بضرورة الاخذ على يدي ليجعلني عبرة لكل من تحدثه نفسه باثارة الشباب لمعاكسة الفرنسيين .. على ان الدافع العميد والاهم لهذه العاصفة انما يعود بالدرجة الاولى الى غضب المستشار من تلك الحملات العنيفة التي مازلت اشنها على موظفيه الفرنسيين في جريدة النداء البيروتية ، حيث اتتبع عوراتهم ، وافضح مؤامراتهم التي يحوكونها في الظلام ، وبخاصة في طرطوس وضواحيها .. فهو اذن يتخذ على هذه المناسبة ذريعة للانتقام الذي لن يكون يسيرا .

من خلال هذه التصورات كلها رحت انظر الى ذلك الاجنبي فيغلي صدري حقداً عليه ، واود لو أتحول قذيفة تنسف هذه القاعة بنا جميعاً .. ولذلك لم استطع كفكفة مشاعري الصاخبة فصرخت به في تحد مثير : أتم عملك أيها الوحش .. فمثلك لا يستحق الجواب بلغة الناس .. !

وكانت مفاجأة عجيبة ، ذلك انني أبصرت يدي جارنياس تهبطان في استرخاء ، وسمعت صوته يتمتم : سيد مجذوب !...

ولم أشأ أن أفلت الفرصة فواصلت تحديه : الحيوان، اصبح سيداً الآن .! عجيب !..

وجاء جوابه : أنت المخطيء ... لقد أثرتني ...

قلت : أثرتك !. ومتى !.. واذا كنت أنا المخطيء لأنني أثرتك فما ذنب رفيقي هذا !

قال : حقاً لا ذنب له ..

قلت : فاعتذر اليه اذن

وكان الحوار متلاحقاً لم يدع لاحدنا مجالا لتردد أو تقدير .. فاذا هو يمشي نحوه علي الذي لم يبرح مكانه عند الباب ، وقد أحاط وجهه براحتيه ، ومد يده اليه مصافحاً وهو يقول : عفواً اني اعتذر ..

ولم يتمالك صاحبي فقابله على المثل ، وردد له بالفرنسية الكلمة نفسها : (بردون) وهنا استدار جارنياس نحوي ومد يده لتصافح يدي وهو يكرر عبارة الاعتذار .. ولكنني سحبت يميني وأنا أقول :(المخطيء لا يعتذر اليه ..) بيد ان هذا الرد لم يزد جارنياس الا تصميما على تسوية الوضع فقال : أعترف بأنني أنا المخطيء .. فما الكفارة التي تريد !..

وفي انفعال لم أستطع كبحه قلت : ان أضربك كما ضربتني !..

وبالطبع لم يرقه هذا الاقتراح ، ولكنه لم يرد ان يستأنف المعركة من جديد .. فلم يجد خيراً من ان يوعز الى مساعديه القائد والمترجم بتجربة اسلوبهما في الاصلاح ..

وحتى هذه اللحظة كانت الامور تسير في تعاقب سريع ملأ نفسي الرجلين بالدهشة ، فكانا يتابعان المشهد الدرامي في حيرة لم تمكنهما من ابداء أية حركة .. فلما فهما رغبة المستشار تقدما للعمل ، فاخذ المترجم بيد علي الى الكرسي القريب ... وأحاط القائد كتفي بذراعه ، وراح

يترضاني بكل ما وسعه .

وتقدمت الى حافة النافذة أرسل عيني في ابعاد الأفق ، متأملاً مفكراً .. أستحضر تفاصيل المشهد لأستخلص الحكم الذي ينبغي ان انتهي الى اقراره .. وهنا تذكرت ان استمراري في هذه السلبية لن يعود عليَّ بشيء من العدالة ، إذ لا سبيل الى مقاضاة هذا الاجنبي امام المحكمة وشكواه الى مرجع اداري مستحيلة ، ولعل أقصى ما أحصل عليه ان يزج بي في السجن الى أجل غير مسمى ، ثم ابدأ حيث انتهيت .. بينما أنا الآن قد استرددت اعتباري ، وارغمت الباغي على التنازل عن كبريائه حتى راح يعتذر عن فعلته ، ويعرض قبول الكفارة التي أشاء .. وليس وراء ذلك من مطمع لاحد بالغاً ما بلغ من العزة والصلابة ... وليس طبيعياً ان أصر على المقابلة بالمثل ، فبهذا الاصرار قد افقد الفرصة الوحيدة للتسوية الشريفة ...

وكانت لحظة أغرقت القاعة في هدوء عميق .. وكأن جارنياس قد أدرك ما يجول بنفسي فاقبل نحوي حتى أحاطني بذراعيه ، وجعل يقبل رأسي وهو يردد : سيد مجذوب .. عفواً .. عفواً ..

وكان التأمل قد أفرغ على الأعصاب ما أخمد ثورتها فلم أحس دافعاً الى التخلص من يديه ... وتركت له ان يمسح بقية الدم عن أنفي بمنديل .. ثم مضيت معه نحو الكرسي الذي قدمه إلي .. ودعا بقدحين من القهوة لي ولعلي ، ثم أخذ يتكلم :

« سيد مجذوب لم أكن قط أتصور ان اجد في هذه البلاد رجلاً من طرازك .. أنك والله لأسد ..

وخيل الي ان الرجل قد عاد الى فظاظته ، فلم أتمالك ان قلت له وقد كاد يجف لساني من التأثر

« .. ذلك ذنبكم أنتم الفرنسيين .. انكم تنظرون الى الشعب السوري من خلال بعض المرتزقة فتحسبونه صورة منهم .. وقد نسيتم

اننا وارثوا حضارة لقنت الدنيا معاني الاباء والعزة والحق ..

وأطرق قليلاً وهو يهز رأسه ثم رفعه ليقول : سيد مجذوب . ان لك عندي نصيحة أبوية .. فهل تريد سماعها !

قلت بكل سرور ..

قال : لقد لمس أباؤك من نفسي موضع التقدير فانحنيت له .. واني لأخشى ان يقع لك مثل هذا مع من لا يقدر الاباء فتذهب ضحيته .

قلت : من حق اخلاصك علي ان أشكر لك نصيحتك .. وان كنت واثقاً انني لم أعمل سوى ما يقتضيه واجب الكرامة ، التي لا يكون الانسان الا بها انساناً ، ولك علي مقابل ذلك نصيحة مماثلة ان أذنت بسماعها ..

قال : بكل شكر ...

قلت : ان العروبة والاسلام تضع العزة فوق الحياة ، فحذار ان تقابل مسلماً أو عربياً صحيح العروبة بمثل هذا العدوان .. اذ قد يكلفك ذلك أكثر مما رأيت ...

وكأن الرجل على يقين من هذا الذي أقول ، فلم يبد أي تردد في قبول رأيي وقال في لهجة تنم عن قناعة تامة : سأنتفع بنصيحتك ..

وساد الصمت لحظة اخرى .. ثم مد يده الي بدخينة ثانية وهو يقول : سيد مجذوب .. والآن أسألك كصديق : هل أستطيع تقديم أية خدمة !..

وسبقتني الى وجهي ابتسامة خفيفة كانت تعبيراً عما جال في خاطري من تفسير لهذا العرض .. وأطلقت نفثة الدخان في أناة ثم قلت : شيء بسيط اذا كان ممكناً ..

قال والبشر يلتمع في عينيه .. ان أدخر وسعاً .. فما هو ؟.

قلت : فرع للتعليم الليلي .. يتيح للمحرومين ان يتداركوا به

ما فاتهم ..

ولم ينتظر تعليلا للطلب فقال: هذا أمر تستطيع اعتباره موجوداً بمطلع الاسبوع الآتي .. ثم ماذا ؟.

ونهضت لمغادرة القاعة ، ومددت يدي أودعه وأنا أقول : هذا كل شيء وسنشكر لكم تحقيقه ...

★ ★ ★

وكنا في تلك الايام نعد اتصال بالفرنسيين سوأة لا يتعرض لها الا المشبوهون ، فوجب علي ان أتجنب لقاء جارنياس ما استطعت .. حتى انني لم أواجهه لأشكره على تحقيق وعده بافتتاح القسم الليلي .. وكثيراً ما كنت ألحظه قادماً عن بعد فانتقل الى الرصيف المقابل كيلا أضطر الى محادثته .. ولكنه ما ان يلمحني حتى يتجه نحوي ويمد يده الى مصافحتي ..

ولم يطل المقام بالرجل الا قليلا بعد ذلك حتى نقل الى دمشق ثم الى محافظة الجزيرة ... وكان ذلك بوشاية دسها عليه لدى رؤسائه موظف لبناني في الادارة كبير ، ولم يكن من داع سوى حقده علي ، اذ ساءه ان اجد لدى فرنسي ذلك التلطف فما زال يلح بوشايته حتى استجيب له ...

ومر جارنياس بطرطوس . وهو في طريقه الى الشمال ، فابى الا ان يتوقف بعض الوقت وعند حانوت رفيقي علي ترجل ليسلم عليه ويسأله عني .. وتكبكبت حوله الوجهاء يحيونه ، ويقبل بعضهم يديه ، ولكن شيئا من ذلك لم يصرفه عن الاهتمام باخباري ، وعن ارسال تحيته الي مع ذلك الرفيق ...

وذات يوم .. كنت اقرأ جريدة القبس . فاذا هناك نبأ صغير يردني الى ذكريات لم تنس ... نبأ يقول ان مستشار الجزيرة الفرنسي

جارنياس قـــد تعرض بالآهانة لبدويين في الصحراء فلقي حتفه على يديهما ...

وهكذا شاء القدر ان يخالف الرجل نصيحتي فيذهب ضحيـــة تسرعه بيدي عربيين ابيين ...

راحت !..

كان ابو عيد بناء نشيطاً لا يجهله طرطوسي من ذوي العلاقة بهذه المهنة ، وقد عرف بالاتقان والاخلاص حتى اصبحا له صفة مميزة ، واتصف الى ذلك بدماثة تقربه من القلوب ، فهو بذلك كثير المعارف والاصحاب ، لا يعدم ان يجد إنسه في كل مكان حل به أو عبر ...

أدركته في الستين من عمره ، فكنت أرى فيه نموذج العامل الذي صقل الدأبُ أعصابه فجعله كتلة من الحيوية لا يعرف الوهن اليه سبيلا : جسد صغير ضامر ادنى الى القصر ، مدمج الاعطاء براق العينين ، يحييك فتشعر انه يضع قلبه في كلماته ، ويصافحك فتحس انك تضع راحتك في قطعة من الحجر الخشن ، اشبه بتلك الحجارة الرملية التي يقضي ايامه في ملامستها ... لا تقدر له من السن اكثر من الخامسة والاربعين ، ولولا اعترافه هو باستيفاء العقد السادس لما اكتشفت عين حقيقة سنه ...

كنت آنس بقربه ... ويبادلني هو ذلك الشعور فلا ينسى ان يمر بي ، وبخاصة يوم الاحد ، حيث يقضي في حانوتي وقتاً غير يسير .. ويرجح السبب في هذه الصدفة الى ناحيتين : احداهما تتصل بذكرى والدي الذي كان أبو عيد احد اترابه ومن رفاق طفولته ، فكنت اجد في صلتي بهذا الرجل تجديداً لذكرى لا احب ان يضعفها الموت . وأما الناحية

الثانية فتعود الى ما أحمله نحو هذا الرجل من شعور الاعجاب الممزوج بالشفقة .. ذلك ان أبا عيـــد يعيش في طرطوس وحيداً لا انيس له الا معارفه ... وقد رضي هو لنفسه بهذه الوحشة حين رضي لزوجته وولديه بالهجرة الى البرازيل استجابة لابنه الاكبر الذي كان قد سبقهم اليها قبل خمس عشرة سنة ...

لقد حالف التوفيق ولده البكر عيد ، فما زال يتدرج من نجاح الى نجاح حتى اصبح يملك في مهجره متجراً كبيراً ... وكان شديد البر باهله لم تزده الثروة إلا حباً لهم وحدبا عليهم ، فهو يمدهم بالمال ، ويريد منهم ان لا يضيقوا على انفسهم بشيء يؤمن لهم الرخاء والسعادة ، وقد خصص لأخويه جورج والياس مقداراً وافراً من النقود يحوله اليهما كل شهر ، لتأمين دراستهما وحاجاتهما المختلفة بعد ان اكـــد لهما ان الباب مفتوح بوجههما الى قمـــة الدراسات الجامعية في أي مكان من العالم ...

ولم يكن الفتيان ممن ينقصهم الذكاء أو الاجتهاد ، فوجدا في هذا العون الكريم فرصـــة طيبة لنشاط حقق لهما أعلى الدرجات في دراستهما الثانوية ، ثم لم يلبثا ان غادرا البلاد مع والدتهما الى البرازيل ، ومن ثم اخذ كل منهما طريقه الى الجامعة التي اختار ، فكان حظ جورج اشهر كليات الهندسة في باريس ، وآثر الثاني دراسة الطب في الولايات المتحدة ...

ولا شك أن أبا عيد إنما رضي بفراق اولاده ايثاراً لمصلحتهم ، ولكنه في الوقت نفسه كان مصمماً على اللحوق بهم بمجرد انهائه بيع الدار والاملاك الصغيرة الاخرى الـــتي كان قد اشتراها مما زاد عن حاجتهم من مال المهجر ... لذلك كان اشتعال الحرب الثانية عام ١٩٣٩ صدمة هائلة بالنسبة اليه حطمت امـــله بامكان السفر الى البرازيل ، وشحنت قلبه جزعا على جورج الذي قُضيَ عليه ان يعيش في قلب

المعركة من اوروبة ...

ومن هنا كان اعجابي به ممزوجا بالشفقة عليه ...

٢

وخاض ابو عيد طوال سني الحرب معركة من القلق لم يحلم بمثلها قط ... وجعل دأبه تتبع الاخبار الحربية يتقصاها من بيوت الجيران وفي المقاهي ، والحوانيت ... وكلما تجمع لديه جديد منها ضمه الى سابقه وأخذ يقيس ويستنتج ويحكم ... ولكن سرعان ما تأتي الوقائع الجديدة بخلاف ما ذهب اليه فيهدم كل ما بنى ليبدأ تتبعاته ومحاكماته من جديد ...

وكان قلب أبي عيد متعلقاً بفرنسة من بين الدول المتحاربة جميعاً ، ومرد ذلك الى امور لا يستطيع منها تخلصاً ، لعل من أهمها وجود صغيره جورج في باريس .. لذلك ما كان ليستطيع الصبر على أية اساءة توجه الى فرنسة ، ولا يقبل أي رأي يقول بضعفها في هذه الحرب ، فهو دائماً يؤكد انها هي المنتصرة ، وانها هي التي ستحطم آمال ذلك المجرم الكبير الذي يسمونه هتلر أو هيلتر !... ولما توالت الانباء عن اقتحام الجيوش النازية لحصن ماجينو ، واجتياحها العاصمة الفرنسية أبى ان يصدق ، وراح يصيح في وسط رواد المقهى : انها اخبار ملفقة ، وان فرنسا لن تنهزم ... وانه هو سيحطم بعصاه رأس كل من يجرؤ على القول بذلك !

وسرعان ما وجد أبو عيد نفسه في عزلة جديدة اذ لاحظ ان الكثيرين من جلسائه في المقاهي والحوانيت قد أخذوا يلتزمون السكوت بحضوره وكأنهم يقولون له بلسان عريض : هيا اذهب من هنا .

.. واذا هو أطال السكوت وراح يثرثر في عرض احكامه واستنتاجاته قابلوا عمله بالانفضاض واحداً تلو الآخر ، حتى لا يبقى حوله

سوى المقاعد الفارغة !... وهكذا انتهى الى ان لا يجد جالساً له خارج نطاق جيرانه ، فلم يجد بداً من الاكتفاء بهم حيث الفى متسماً لاجترار آلامه مع اولئك الذين يشاطرونه هيامه بفرنسة ، ونقمته الجارفة من الآخرين الذين يبغضونها ويتمنون لها الهزيمة ...

ثم تتابعت هزائم فرنسة ، واحتلت القوات الدينغولية مع حلفائها الانكليز مكان السلطات الفرنسية الاخرى من سورية ، فكان ذلك مدعاة لانتعاش دغدغ آمال هؤلاء المتيّمين بفرنسة بعد ذبول ... وكانت الحرب قد بلغت نهايتها ثم جاء يوم النصر فوجد فيه هؤلاء منطلقاً واسعاً لعواطف الابتهاج ، واذا هم يطوفون البلد في سيارات الفرنسيين راقصين معربدين ..!

وكان من حق أبي عيد أن يشارك في الاعراب عن مشاعره ، فسار في مقدمة الموكب يهزج بما يعلم وما لا يعلم من الاغاني ، ويلوح بعصاه الى الأعلى كأنه يتحدى كل شيء ...!

٣

لقد شاء الصلف الفرنسي ان يتخذ من مناسبة يوم النصر فرصة لترسيخ قواعده في سورية ، فجعل من تلك الاحتفالات تظاهرة سياسية تعمد أن يشحنها بكل مظاهر الاهانة والارهاب ...

وكان الكبت الذي عانته البلاد طوال فترة الحرب قد بلغ حد الاشباع ، واستحالت به الاعصاب ألغاماً متأهبة للتفجر ، فاذا هي تجد بدورها في يوم النصر نقطة الانطلاق لاستئناف الكفاح في سبيل الاستقلال ...

وسرعان ما احتدمت المعركة .. معركة الحرية .. واستيقن الفرنسيون انهم أمام تصميم لا يجدي معه الاعتدال والكلام ، فاطلقوا العنان لوحشيتهم المعهودة ، وافتتحوا عهد الارهاب الجديد بتلك المذبحة التي أوقعوها في حرس البرلمان السوري ، وقد أرادوا بها ان تكون نموذجاً

رادعاً لما ينتظر كل جزء من هذه البلاد في نضالها الجديد .. ولكن المجزرة سرعان ما زلزلت الارض تحت أقدام الوحش الفرنسي، اذ الهبت مشاعر العزة في كل قلب مؤمن بالحرية، فامتدت النار الى كل دار، وتجمعت الطاقات العاملة في جبهات منظمة لنضال حاسم ...

وهنا برزت العناصر الموالية للفرنسيين تمدهم بكل ما أوتيت من قوة، حتى لم تتورع أن تقدم لهم الادلاء الذين يرافقون سياراتهم لتعيين مواقع الوطنيين ...

وفي هذا المجال كانت طاقة أبي عيد محدودة تقتصر على الدعاء لجنود فرنسة، وتحث المحايدين من اخوانه على المشاركة في نصرهم بكل الوسائل المتيسرة ... بيد ان هذا كله لم يستطع أن يغير من نتائج المعركة التي شاء الله أخيراً أن تكون القضاء المبرم على كل أثر للعسكرية الفرنسية في هذه البلاد ...

وجاء يوم الجلاء .. وخرج الفرنسيون وكثير ممن والوهم، في مواكب الذل تحميهم دبابات الانجليز ومصفحاتهم ...

وتجمعت أسراب الاطفال الخبثاء يشاركون في الفرحة .. ويلاحقون أبا عيد صارخين في توقيع بارع مثير: راحت ... راحت راحت ...)

ولكن أبا عيد أبى ان يسلم بالواقع وراح يهاجم الاطفال بعصاه وهو يصيح: أبداً ... أبداً ... ما بتروح ... يا أبناء ال ....

وما هي الا ايام حتى كاد الناس ينسون اسم (أبي عيد) القديم، ويكتفون بهذا اللقب الجديد ينبذونه به أينما لقوه: (راحت)

ويبلغ هياج (أبي عيد) نهايته، فاذا هو يفقد وعيه، وينسى اسرته، ثم لا يكاد يعرف من كلام الناس الا قوله: أبداً .... أبداً .. ما بتروح ..)

مسكين أبو عيد لقد آثر الجنون على التصديق بأن حبيبته فرنسه قد راحت ...

أبو أسعد

ادركت ابا اسعد في الثمانين من عمره .. وما اذكر بالضبط السبب الذي كان يجعله يكثر من التردد على حانوتي ، ولكني ارجح انه يعود الى الفراغ الذي كان يثقله ، فهو لا يجد في بيته الصغير احدا يقضي معه الوقت سوى امرأته العجوز التي شارفت سنه ، بل بدت كانها اوغل منه في السنين ، بتلك الانحناءة الحادة التي تجعل من هيكلها شبه زاوية قائمة .. بينما هو لايزال محتفظا بانتصاب جسمه لم يعتره الانحناء قط ، ولعل مرد ذلك الى قصره الذي ما كان ليتسع الانثناء .. فهو فيما اذكر لا يتجاوز في الامتداد المتر والنصف ... وما احسب وزنه يزيد على الخمسين كيلا ... واذا صدقنا ادعاءه كان علينا ان نحكم بانه كان اكثر امتدادا وأثقل وزنا ، ولكن كبر السن وهموم الدهر ـ كما يقول ـ اكلت من طوله وعرضه ولحمه حتى انتهت به الى هذا الوضع ! ...

ومهما يكن من شيء فان خفة لحمه ، وقماءة جسمه قد حفظتا له الكثير من الرشاقة والصحة ، فاذا مشى لم يجد ما يثقل خطوه من لحم او عظم ، وكأن ابن الرومي لم يصف غيره عندما قال :

انا من خف واستدق ، فما يثقل ارضا ولا يسد فضاء !

واذا نظرت الى ذلك الانسجام الماثل في تقاطيع وجهه قطعت بان الرجل لم يكن رديء المنظر اثناء شبابه .. بل انك لتتبين في لونه القمحي الصافي ، وفي عينيه السوداوين الصغيرتين الى حد مقبول ، وفي

لحيته المدورة التي لا يبرح السواد غالبا على اكثرها ، ما يوحي اليك بان وراء ذلك كله قلبا على شيء غير قليل من الطيبة والبساطة النقية من كل اثر للخبث ...

وقصارى القول : ان النظرة الاولى الى شكل ابي اسعد في سرواله القصير وكوفيته المشدودة حول رأسه بغير عقال تعرفك انك تلقاء (عامل منته) من مخلفات الجيل الذي سبق القرن العشرين اذا صح هذا التعبير ... على ان ثمة صفات اخرى تميز ابا اسعد عن اقرانه من العمال .. انها بقيته من اثارة الفتوة التي كانت موضع تنافس الشباب في الجيل المنقرض .. الفتوة الخاصة بما قبل القرن العشرين ، ايام كان اكبر مميزات (القبضاي) الاقدام على الضرب والسطو .. وجرأة الليل التي لا تهاب شيئا ، مضافا الى هذا وذاك التفاني في خدمة البيك او الاغا ..

وكأن ابا اسعد كان يستشعر روح الغربة عن المجتمع الذي انتهى اليه ، فلا يجد مندوحة عن تقديم المسوغات لبقائه حتى هذا اليوم، وباي شيء يتشبث سوى الحديث عن ماضيه في البطولة والقوة والنشاط الخارق ! ... وغالبا ما كان يسمعني حديثه المكرور هذا وهو يضغط على راحتي بكفه الصغير التي احتفظت بشيء غير قليل من القوة ، ليقدم من شدة اصابعه دليلا على صدق ما يذهب اليه .. على انني كنت اسمح لنفسي في بعض الاحيان ان اقابل ضغطه على كفي بضغط مثله ابذل فيه كل ما املك من قوة شاب في الثامنة عشرة .. فيتمالك ويصابر حتى يخونه الصبر ، فيقطع تبجحه ليقول في ضراعة المغلوب العاجز « دعني .. بالله عليك .. ! وفي هذه الحالة لا يجد عذرا للاستمرار في الحديث والبقاء على مدخل حانوتي ، فيحرك عصاه .. ويأخذ طريقه محزونا والى البيت او ناحية المسجد ..

والتنافس بين الاشباه ضرب من قانون التضاد الذي ينهض على اساسه كيان الطبيعة .. فكما ان لكل سالب موجبا من نوعه تتم بهما

مهمة الاحياء ، هكذا يعيش الناس في صراع من التنافس لا ينتهي ، لان نهايته نذير بنهاية الطاقات الحية نفسها .. وانما يتفاوت شـــأنه حرارة وبرودة ، حتى يكون في قمته تحديا بين طاقتين يعمـل فيها عمل المحرض الذي يدفع كلا من المتنافسين الى محـاولة التفوق .. وحتى يكون في قاعدته خمودا بليدا لا يستطيع صاحبه ان يثبت وجوده في الحيـاة الا عن طريق التبعية للاقوى .

والفتوة نفسها احد مجالات التنافس الخالدة بين اصحابها ، سـواء كانوا من اهل القمة ، او سكان الحضيض .. فلا عجب والحالة هذه ان نجد لابي اسعد منافسا من طرازه ، ولكن التطريف في الموضـوع ان يتخلف هذا المنافس عن قافلة الماضي ليستمر الى جانبه ، يجابه كل منهما التبجح من صاحبه بتبجح اكبر ، ويعقب كل حادثة يرويها عن نفسـه بتصحيح لها او تكذيب .. وكثيرا ماكان الناس يتجمعون حـول ابي اسعد ومنافسه ابي فريـد ، يستمعون الى مبارياتهما الممتعة في كثير من الرضا ... وقلما تخلو حلقة ممن يحسن اذكاء الفتنة بين المتنافسين ، فيضفي من تعليقاته على الموضوع ما يثير اعصابهما معا . فاذا هما يتصايحان ، ثم يثب كل منهما متجها بعصاه نحـو الآخر يريد ان يؤكد تفوقه بالبرهـان الذي لا يرد .. فيرى الناس بذلك صـورة من معارك الديكة ، يزحف فيها الواحـــد نحو الآخر منتفش الصفرة ، منتصب العرف ، حاد الصوت ... الا انهم لا يسمحون للرجلين بالوصول الى التشابك اليدوي ... والشيء الذي يلفت النظر ان ابا اســـعد كان في هذه المعارك يمتاز على صاحبه دائما بحرارة الاندفاع ، ومحاولة الايذاء الجـدي .. بينما يبـدو ابو فريد اكثر تحكما في اعصابه ، يلوح بعصاه عن بعيـد دون ان يتقدم خطوة للمعركة ...! وكان معظم نقاشها محصورا في موضوع الرسائل .. فابو اسعد - مثلا - يؤكد انه هو الذي حمل رسالة البيك من طرطوس الى طرابلس فسلمها الى المتصرف بيـــده خلال يوم ونصف فقط ، على

الرغم من الاخطار التي كانت تحدق بالمسافرين اثناء ذاك .. ويريد ابو فريد بانه هو صاحب هذه المأثرة ، وان ابا اسعد اعجز من ان ينهض بتلك المهمة التي لايطيقها الا ذوو الشهرة من الشجعان .. ثم لا ينسى ان يتهم صاحبه بفقدان الذاكرة من اثر الخوف ، ويتمنى لو ان احدا من الجيل الماضي قد ظل الى اليوم ليسمع الناس شهادته في هذه القضية ...

٢

على ان موضوع الخرف بالنسبة الى ابي اسعد لا ازال اراه محل نظر .. فأنا لم الحظ عليه قط اي دليل على فقدان الذاكرة ، اوالتخليط واذا كان كمنافسه غير محسن ترتيب افكاره في معارك الجدل فمرد ذلك الى نشأة الرجل الذي قضى معظم سنيه في نطاق الارض ، وحراسة حقول البيك .. وتنفيذ مطالبه .. ثم لم يعرف شيئاً خارج ذلك النطاق الا بعد انقطاعه ـ بسبب شيخوخته ـ عن ذلك المجال ... ولعلك لا تغالي اذا قلت ان أبا أسعد كان محبوساً كل تلك السنين في حدود عمله وبيته ، حتى لا يكاد يعلم ماذا يجرى خلف أسوار الساحة العامة من طرطوس ، لولا ما يتلقاه سمعه من أخبار الناس هناك على ألسنة العائدين من الساحة ... فكأنهم بنظره عائدون من سياحة في مواطن تغريبة بني هلال ...! ولما دخل الساحة لأول مرة بعد تركة العمل لم يستطع التخلص من شعور الدهشة الذي طغا عليه أمام سعتها ، وما يحيط بها من شاهق الابنية .. ولعله بدافع من هذه الغبطة الرائعة بتلك المناظر أصبح يكثر من التردد على هذه الساحة ، ويقصد مسجدها للصلاة .. التي لم يدعها منذ انقطاعه عن العمل .. وبالطبع لم يخل ذلك من إيلام له ، اذ وجد فيه منافسه أبو فريد مجالاً جديداً لاثارته ، بما راح يشيعه عن لسانه من أقوال تسجل اعجابه البالغ بهذه الساحة ... مما يؤكد انه لم يرى طرابلس قط . ولم يسمع شيئاً عن برج الساعة الكبيرة الذي يمتد الى مقربة من السماء من ساحتها التي تشبه الجنة !...

وطبيعي ان شيئاً من ذلك لا ينهض دليلاً على خرف أبي أسعد .. وكل ما يمكن الاستناد اليه في توجيه هذه الصفة عليه هو ادعاؤه صراحة انه هو مؤلف سورة (الكوثر) ... صنعها (من دهن باله) على غير مثال سابق .. وقد سمعته يؤكد هذا الادعاء مرة بعد أخرى ، وأغلب ظني ان الرجل قد بوشر بتحفيظه هذه السورة في أعماق طفولته ثم نسي كيف دخلت ذاكرته ، حتى ظنها من عمل تلك الذاكرة ... وقد أتيح لي أن أصلي بجانبه ، فكنت أسمع منه كلاماً عجيباً لا أفهم منه غير قوله : سبحانك يا دايم ... فاذا سألته بعد الصلاة عما يقول أبى اعادته ، وأصر على ان لديه من المعرفة ما لا تتسع له عقولنا الصغيرة جداً !...

وظاهرة أخرى لا أدري كيف ينبغي ان أحكم عليها : أهي خرف أكيد ... أم هي نتيجة تفكير بعيد !..

أنها ظاهرة الثورة بمظاهر المدنية الجديدة التي بدأت تتسرب الى البلد مع هؤلاء المحتلين من الفرنسيين .

كان يرى أفواج العمال تقوم بهدم الأزقة الضيقة تحت اشراف احد المهندسين الاجانب ، فيجن جنونه ، ويهاجم بعصاه العمال والمهندسين ورجال الشرطة الذين يحرسونهم ... وعبثاً يحاولون افهامه انهم يبتغون بذلك الهدم ايجاد شوارع عريضة مزفتة تجمل المدينة .. وتريحه من الغبار والعثار .. فلا يزداد الا حماسة لافكاره ، ويعتبر من واجبه الدفاع عن حقوق اولئك المساكين اصحاب الدور بعد ان جبن الناس عن القيام بهذا الواجب !...

وما ان فرغ العمال من الهدم والتعبيد والتزفيت حتى ظهرت تلك العجلات الخبيثة التي تنتقل فوق هذه الشوارع دون دابة او مساعد خارجي ، فتملأ بدويها الآذان وتشحن برائحتها الكريهة الانوف .. ورأى الناس والدواب والكلاب يفسحون لها كلما ارسلت زعيقها المزعج بانذارهم ،

فلم يجد لذلك من تفسير سوى انهم يفرون من مواجهتها خوفاً ورعباً ، لذلك كان عليه ان ينهض وحده بما عجز عنه الجميع ، فاذا هو يهاجم كل سيارة تمر به ، ولا يتهيب أن يثب لمواجهتها وضرب زجاجها بعصاه ... حتى أصبح السائقون يتحاشون جهدهم سلوك الشارع الذي اعتاد المرور فيه ، خشية الفتنة التي لا تعدم وقودها بين الناس ..

ولعل أشد الظواهر الجديدة اثارة لاعصابه مشهدان اثنان .. أحدهما اولئك النساء الاجنبيات ، وهن يقطعن الشارع وفي ايديهن سلاسل الكلاب تزاحم الناس على الطريق ، او تدخل الحيوانيت معهن فتداعب بأنوفها النجسة معروضات الباعة من كل ملبوس ومأكول ... فاذا هو يغلي كالمرجل ويندفع لضرب هذه الكلاب ولشتم هؤلاء النسوة اللواتي لا يستحين من اظهار شعورهن المجزوزة على هذا الشكل المقرف الذي يشبه جمة الاطفال !..

اما المشهد الثاني فهو تلك (البرانيط) المقببة ، او المقعرة السطح ، او المثنية الاعلى التي بدأت تطل في بعض هذه الشوارع الجديدة على رؤوس هؤلاء الشياطين الملاعين من الاجانب .. فلا يتمالك ان يحذفها بعصاه عن قرب او بعد ، وهو يصرخ باعلى صوته : الله يذلك يافرنسة ...!

ولكن تيار التغير الاجتماعي ما لبث ان غلب ابا اسعد ، فاذا هو يرى بعيني رأسه كثيرا من مظاهر الماضي تتوارى لتحل مكانها اشياء جديدة مامرت قط في وهم واحد من ابناء جيله .. وكان اسرع هذه الاشياء بروزا ذلك الثوب الفرنجي الذي اخذ يحتل مكان السروال الواسع ذي الثنيات الكثيرة الانيقة ، والصدار المخملي ذي العرى الدقيقة الأنيقة ..

وقبل الاحتلال الاجنبي لهذه البلاد لم يكن للثوب الفرنجي من مكان في طرطوس الا على اجسام (الضبطية) من رجال الحكومة ،

واثنين من اهل البلد احدهما ذلك البيك الذي مر ذات يوم على احدى مدارس استنبول او بيروت ، والثاني هو جابي البلدية الذي كثيرا ما تجمع حوله الاطفال يتفرجون بمنظره غير المألوف ، وهم يهمسون باسمه (المنوق).. ذلك الاسم الغريب الذي اخترعه بعض السـاخرين تعبيرا عن نفرتهم من منظره ! ..

وكداب ابي اسعد لا يكاد يلمح ذلك الثوب على انسان حتى يصرخ به في نغمة موزونة : « يالابس المصران ... الله يهدلك ... »

ولا ازال اذكر تلك اللحظ التي فاجأ بها صديقا لي ، وقد تهيأ للسفر ، فارتدى ثوبه (الفرنجي) الجديد ، وطوق عنقه بتلك لربطة النفيسة ، التي بذل جهدا كبيرا حتى احسن عقدها .. فاذا يد حديدية تطبق على الربطة ، واخرى على مقدمة السترة ، وصوت ابي اسعد يرتل : الله ياقطيطة .. مانا قصك الا البرنيطة ... » !

وكان مستحيلا ان يرفع قبضته عن موضعهما الا بعد عراك ترك في الربطة والسترة تلفا لا يمكن إصلاحه . على ان الشيء الذي من شأنه ان يعزي ابا اسعد هو ان هذه الظواهر التقليدية الغازية قد بقيت محصورة حتى يومه ذاك ضمن نطاق الغرباء من الموظفين في الغالب ، ولم يستجب لها سوى الاقلية من تلاميذ المدارس الجديدة . وبعض الرقعاء من ابناء (الكبار .) ! ..

فالطربوش بحمد الله لا يزال هو غطاء الرأس الذي يميز اهل اليسار من المدينة .. ويبقى للآخرين من العمال واهل القرى تلك الاغطية البلدية الاخرى من اللبادة ، والكوفية عليها العقال او الكوفية وحدها . وبذلك ظلت (البرنيطة) حتى ايام ابي اسعد وبنظره شعار الكفار من اهل الغرب الذين ليس ابغض الى قلبه من رؤيتهم ...

ولا حاجة للتفصيل في شأن المرأة .. فهي حتى ذلك اليوم لا تزال في خدرها لا تغادر بيتها الا لضرورة قاهرة ، وفي جلباب فضفاض

لا يدع للعين الفاجرة ان تتبين فيها موضعاً أو شكلاً ... وهي الى ذلك في بحبوحة من الحياة يجعلها تنسل اذا مرت كالطيف كي لا يشعر بها أحد فلا حس ولا صوت ولا لغو ... يستوي في ذلك المرأة المسلمة وغير المسلمة على السواء ... وحسب المرء ان يرى امرأة تشذ عن هذه الحشمة حتى يدرك انها وافدة من وراء البحر .. حيث لا يقام لهذه الفضائل المقدسة من وزن !

ومن هنا كان أبو أسعد صورة متحجرة من المفاهيم القديمة لا تقبل أي تبديل أو تعديل .. بل كأنه مسؤول عن حماية هذه المفاهيم فهو لا يطيق صبراً على رؤية ما يعارضها .. ويعتبر كل مظهر شاذ عنها عدواناً على رجولته لا يتمالك بازائه الا ان يهيج كالثور عندما يلوح له المصارع بالخرقة الحمراء ..

٣

وتكاثرت اعتداءات أبي أسعد على البرانيط وزجاج السيارات ، وكلاب الاجنبيات ، وحدثت أكثر من فتنة صغيرة بسبب ذلك .. فقد حاول بعض السائقين الانتقام لسياراتهم بانتزاع عصاه وتكسيرها ، ولكنهم فوجئوا ببعض أقربائه يحمون تصرفاته بكل ما أوتوا من قوة ... لان كل تقييد لحريته بنظرهم اعتداء صارخ على أهل قرباه جميعاً .. وحال بعض المتبرنطين الدفاع عن حقهم في المرور من منطقته فلم يكن حظهم أقل سوءاً .. وطبيعي ان تصرفا كهذا لا يمكن ان يرضي جميع الناس ، فكان ثمة ناقمون يريدون ان يحدوا من هذا الشذوذ لولا خشيتهم ان تتطور الامور الى اسوأ من ذلك .. فسكتوا مكرهين واكتفوا بأن يدفعوا المعتدي عليهم الى استعداء السلطة فهي وحدها القادرة على حمايتهم من عصا أبي أسعد .. ومن وراءه ..

وانتهى الامر بالفعل الى القضاء .. ووجد (حاكم الصلح)

نفسه تلقاء ثلاث من الدعاوي ضد أبي اسعد اثنتان منها قدمها سائقان كسر ابو اسعد لكل منهما زجاج سيارته الفورد ، والثالثة من طبيب القضاء الذى يتهمه بأنه ضرب قبعته بعصاه دون سبب فاطارها عن رأسه في الشارع العام ، واصاب جبهته بجرح ولولا حسن الحظ لاحدث في عينه مالا تحمد عقباه ...!

وفي جهد جهيد ، وبعد كثير من التحايل استطاع اثنان من الشرطة ان ياخذوا بصمة ابهامه على مذكرات التبليغ ...

وجددت المذكرات كرة بعد أخرى ... وغاب ابو اسعد عن جميع الجلسات حتى أصبح لزاماً احضاره الى المحكمة بقوة الشرطة .. وهناك حدثت المعضلة التي لم تحل إلا بعد شياط ومياط .. فلقد دعى ابو أسعد لمرافقتهم بالسيارة فأبى .. وهاجمهم بعصاه ، وهو يرتجز بعض أغاني أبي زيد .. وازدحم النظارة يشهدون المعركة في انطباعات مختلفة ، ولم يكن يمكن ادخاله السيارة إلا بعد انتزاع عصاه ، وحمله بالقوة ... ثم لم يكن داخل السيارة أقل ثورة منه خارجها .. إذ كانت المرة الاولى التي يطأ فيها عجلة تتحرك بغير دابة أو دافع خارجي ، فكان من الطبيعي ان تركبه الاوهام ، وتتنازعه اسوأ التصورات ... وهكذا لم ينته الى فناء المحكمة إلا بعد العناء الكثير ..

وتلقى سؤال القاضي عن اسم امه بعاصفة من الزعبق ، والدعاء على فرنسة واتباعها . ولم ينتظر بقية الاسئلة إذ رأى غريمه طبيب القضاء يقف الى الجانب المقابل وعلى رأسه قبعة جديدة لم تكن أقل اثارة له من سابقتها ، فاذا هو يلتفت اليه .. ويخاطب القبعة في تنغيم : الله يزيلك يا برنيطة ... ، ثم يختم انشودته ببصقة غير صغيرة يحاول ان يلصقها بها .. ولكن قوته الدافعة كانت أضعف من ذلك ، فاذا هي تسقط في الطريق ، فتستقر على سترة الطبيب الشاكي في موضع العروة تماما .. !

وضجت القاعة بالضحك تنفجر عن حلوق النظارة ، الذين ضاقت بهم جوانب القاعة ، فانتشروا في باحة السراي يشرئبون باعناقهم للاستمتاع بهذه الدعوى الفريدة !

وبات متعذراً الاستمرار في المحاكمة الى أبعد من ذلك ... فاذا القاضي يقرر المذاكرة فتخلو القاعة بسرعة .. وما هي سوى دقائق حتى يعود المجلس ، ويعلن القاضي حكمه بعدم مسؤوليته بالنظر لحالته العقلية ..

وعاد يومئذ أبو اسعد الى بيته شامخ الانف يلاحظ الجمهور الذي يحيط به في اعتزاز المنتصر .. وهو ينشد بين الحين والآخر : الله يذلك يافرنسا .. ويذل معك البرنيطة ... »

★ ★ ★

وفي العام نفسه يموت ابو اسعد .. ثم يلحق به منافسه الوحيد ابو فريد .. بعد عشرين سنة من ذلك اليوم يستجيب الله دعاءه في فرنسة فتغادر سورية صاغرة مكرهة ... ولكم أود لو ان الاجل قد امتد بأبي اسعد حتى رأى نهاية فرنسة في افريقية والمغرب .. تلك النهاية التي تحقق كل ما تمناه لها من الذل ... ولكنني اخشى على أبي اسعد إذ ذاك شيئاً واحداً هو ان يفضل الموت العاجل حين يرى آثار فرنسة الاخلاقية قد جعلت تجرف بقوة كل ما عهده في طرطوس من تلك التقاليد التي كان يعتبرها وأهل زمانه تراثاً قومياً مقدساً ...

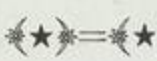

فؤاد بك ..

كان فؤاد واقفا على زاوية الشارع ذي المفارق الاربعة ، وقد ضم ذراعه المحني الى صدره ، واسند ذقنه الى راحته اليسرى ، وانسرب بصره في ذهول ناحية العمال الذين تجمعوا وسط الساحة ينتظرون من يدعوهم الى العمل ... وكان مشتت الذهن لا يستطيع تركيز نظره على شيء ، ولا حبس فكره في امر واحد ... حتى لا يكاد يعي مكانه ولا غرضه من الوقوف هنا ، في هذه الساعة المبكرة ...

وفجأة جذب انتباهه الشارد وجه رجل يمر على مقربة منه ... فوجد نفسه يتابعه بنظره ، وهو يجتاز الرصيف نفسه . فلما بلغ مكان فؤاد حانت منه التفاتة اليه فالتقت اعينهما .. وابتسم فؤاد للرجل ، والقى اليه تحية الصباح ... ولكن هذا لم يبد أي اهتمام ، وكأنه لم يسمع تحيته فواصل طريقه .. وظل فؤاد يلاحقه بنظره حتى رآه يقطع عرض الطريق الى الناحية المقابلة بعد ان قذف الرصيف ببصقة ذات صوت ..

وهنا بدأت ذاكرة فؤاد تتركز ... وتتفتق ، واخذت مشاهد الماضي تنتشر أمام عينيه هنا وهناك .. ولم يتمالك زفرة طويلة تدفقت من صدره في مثل حشرجة النزع ، ووجد نفسه مضطرا إلى التدخين فراح يلتهم بعينيه ارض الشارع حتى استقرتا على عقب لا يزال يحترق ، فدلف نحوه حتى وقف فوقه ، ولما امن انظار الناس اهوى يلتقطه بسرعة

وعاد به الى مكانه من الرصيف يعب دخانه في شره حاد..

لقد شعر فؤاد ان كل شيء هنا ينظر اليه باحتقار .. حتى هذه الزاوية التي تقابله من الرصيف والتي طالما تعثر بها فشتم خالقها وهو يخيل اليه انها تحدق اليه الآن في اشمئزاز مهين ... وانها تبصق لرؤيته كما فعل ذلك الصديق القديم الذي ابى ان يرد له تحيته ، واستنكف ان يثبت نظره بوجهه ..!

يالجحود ! .. لقد تناسى هذا الصديق اكداس المال التي اتلفها فؤاد عليه وعلى امثاله من رفاق الامس .. الامس الذي لا يسمح لنفسه حتى الساعة بالتنكر له ، على الرغم من نتائجه التي تغمره اليوم في شقوتها .. وكيف يتنكر له وهو لم يذق لذة الا في لياليه الصاخبة ، التي كانت اشبه بمتعة متصلة ! ... ولعله لو اتيح له العودة الى مثل تلك الليالي لما آثر عليها شيئاً .. وفي نظره ليس هناك اكذب من اولئك الذين يتظاهرون بالندم لانغماسهم في مثل ذلك النعيم بعد فواته وفقدان الوسيلة اليه .. ولو هم صدقوا انفسهم لاعترفوا بأنهم لا ينقمون من الحياة الا فراغها من تلك الفرص الشهية !...

اجل ... لقد بعثر ثروته الموروثة كلها في امثال تلك الحفلات المترفة ، التي طالما اعدها لكبار الموظفين وذوي النفوذ من مقيم وعابر .. وهو لا ينسى انه كثيرا ما كان يعمد الى قضاء الايام المتتابعة في لهو متصل مع اولئك الندامى من رفاق الكئوس ، فلا يعود الى زوجته واولاده الثلاثة الا بعد ان تفرغ يداه من المال ، فهو انما يعود ليؤمن منه الزاد الذي يكفي لاستئناف تلك اللذائذ ..

ولا جرم انه يتأذى بل يحترق لنسيان هؤلاء واؤلئك قديم صحبته حتى لايجد منهم من يتنازل للنظر اليه .. ولكن الم يدل كفايته من تقديرهم وتبجيلهم أيام ذاك ؟ ... الم يكونوا يتسابقون الى الى مرضاته وادخال السرور الى نفسه !... فإذا عليه اذا هم تناسوه اليوم

بعد ان انقطع ما بينهم من تلك الروابط ! ...

انها طبيعة الحياة .. وهي لا تعترف بأية صلة الا على أساس من المنافع المتبادلة .. فليقبل هذه القوانين على علاتها ، فذلك خير له وأجدى عليه ...

ولكن هل لمثل هذا التفكير ان ينسيه واقعه المخيف ... واقع الجوع الذي سيعانيه واسرته منذ اليوم !!! ...

لقد استهلكت أرغفة اليوم الخمسة آخر ربع ليرة لديه ، من ثمن البلاط الذي اقتلعه من أرض الغرفة .. وقبل ذلك باع قضبان النافذتين بعد ان استنفد ثمن الغرف التي باعها واحدة اثر أخرى .. وبذلك خلت يده من كل وسيلة للحياة ، ونفض يده من كل أمل بالحصول على الطعام الا عن طريق العمل الذي ما زال يترقبه هنا منذ ساعة ...

وضغط براحته على بطنه ... وتذكر انه تردد طويلا قبل ان يقبل رأى زوجته بالبحث عن العمل ، وهو ما كاد ليستجيب لها لو بقي أي مجال للرفض أمامه ...

ومن قبل طالما ضرب عرض الحائط بمحاولاتها التدخل في شؤونه وتحذيره من هذا المصير الذي انتهى اليه ، فأصم أذنيه عن سماع نصائحها ، وأغمض عينيه عن رؤية دموعها ، اذ تحاول رده الى أولاده ، الذين لم يكن لديه متسع للاهتمام بهم !..

ولقد بدأ فؤاد يثق بأن زوجته كانت على بعض الحق في محاولاتها تلك ، ولولا اصراره على التسليم المطلق لما حدث لكان جديراً ان يندم كثيراً .. ولا سيما بعد أن فقد كل عطف ومودة من الناس ، فلم يبق له سوى قلب تلك المرأة الذي لم ينفذ بعد صبره عليه ... ولكن المشكلة لم تحل بمجرد قبوله فكرة العمل ، فأين يجد العمل ، وما السبيل اليه !.. وأين الرجل الذي يختاره لعمل عنده ، وهو يرى هذا العمل الضخم من العمال الذين لكل واحد منهم من الطاقة وقوة الاحتمال ما لا يتوفر لخمسة

مثله !.. ثم أي عمل هذا الذي سيصلح له ، وهو الذي لم يجرب عملاً جدياً قط !! وها هو ذا يرى العمال أمامه يترا كضون كلما مرَّ بهم ذو حاجة الى عامل ، يحاول كل منهم ان يكون هو صاحب الحظ ... فهل يستطيع أن ينافسهم فيعرض نفسه في مثل هذا الزحام !..

٢

واستيقظ فؤاد من تأملاته الحائرة على صوت يوجه اليه : يا شاب ! أنت ... أنت ... هل لك في عمل ؟ والتفت الى الرجل الذي كان يتطي حماراً ، ويجر وراءه ثوراً ... فأدرك من عقاله وسَوْقائه انه مزارع خارج الى حقله فلم يشك في أن القدر قد ساقه اليه ... ولم يتردد فتقدم من الرجل وهو يقول : نعم .. اذا شئت

تعال إذن فسق هذا الثور واتبعني ...

وقدم فؤاد الى الثور يمسح على مؤخرته ، ويدفعه بلطف دون ان يسأل المزارع عن نوع عمله ، لأنه صمم على قبوله كيفما كان ...

وفي الطريق بعد تجاوز البلد سأل المزارع فؤاداً عن اسمه فأجاب : فؤاد بك !...

وشعر انه استعجل في اعطاء اللقب ... غير انه لم يندم اذ توقع ان يكون له بعض المنفعة في عمله الذي يرجو ألا يكون ثقيلاً ...

وعلى ثغرة الحقل ترجل المزارع ، واشار الى فؤاد ان يربط مقود الثور الى أحد الوتدين المضروبين هناك ، ثم دفع اليه بالخرج ليصب منه امام الدابتين علفها ، ثم استخرج من مخلاة صرة فتحها وناول منها فؤاد رغيفاً وقطعة من (السوركة) مع رأس من البصل وثمرة من البندورة وهو يقول : لا بد انك مثلي لم تفطر بعد ..

وشد ما سر هذا التلطف قلب فؤاد !.. فاقبل على الطعام في شغف ، وخيل اليه انه لم يذق طعاما بمثل لذته ، وتوقع ان يكون حظه طيباً في صحبة هذا الرجل ، وقد وطَّن نفسه على ان يبذل قصارى

جهده لارضائه ...

وسمع صوت المزارع يقول له : لقد نسيت ان اقول لك ان اسمي ابو سعيد .. والآن لنبدأ عملنا .. أترى الى شجرة الكمثرى الوحيدة التي في الجانب الغربي !.. إيتني من تحتها بالمحراث ..

واندفع فؤاد لتنفيذ الطلب بنشاط ، وما لبث ان عاد بالمحراث على كتفيه ليضعه بين يدي الرجل ...

وأشار هذا نحو الثور الذي كان قد استنفد علفه ، فجاء به ، وهنا أخذ يربط المحراث الى عنقه ، حتى اذا فرغا من ذلك قال المزارع لفؤاد : سيكون عملك خفيفاً يا فؤاد بك .. انك ستسند المحراث من الناحية الاخرى . فقط من اجل التوازن ...

ولم يفهم فؤاد مراده أول الأمر حتى سمع الرجل يقول له : هنا من فضلك .. هنا على شمال الثور .

وتقدم فؤاد الى حيث أشار صاحبه دون أن يفكر بالاعتراض .. وأخذ هذا يلف بقية الحبل على عاتق فؤاد وتحت ابطه بمنتهى اللطف ، وهو يكرر : فقط من أجل التوازن ... يا فؤاد بك !...

٣

.. وكانت الشمس تنحدر نحو الأفق الغربي في جمال أخاذ عندما كان فؤاد يعود وراء صاحبه الى البلد وهو يمسح بلطف مؤخرة الثور الذي أحس نحوه بألفة سعيدة .

وكان يتوقع ان يسمع عتاب زوجته لتركه اياها وأولادها دون غذاء ، لذلك لم يكد يطل على درج الغرفة حتى راح يدعو امرأته بأحب اسمائها ، لتتناول منه ما يثقل يديه من الخبز والسوركة والبندورة !

وجلس على طرف الحصير مسنداً رأسه الى الباب ليحدثها بقصة اليوم ..

وبارتياح مَشوبٍ بالأسى ذكر لها كل شيء .. نظرة الرفيق القديم

وبصقته .. ثم عمله في مساعدة الثور على جرّ المحراث . . . وختم ذلك كله بقوله : حقاً كان العمل شاقاً .. ولكن ° أبو سعيد كان غاية في الكرم .. لقد عاملني باحترام كبير فكان يخز الثور ليأخذ سَمْتَه ، فاذا أراد مني تحركاً في اتجاهٍ ما أهاب بي في كثير من الأدب : يمين يا بك .. شمال يا بك ..

أجل .. لقد كان غاية في الرقة والذوق ، ولذلك قررت أن أواصل العمل معه ، وان لم يزد أجري اليومي على ثلاث ليرات !...

ثورة

كانت السيارة الكبيرة ـ ولنسمها حافلة ـ مكتظة بالمسافرين من مختلف الاعمار . . وقد انطلقت تسبح على الطريق المزفت بقوة ونشاط ، كأنها الزورق الحربي ، يصدم صدر الموج رافع المقدمة كالطائر بعضه في الماء ، وبعضه في الهواء ...

والطريق بين دمشق واللاذقية بطبيعته طويل ممل ، ولكن المسافرين ذوي الاعصاب الحساسة اشد الناس شعورا بطوله واملاله عندما يضطرون الى امتطاء هذه الحوافل وذلك لتضارب امزجة الركاب وما يتأتي عنه من فوضى مزعجة .. فهناك من يطيب له الغناء فينطلق على هواه، يصب الحانه كيفما اتفق في اسماع الباقين ، دون ان يفكر برضاهم او غضبهم ... وهناك المشغولون ببطونهم ، يتخذون في هذه الرحلات الطويلة فرصة للتزود بانواع الاطعمة . فما هي الا ان يستقر بهم المقام في جوف الحافلة حتى يتفرغوا للقضم والخضم ، لا يبالون بما يحملون آناف الآخرين ولا ثيابهم . وليسوا قليلين او الذين تغلب الصفراء على امزجتهم ، فما يكادون يحسون حركة السيارة حتى تنقلب امعاؤهم لتقذف مما تحتويه من قديم الطعام وحديثه ! .. واثناء ذلك ينطلق ضجيج المذياع الذي لا يعرف الراحة ، ليشغل كلا من هؤلاء عن نفسه وما حوله .. اشبه بطبول وثنيي الهند القدامى ، عندما يحتفلون باحراق امرأة تريد اللحاق بزوجها ، فيشحنون الفضاء بدوي متواصل يكفي لابعاد صوت الضحية واستغاثاتها

عن اسماع الجمهور المحتشد ..!

ولعل الصيدلي (أ ..) كان اشد ركاب هذه الحافلة ضيقا وسأما ، وهو معذور في ذلك ، اذ كان بسبب وضعه الصحي احوج الجميع الى الهدوء .. فقدر له ان لا يجد اليه سبيلاً . وقد زاد طينته بلة هذا الجار الأرمني الذي القاه سوء الحظ بجانبه ، فجعل رحلته كالعيب الضخم قضي عليه ان يرزح تحته سبع ساعات متتاليات ! .. فهو اولا نصف سكران ، قد نسجت انفاسه من حوله غطاء كثيفا من الروائح الفاسدة لا يستطيع منها فرارا .. واتم فضله بذلك القـــط الذي جثم في حجره فما يكاد ينقطع عن المواء .. ولو شاء ان ينقطع لما اتيح له ، لأن الخواجا قره بت ـ وهذا اسم صاحبه - لا يطيب له ان يفقد صوته ، فهو لا يبرح يشد اذنه ، او يقرص ذيله ، او يدغدغ صدره ، لينصرف عن الخرير الى الصياح المثير .. ولا بأس ان يؤدي ذلك الى ازعاج الصيدلي وعشرين مثله . ما دام قره بت يجد في هذه الالعوبة سلوى تخفف عن نفسه بعض دعثاء الطريق ! ..

وكان مستحيلا على (أ ..) ان يتدخل في حرية القط وصاحبه ، فضبط اعصابه ، وحاول ان يشغل وقته عن هـــذه المزعجات بالتدخين والقراءة ، حتى قاربت الحافلة مشارف اللاذقيـــة .. وهناك التفت الى جاره السعيد يقول له : ان قطك جميل .. وانيس جدا ..»

واجاب قره بت : تباً تباً . لذلك احبه .. واحمله اينما ذهبت ..

وجعل (يداعب جلد القط وهو يقول :اليس له أسم؟ ..

ـ اسمه (اورك) ..

ـ اسم جميل .. والعجيب انه يشبه بعض اسمي .. انا اسمي (امانول باروك) .. ومن أين جئت بهذا القط اللطيف ؟..

ـ من كسب .. ألا تأرف كسب !. انه مصيف جميل جداً ..

ـ الداعي غريب جوّال لي مكتب تجاري في اللاذقية ..

ـ وتعمد (أ ..) ان يخرج كلامه بطريقة توهم السامع انه واحد من التجار الأعاجم .. ثم تابع : كم يساوي مثل هذا القط عندكم ؟..

ـ لم أدفأ ثمنه .. وهو مولود في بيتنا .. وأبوه وأمه وأهله كلهم اندنا من زمان ..

ـ وهل في كسب كثير من هذه القطط ؟..

ـ ضياء .. كثير .. وأنتم أليس في بلادكم كِتَت !؟

ـ قليل .. وهي غالية جداً !. ومقدسة .

ـ مكدسة !.: ـ نعم .. كثيرون عندنا يعبدونها . . وكثيرون يربونها لحراسة البيوت ولمرافقة الاطفال .

ـ اجيب .. ومن أين تأتون بها ؟

ـ نشتريها من اليابان بأسعار عالية جداً ..

وسكت قليلاً ثم تابع : هل في وسعك أن تؤمن لي مئة قط بسعر مناسب .. خمس ليرات لكل واحد مثلاً .

ـ خمس ليرات !.. أنت تشتري ؟

ـ نعم .. هل أستطيع الاعتماد عليك ؟

ـ وبرقت أسارير قره يت ، اذ وجد نفسه فجأة أمام غنيمة باردة .. ولم يتمالك أن قال : أنا مستعد لذلك ..

ولم يشأ (أ ..) أن يفوت الفرصة فاستل محفظته ، واستخرج منها ورقتين بقيمة عشرين ليرة دفع بهما الى قره بت قائلاً : هذا ما لدي من النقود الآن ، خذه كسلفة من المبلغ .. وبعد شهر واحد تستطيع الاتصال بمكتبي هاتفياً .. اكتب اذا شئت رقم (٩٤٣ شارع الهافانا) .. كنت أود مرافقتك الى كسب لترتيب الأمر معك ، ولكني مضطر الى الغياب عن اللاذقية طوال هذه الايام ، فعليك أنت بتجميع القطط المطلوبة ضمن أقفاص .. ولا تبخل عليها بالغذاء اللازم ، وسأحاسبك بكل التكاليف .

ولم يبق ما يحول دون اتمام الصفقة ، فضم قره بت النقـــود الى جيبه .. ووضع توقيعه على السند الذي كتبه الصيدلي تنظيماً للاتفاق ، وعند مدخل المدينة فارق) أ .. (صاحبه وهو يؤكد بأن لا يحدث مانع يحول دون تسليم الصفقة في موعدها المقرر .. ثم قال له وهو يهز يده : مسيو قره بت أرجـــو ان لا تنسى إسمي .. وقال قر بت : مستهيل .. انه أمانول بـ .. باروك ..

ـ حسن .. اذا نسيته فسيذكرك به قطعكم العزيز .. ان فيه حروف اسمه نفسها .. وداعاً .

٢

وباشر قره بت عمله الجديد منذ وصوله الي كسب .. فصنع أول قفص ، وجعل مكانه على سطح الدرج الحجرى ، وبدأ باصطياد قطط الجيران واحـــدا بعد آخر .. ثم أتمه بالقفص الثاني ، وبات عليه ان يطلب القطط من الاحيـاء الاخرى بعد أن استنفذ ما حوله ، وهذا يعني ان يستعمل المال للحصول عليهـا ، وهكذا اضطر الى اداء الثمن ..

لقد افتتح السوق بنصف ليرة للقط الكبير ، وربع للصغير ، فملأ القفص الثاني او كاد .. ولكن السعر مالبث ان تحسن ، اذ اضطر الوسطاء ان يدفعوا بدورهم ، فلم يعد العمل مربحا الا اذا زاد هو في ســـوية الاسعار .. وكان متعذرا عليه ان يتوقف عن مواصلة الطريق بعـد ان قارب نصفه لذلك رضي برفع العمولة حتى استقرت على اربعة اضعـاف المستوى الاول ..!

على ان المشكلة لم تقف عند حدود المال .. بل اصبحت له مصدر عناء لا يطاق ، واول ما واجهه من هذا العناء المعارك التي اصبحت ضرورة لا مفاص منها في تلك الاقفاص انها لمعارك واقعية رهيبة كثيرا ما تجري فيها الدماء وتزهق الانفس .. وهي لا تعرف ميقاتا معينا ، فقـــد تقع في الصباح او الظهر او الليل ، فتحرم اهـــل البيت كلهم او يتذوقوا طعم النوم وما اكثر ما أقحمته معارك مشابهة مـع جيرانه ، كان من حقها ان

تجر الكوارث ، لولا تدخل اولاد الحلال ، ولولا صلات القربى التي تربط بين قره بت ومعظم أولئك الجيران ..

ثم كان عليه ان يعني بتدبير الغذاء اللازم للبقاء على حياة القطط .. الامر الذى لم تخطر اهميته بباله قط قبل مواجهته ، وقد كان ذلك ميسورا في اوائل العمل ، حيث كانت فضلات البيت مع بعض الاقساط كافية لتوفير حاجة الدفعة الاولى .. غير ان الحاجة مالبثت ان اخذت في الزيادة المركبة اطرادا مع زيادة الحيوانات ، حتى اصبح منذ القفص الثاني ، ولا عمل له سوى السعي للحصول على الفضلات والاسقاط سواء من عند الجزارين أو من صفائح القمامة !.. وطبيعي ان هذا يكلفه الكثير من المال ، يدفعه اجوراً للاحداث الذين وجدوا في هذه المهمة وسيلة جديدة الى دخل ميسور ..

واستهلكت هذه الامال جهود قره بت جميعها ، فلم تدع له مجالا لخدمة حقله . ولولا المجهود الذي بذلته زوجته وصغاره في العناية بتلك الاشجار لتعذر عليهم ان يبيعوا صندوقاً واحداً من ثمراته .

واستجاب الله دعاء قره بت ، فوافته نهاية الشهر قبل ان يوافيه الاجل . وفي صباح ذلك اليوم راح يغدق على قططه من الطعام اكثر مما عودها .. لأنه اراد ان يسلمها الى صاحبها الجديد مملوءة البطون .. ولم ينس ان يمدها من الماء بما يفيض عن حاجتها ايضاً لتكون ارضى لنظره ..

ووقف يعدها .. ويعيد عدها ، فلم تزد على سبعين قط ، بينما هي في دفتره لا تقل عن الخمسة والثمانين ومع ذلك فقد شكر العذراء التي اشفقت عليه فحالت دون موتهم جميعاً ..!

واخذ قره بت طريقه الى أول هاتف .. واستخرج من جيبه

الداخلي ولاقة مطوية بعناية ، ولما استوثق من الرقم أدار منبه الجهاز ، وطلب وصله بمكانه .. وراح ينتظره ..

وطال الانتظـــار ، فاعاد الطلب ، ثم اعاده وأعاده ، وفي كل مرة يتلقى الجواب الواحـد : انتظر .

وبعد ساعات من الانتظار ، وعشرات من الطلبات ، ومـــلء منديل من العرق الحار .. وارتفاع محموم في نبضـات القلب ، تفضلت موظفة الاتصال فاخـــبرت قره بت ان لا وجود لرقمـه في مركز اللاذقية ، وان ليس في البلد مكان اسمه شارع الهافانا !.. واخيراً أن سجلهم لا يعرف انسانا اسمه (امانول باروك) !..

٣

وعاد قره بت الى داره في شبه دوار ، لا يـكاد يعرف طريقـه لولا هدي العادة . وكان التوتر قد بلغ اشـــده في اعصابه ، فما هو الا ان صار الى السطح حتى شرع يهوي بالفأس على عوارض الاقفاص واحداً بعد واحد .. حتى أتى على الاربعة جميعاً !..

واندفعت اسراب القطط في ثورة جامحـة .. ثورة السجين الذي فوجيء بسجنه يتهدم على حين غرة ، فلم يجد وسيلة الى النجاة إلا ان يطلق ساقيه للريح !..

ولم تكن القطـط بأقـل توتراً من قره بت ، فما هي إلا ان وجدت نفسهـا حرة التصرف حتى تدفقت في كل اتجـاه ، لا تدري أين يجب ان تسلك ، ولا أين تقف .. فاذا بعضهـا يقتحم الدور ويصطـدم بأصحابها ، وبعضها يهاجم الحوانيت من نوافذهـا وابوابهـا ... !

وتتدافع الناس يرقبون هـذه الثورة المجنونـة في غمرة من الدهشة .. وهم يتساءلون عن السر الذي حفز قره بت على اطـــلاق

سبيلها بهذا الشكل المزعج !..

وبلغت ثورة القطط ذروتها حين اقتحم كبيرها الحانات ، وقفز لتوه الى احد الرفوف ، فانقلبت بحركته بعض قناني الخمور ، وما ان لامس صوت تحطيمها مسمعه حتى دفعه الرعب الي متابعة القفز من رف الى آخر !.. ثم لم يغادر الحانة حتى اوشك ان يأتي على جميع ما فيها !..

وكان طبيعياً ان يساق كره بت الى السجن ريثما يحدد القضاء مسئوليته عن هذه الثورة ..

ولعلها المرة الاولى التي يفارق فيها داره لغياب طويل .. دون ان يصطحب قطه الجميل ! ..

البرميل

لا أزال اذكر ذلك الصباح البعيد ... يوم جاءني متظاهراً بالغضب وهو يقول : أنت تقول انني أسوم دون ان يكون لي قدرة على الشراء ! فعن أي شيء تتكلم ؟

قلت : عن هذه البناية التي جئت امس تستفسر عن ثمنها كما استفسرت من قبل عن اثمان عشرات الابنية ...

قال : صحيح أنا استفسر ولم اشتر بعد .. والشراء كالحياة قدر لا يقع إلا بارادة الله .. ولكن كم تقدر ثمن هذه البناية ؟

قلت : خمسمئة ذهب ...

وهنا استخرج من داخل ثوبه صرة ثقيلة ثم فتحها على طاولة امامي فاذا هي مملوءة بالدنانير الذهبية من النقد العثماني الجديد ...

وقال في تحد : هل يكفي هذا ؟ !

ثم استخرج صرة اخرى وفتحها كالاولى فاذا مئات من الدنانير الذهبية من ذوات الحصان الانكليزي ، ثم قال في تحد أشد : وهل يكفي هذا ؟؟

وهنا قلت : بلى يكفي ... ولكنك مع ذلك لن تشتري ... وستظل حارساً لهذا الذهب دون ان تنتفع به ...

وما أدري الذي قاله بعد ... ولكنه ما لبث ان جمع صرتيه ثم مضى منتفخ الصدر بشعور الزهو والانتصار ..

وما كنت لأستغرب توفر اكثر من هذا الذهب في حوزة (ع. ق) فقد كنت اعرفه نجارا حاذقا ، بلغ من براعته في هذه المهنة ان يحفر في الخشب تماثيل رائعة ، لم يعجز ان يصنع من الخشب جهاز اسنان لفمه ... وقد طال تجواله في مختلف المدن يعمل ويجمع ... واشتهر عنه انه لا يتولى عمل منجور لبناء الاوفى مقدمة شروطه تأمين طعامه .. فهو بذلك يقبض كثيرا ، ولا يدفع الا قليلا .. وقد اراحهُ الله من هم العيال ، فقد قضى مع زوجته الثانية (فتحية) عشرات السنين بغير ولد ، وكان لها من الشهرة في فن الخياطة مثل شهرته هو في حرفة النجارة ، فهي كذلك تقبض كثيرا ولكنها تدفع الكثير من دخلها لاقرباء لها كانوا بحاجة الى العون الكريم .. ومهما يكن فقد كفته مؤنتها بل ربما كفته حتى المشاركة في الانفاق على الحياة المنزلية ...

على انه لم يكن ابتر مقطوع الصلة بالحياة ، فقد كان له بنت من غير فتحية توفيت امها من ايام شبابها وزوجها منذ ان بلغت الرابعة عشرة لرجل اعجمي ظل كل حياته لا يحسن العربية ، ولا يستطيع مقارقة الخور الا ساعات النوم ... ولكنه كان مع ذلك قادرا على تامين ضروراتها المعاشية ، فلم تكلف ابها بعد ذلك اليوم فلسا قط .

اما بقية اقرباءه فلم يكونوا قليلين ، ولكنهم كانوا مستورين لا يكلفونه عبثا .. واذا اتفق ان شعر بحاجة احدهم لم يكن ايسر عليه من ان يتجاهله فلا يراه ولا يسأل به احد ! ..

ولقد استطاعت فتحية زوجته ان توفر مبلغاً من المال يكفي لبناء دار متواضعة ، فاشترت الارض واستحضرت الحجارة ، وراحت تشرف بنفسها على البناء ، حتى اذا تم كلفته بصنع المنجور ، فكان

يتقاضاها ثمن كل شيء حتى المسمار ، وورق الزجاج .. ولا يرد لها فضلة مال زادت عن اثمان الاشياء ، وحجته انها لا تسد سوى جزء يسير عن اجرته لو شاء ان يتقاضاها اجرا ، .. ! وكانت الزوجة بطبيعتها شديدة الحدب عليه ، لا ترغب في مشاكسته ، وتتجنب كل اسباب الشقاق بينها وبينه ، فتركت له حرية التصرف قدر الامكان ولقد حاولت ذات يوم ان تثير حميته للاسهام في تكاليف البناء فثار كالمجنون ، واقسم لها بأغلظ الايمان وبمثلثات الطلاق انه لايملك ذهبا ولا فضة .. ولم يكن في وسعها سوى التسليم للواقع ، فاكتفت منه بهذا الجهد الميسور ... ورضيت ان تعتبره كما الفت واحدا من هؤلاء الاقرباء الذين تعولهم من عرق جبينها لوجه الله ...

ويتم الزمن دورته السبعين على (ع ق) ويدب الوهن في رجليه.. ثم يتحول الى مثل الشلل الذي يقعده ، فيلتزم سريره يتلقى رعاية زوجته سنين لا تقل عن الثلاثة .. تقوم بتمريضه ، وتسنقدم له الاطبة، وتقدم له الادوية حتى وافاه الاجل دون ان تسأله جزاء او شكورا ، ودون ان يفاتحها بشيء عن متاع له او مال ...

٢

ويشاء الله ان تعاني البنت مثل مرض ابيها وفي الوقت نفسه ، فتلزم فراشها لا تستطيع له براحا ولذلك حيل بينها وبين رؤيته طوال مدة مرضه ، ثم حرمت وداعه وهو على فراش الموت ، فكانت تكتفي بالسؤال عنه ، كما يكتفي هو بالسؤال عنها ، وقد تجلت عاطفته الكبيرة نحوها في ايامه الاخيرة بوجه اخص ، اذ كان لا يفتأ يردد ذكرها ، ويتسقط انباءها ، وكثيرا ما كانت فتحية تسمع نمتمات ممزوجة باسم ابنته حتى اثناء نومه ، كانما يسر اليها حديثا ... او يجادلها في امر هام ...!

وعلى الرغم من ان احفاد (ع ق) حجبوا عن امهم نبأ وفاة والدها حماية لها من الصدمة فقد ظلت صحتها في تدهور مستمر حتى لصقت

اخيرا بالفراش ، وانتشرت العقور في انحاء جذعها ، فلم يعد من الممكن تنظيفه ، وبذلك بدأت الروائح الكريهة تملأ فراغ البيت . ولكن الذي خفف عن كثافة هذه الابخرة انتقال المريضة الى ساحة الدار الفضاء ، فقد اوعزت لبنيها بحملها الى خارج الغرفة واشارت اليهم بتمديدها الى جوار ذلك البرميل العتيق الذي الف سكان الدار منظره في احدى زواياها منذ عدة اعوام ..

والمحزن في حالة هذه المسكينة هو ذلك العقر البالغ الذي كانت تعانيه مع اولادها منذ وفاة زوجها الاعجمي ..

لقد فارقهم ذلك الاب السكير دون ان يدع لهم موردا سوي راتب تقاعدي صغير لا يزيد عن ثمن الخبز الا قليلا ، ولو لا هذه الدار الصغيرة ذات الغرفتين ، التي انحصرت بها تركته لهم وسجلها على اسم زوجته قبل وفاته ، لتعذر عليهم ان يجدوا ملجأ يأوون اليه ..

وحتى هذه الدار لن يبقوا فيها الا بضعة أشهر اذا لم تستطع المرأة سداد العشرين ذهباً ، مقدار الرهن الذي اقترضه لتجهيز ابنتها .. ومن أين تفي بذلك الدين الا بمعجزة من وراء الطبيعة . . وهيهات !

وتحت ضغط هذا الواقع الأليم اضطرت الأرملة التعيسة الى ارسال اولادها في الشوارع يفتشون عن القوت من أي طريق ، وزوجت ابنتها الوحيدة من مصاب بالصرع لكي تؤمن عيشها ، ولذلك كان مرضها نعمة على هذه الاسرة المحرومة ، اذ فتح عليهم باب الاحسان ، فكانوا يتلقون رزقهم من الايدي الكريمة ، وكان لفتحية أرملة جدهم نصيب لا يكفر في خدمتهم ، تأتي بنفسها لتتفقد أحوالهم ، وللعناية بأمهم ، وقلما تركتهم يوماً دون معونة ...

وثقل المرض على أم سليم فانعقد لسانها فلا تستطيع الكلام الا قليلا وفي جهد كثير .. ورأت فتحية أن تغير فراشها ، فمدت لها فراشاً غيره في ناحية أخرى من ساحة الدار ، ثم جاءت لتحملها اليه مع بعض أولادها ، وأبت المريضة ذلك . وحاولت أن تتشبث في مكانها ، وراحت تضغط على لسانها تريد الابانة فلم

تستطع التفوه بأكثر من : لا .. لا .. ولكن فتحية لم تعبأ برفضها وحملت الى الفراش الجديد ، وألقي بفراشها الأول الى الزقاق .. وأرسلت أم سليم ببصرها نحو البرميل الذي الفت قربه طوال شهرين ، وكأنما سرها ان يظل مكانه ، وان يظل على مشهد منها فارتاحت نفسها ، وشاعت تباشير الرضى في وجهها ، ثم راحت في غفوة هادئة لم تستيقظ منها بعد ذلك .!

٣

كانت وفاة أم سليم نهاية سلسلة طويلة من الآلام ، فجدير بها اذن ان تسر أهلها أكثر مما تحزنهم ، لو أن أمور الموت تجري فوق سنن المنطق والعقل ، ولكنهم ما ان تبينوا موتها حتى ملأ عويلهم الحي ... ولم تكن فتحية قد غادرت البيت بعد فغلبها الحزن ، ولم تعد ترى سوى شبح اليتم الذي يغطي بجناحيه القاتمين ، أفراد هذه الاسرة ، فانطلقت تشاركهم البكاء ...

وتوقعت فتحية ان يندفع الجيران الى ساحة الدار بعد قليل فأخذت ترتب أوضاعها ، فتنقل بعض الاشياء من هنا وهنا ، وأشارت الى سليم ، وكان أكثر الاولاد تماسكاً وهدوءاً ، فتقدم يشد معها البرميل العتيق ليجراه الى زاوية الجدار ...

وكان البلى قد أكل أسفل البرميل ، فما هو الا أن أميل قليلاً حتى أخذ التراب يتدفق منه ممزوجاً بالرمل ، ثم يتبع ذلك صليل ناعم تدفقت على أثره القطع الذهبية من النقد العثماني وذوات الحصان !...

واستولت الدهشة لحظة على فتحية وسليم فجمدا مكانهما ، وتركا للذهب ان يتدفق مع التراب على غير وعي ... ثم ما لبثت المرأة ان انتبهت الى الامر فاسرعت الى الباب تغلقه باحكام .. ثم أقبلت على سليم تقول له في حنان عميق : هذه ثروة هبطت عليكم من السماء فهلم يا بني .. هلمّ الى تجميعها قبل ان ينكشف أمرها ...

وتناولت وسادة قديمة فسلخت ظهرها ثم جعلت تجمع وإياه فيها قطع الذهب ، ثم نهضا مرة ثانية يشدان بالبرميل الى اليمين ، والى اليسار ، ثم الى أعلى ، حتى فرغ من حشوه ، ثم أخذا في تغلية التراب حفنة فحفنة ، حتى

استيقنا ان لم يبق ثمة قطعة من المال واحدة .. وبعد أن أودعا القطع مكاناً أميناً عمدا الى تجهيز الجهاز العزيز ..

.. وفي المساء خلت فتحية بسليم في دارها ، وجعلت تقول له : هذه المئات الخمس من الذهب هبة السماء اليك والى اخوتك فأحسن استقبالها وشكر الله عليها يا بني ، وأول ما يجب عمله هو تسديد مبلغ الرهن الواقع على بيتكم ، ثم تفتح بقية المال حانوتاً تجارياً تؤمن بعض مردوده معيشة اخوتك .. ولا تنس ان نجاح العمل يتوقف على مدى اخلاصك وحسن نشاطك ...

وما هي الا أيام حتى وضعت خطة المرأة موضع التنفيذ ، ففك رهن الدار ، وافتتح الحانوت واستقرت حياة الاسرة ...

وكانت فتحية مستيقنة ان ذلك الكنز لم يكن سوى مال زوجها الذي رأته ذات يوم معباً في صرتين .. ثم فقدت أثره ولم تعد تعرف من أمره الا ما اخبرها هو من أنه كان أمانة لأحد الاصدقاء .

* * *

عبرة ...

ليس في الحياة شيء يجرى كما نريد ، و كثيراً ما نجد أنفسنا في وضع لا يأتلف مع طبائعنا ولكنا مع ذلك لا نستطيع التخلص منه قبل ان ينتهى الى مستقره .. و كذلك كانت علاقتي مع (صفوح) .. فقد لبثت عاماً كاملاً ألتقي به كل مساء الا ان يحول بيننا سفر أو قدر ، وفي كل مرة أقدر أنه اللقاء الاخير ، ذلك لأنني لم أشعر معه قط انني مع صديق ، بل على الضد تماماً كنت أحس فجوة واسعة جداً تفصل بين تكويني النفسي وتكوينه فاتعجب كيف أستطيع الصبر عليه ، و كيف يستطيع هو أن يستسيغ النظر إليّ ! على انني لو شئت ان اسوغ صلتي به لما أعوزني العذر ، فأنا كمدرس ومفكر لا أستطيع الاجتزاء بجانب من الحياة عن سائرها ، وأعتقد ان الحياة متحف أغرب ما فيه هذه النماذج البشرية التي لا يعطيك الواحد منها صورة تامة عن الآخر ، فلو أتيح لى ان أدرس تسعة وتسعين شخصاً من مئة لما وجدت فيهم جميعاً ما يغني عن دراسة الأخير ...

وهكذا كانت صلتي بصفوح طوال تلك الايام شيئاً مفيداً ، كاطلاعي على كتاب رديء ما كان يتيسر لي الحكم عليه الا أن أقرأه بنفسي .

لم أكن أعرف عن هذا الرجل من قبل سوى انه واحد من مجموعة شبان ، جمعتهم البطالة على نشدان اللذة في أدنى صورها .. ففنهم ينحصر تدخين الحشيش أو يكاد ، ومن سهراتهم تفوح روائح الخمور على اختلاف أنواعها ، فاذا انحطت أعصابهم بعمول المخدر خرجوا يطوفون شوارع البلد يوقظون النيام

بعربداتهم المزعجة ، ويسلمون انفسهم لضحك غريب لا يزال يدغدغهم حتى يلقى بهم على الارض ، يتمرغون بترابها في نشوة لا يتذوقها الا هـذا الطراز من المخلوقات ، وكنت أعرف صفوحاً هـذا من قهقهته المميزة في أثناء تلك الليالي ، اذ تمر جوقتهم في الشارع المقابل لحينا فيطير نومي ، بما يتهاوى على مسمعي من ذلك الضجيج ، الذي يشبه مجموعـة متنافرة من اصوات أحياء الغابات .

وكأن بينهم سباقاً في مبلغ القدرة على ازعاج الناس ، فاذا هم يفتنون في تلوين أصواتهم ، واذا قهقهة صاحبي هذا نسيج وحدها في ثلك الموسيقى العجيبة المثيرة ...

ويحدثني ذات يوم صديق لي حلاق عن ناحية أخرى من مميزات صفوح ، لا سبيل الى معرفتها من خلال هذه العربدات وحدها . فقد ذكر انه تجمع له في ذمته مقدار من المال لم يسدده بالرغم من المطالبة الملحة مما اضطره لمقاضاته .. فما كان من صفوح الا دفع عن نفسه حكم المحكمة بالانكار الذي أكده بأغلظ الايمان ...!

وبديهي ان مثل هذه الانطباعات نحو الرجل من شأنها ان تعمق النفرة من مقاربته في نفسي ، وبخاصة بعد الذي بلوته عن كثب من شواذه التي لم ترد صورته السابقة في ذهني الا تثبيتا وتوكيدا ..

اذكر انني كنت شكوت امامه رجلا اقترض مني مئة ليرة ثم انكرها ، وذكرت له انني لا املك بينه تثبيت عليه الحق فقـال : اقم عليه الدعوى وسمني شاهدا ...

قلت : او عندك علم بالقضية ؟ ... فقال وهو يرسل قهقهة ذكرتني بعربداته القديمة : وهل ضروري ان اعلم ! ... ان للصديق على صديقه اكثر من شهادة ...

وشد ما ضحك من غباوتي عندما رأى اشمئزازي من هـذا التبرع

الوقح ، وراح يحاول تليمي بأن الصدق والحق والفضيلة وما الى ذلك انما هي اوهام يتسلى بها المغفلون ، ولا تليق بامثالي من المفكرين ...!

وما انس لا انس يوم فاجأته في خلوة مع بعض القرويين يحرضهم على اغتيال اخيه ، الذي قتل ذات يوم رجلين منهم في محاولة للدفاع عن النفس ... ويدعم مقابل ذلك باعطائهم كل ما يناله من ارثه ..

ولعل ابرز مميزات صاحبي ذلك الغرور العجيب الذي يملؤه اعجابا بعبقريته ، فلا يكتم احتقاره للناس الذين لا يقدرونها حق قدرها ...!

لا اذكر ان قضيه طرحت امامه الا اعطى فيها الرأي الذي يعتبره الحاسم ..

فهو الشاعر الذي لا يشق له غبار ، وان لم ينظم بيتا واحدا بعد ...

وهو الفيلسوف الذي لا سبيل الى استقامة حياة الناس الا باشارته ...

وهو ذو الاختصاص الموسيقي الذي في وسعه ان يبدع كل جديد من الالحان ، وان لم يفعل بعد شيئاً سوى ترجيح بعض أغاني فريد الاطرش ، بذلك الصوت الذي لا يستجيب له الا بصيحات وجرعات من الخمرة المحرقة ...!

٢

وجئت داري ذات مساء فأخبرتني زوجتي ان أم صفوح تنتظرني منذ الظهر ... ولما حييتها لم تستطع الرد الا بعد وقت اذ كانت تغالب نفسها لكيلا تظهر في صوتها بحة البكاء ...

وفي حياء بالغ حدثتني المرأة بعقوق ابنها هذا ، وقسوته على اخيه ... وطلبت اليّ ان أعمل على تخفيف شره ... فوعدتها خيراً ، ولم أشأ ان أصارحها بما في نفسي نحوه ، وما أعرفه من غروره الذي يستعصي على كل محاولة للاصلاح ...

وقضيت ساعات من ليلتي تلك أفكر بأمر هذه المرأة ...

لم أكن أعرفها من قبل، ومثلي في ذلك من جيرانها المقربون أنفسهم، فقليل منهم الذين يعرفون لها وجهاً، أو يسمعون لها صوتاً، ذلك انها قلما تغادر بيتها لزيارة احدى شقيقاتها، وهي منذ فقدت زوجها قبل اربعين سنة لم تزل حابسة نفسها على خدمة ولديها هذين، قد جعلتهما حظها من الدنيا، فلا تمد عينيها الى أمنية سوى ان تراهما في حياة هنيئة وصحة موفورة .. ومن هنا كانت في نظر العارفين صورة من المرأة الكاملة التي ندر وجود مثلها في النساء.

وترددت مليا قبل مفاتحة صفوح بموضوع والدته .. ولما وجدت الفرصة مناسبة بدأت حديثي بالكلام عن فضل أمه، وشهرتها الطيبة بين الناس، ووقفها حياتها على خدمته واخيه فحرمت نفسها بذلك حقها في الزواج، مع انها كانت يوم ترملها دون العشرين من السنين، وتقدم لطلب يدها عدد من الرجال الملائمين.

وساءه ان يسمع اطرائي لوالدته، فراح يختلق لها السيئات، وجعل يؤكد لي انها متآمرة عليه مع شقيقه .. شقيقه الذي لا اعرف له عملا غير خدمته ...!

على اني استطعت مع ذلك ان اقنعه بالصبر. ووجوب التطلف بها من اجل نفسه على الاقل، اذ ان الشر الذي يثيره في البيت سيؤدي الى شقاء الجميع، وقد ينتهي به نفسه الى كارثة.

واتفقنا على ان نجمع بينها الليلة في دارهم، واخذت عليه العهد بأن يضبط اعصابه فلا يتجاوز في معاملتها الادب الواجب ..

واستقبلتنا المرأة في استحياء من الاثاث البسيط الذي هناك، وقدمت الينا وسادتين جلسنا عليها، وكان عندها امرأة جعلت تسألني عن صحتي ووالدتي وتذكرت عنايتها بي اثناء الطفولة .. وسرعان

ما استعادت ذاكرتي صورتها وهي تضمني في حجرها او تصلح بيني وبين ابنها ... فشعرت انني في جو روحي مؤثر ، وتوقعت ان ننتهي الى كثير من الخير ... وبهذا الشعور السعيد افتتحت الحديث مذكراً واعظاً ، ولم أنس ان أثير رحمة الوالدة فذكرتها بان تضحياتها في سبيل ولدها لن تنتهي ما دامت في قيد الحياة ... وقلت : من العبث ان نكلف ابناءنا ان يكونوا لنا مثلما كنا لهم ، لان حكمة الله شاءت ان يكون الايثار أسمى خصائص الامومة والأبوة ، وان يكون التفاعل والنسيان أبرز خصائص البنوة ، فكأن مكافأتهم لنا تنحصر في احسانهم لأبنائهم دون امهاتهم وآبائهم ... ولهذا فاني أدعو أم صفوح الى مزيد من التضحية في سبيله ، وان تغفر له أخطاءه اليوم كما كانت تغفر له أخطاءه في طفولته ..

ولم تتمالك العجوز فسمعت نشيجها ، ورأيتها تحني رأسها لتمسح عينها وراء النقاب الكثيف .. ثم قالت في لهجة كأنها الانين الخافت : أسأل الله ان يهديه وأخاه ، وان يغفر له كل اساآته إلي واليه ...

وفجأة لمحت يد صفوح تهوي بالوسادة على رأس أمه ، وأردف ذلك ببصقه وقحة قذف بها وجهها وهو يصيح : وهل أنا مسيء يا ....!

وتدحرجت الكلمات القذرة على لسانه ، كألفاظ التجديف يقذفها سفيه مصروع في قلب المسجد ..

ووجمت تلقاء المشهد العجيب ... احدج وجه ذلك المخلوق بنظرة لا اعرف كيف استقبلها .. ووجدتني اهم بشيء لا ادرى ماهو بالضبط .. ولكني ضغطت على اعصابي باكثر مما اطيق ... ثم خيل الي ان جدران الغرفة تتحرك وشعرت بالارض تميد تحت قدمي وانا استمع الى العجوز ترفع رأسها وهي تقول في اناة رهيبة : « يارب ... خذ حقي ... »

ولم اعد قادراً على البقاء ، فنهضت لأنسحب من هذا الجو

المخيف ، وقبل ان اغادر الباب اعدت النظر الى وجه صفوح ، فاذا هو ينهض ثم يمضي امامي وهو يشتم الرب ، ويتحدى قدرته ...!

٣

ومرت الايام فالشهور فالسنون ... وكنت في السيارة الى موطني الجديد في اللاذقية عندما رأيت السائق يتوقف عند احد اعمدة الهاتف وهو يقول : هنا بهذا العمود اصطدمت سيارة صفوح فكانت الحصيلة قتيلاً ومهشمين ...

وانتبهت لذكر صفوح ، وسألت السائق تفصيلا للقصة فقال : كان الثلاثة عائدين من سهرة حمراء ، ويظهر ان السكر والنعاس كانا يغالبان صفوحا ، فما ان وصل بسيارته الى هذه البقعة حتى وقعت الكارثة ...

لقد قتل احد الثلاثة فورا ، وكسرت ساقا الثاني ، وكان نصيب صفوح تحطم الرجلين ، واختلال في السلسلة الفقرية ...

واستمر السائق في حديثه عن نتائج الكارثة فقال : كانت مصيبة صفوح قمة المصائب الثلاث ، ذلك انه فقد وظيفته ، ثم انفق كل مايملك على معالجة كسوره ، وهو الآن يعيش على الارض ... ولولا عناية زوجته واخيه لما وجد من ينظر اليه ... »

وشاء الله ان امر بذلك البلد ... وبينما كنت مع اخوان في اجتياز بعض الطريق فوجئت من المنعطف المقابل برجل يتوكأ على عكازة منحني الظهر ، ينتفض في مشيته ، وينقل خطاه في جهد ..

ولم اعرف الرجل اول الامر حتى صافحت عيناي عينيه ، فاذا هو يميل بوجهه مسرعا الى الناحية الاخرى ، كأنه يريد الافلات من نظري ..

وهنا تذكرت ذلك المشهد الذي لم انسه قط ... وكأنني ارى

الآن بصفة الرجل تستقر على نقاب تلك العجوز ، التي لقيت وجه ربها مبيضة الجناح محطمة الفؤاد منذ اربع سنوات ...

وتركت لصفوح ساعتئذ ان يوهم نفسه بانني لم اره ، اذ واصلت طريقي متشاغلا عنه ...

مسكين لقد خشي ان اشمت به ، ولم يعلم ان قلبي يفيض بالحرقة عليه ، وان في العبرة ما يشغل عن الشماتة ..

فاللهم رحماك وتباركت ...

لقد استجبت الدعاء اخيراً ... وأخذت بالحق ... وكان اخذك الما شديداً ...

الراعي الطموح

عرفته لأول مرة في (الشيخ بدر) وذلك قبل اثنتي عشرة سنة .. وكنت آنذ من تلك القرية مصطافا في بعض السنين .. ولا أزال أذكر اللحظة التي فاجأني فيها ، يقتحم فناء الدار دون استئذان ودون أي معرفة سابقة ، وفي حياء بالغ حيى ، وفتح كيس الزاد المعلق تحت ابطه ، ليستخرج من خلال محتوياته من البصل والخبز ، كتابا مغلفاً بعناية ، وقال لى وهو يشير الى بيت من شعر ابن الرومي في احدى الصفحات : هل تتكرم علي بايضاح صغير ؟ .. ثم بين ان مراده معنى البيت واعرابه ، ولم أر بأساً في اجابة طلبه فشرحت البيت ، ثم أغربت مفرداته وجمله في ايجاز ووضوح ، ولم أعجل في ذلك ، اذ رأيته مهتما باثبات ما أقوله على هامش الصفحة .. ثم لم يلبث ان طوى الكتاب ثم شد على يدي يصافحها في حرارة ، ويتمتم بكلمة مهذبة عبر بها عن صادق شكره ..

ونظرت اليه وهو يغادر الفناء ، ليسوق غنيماته الى رأس الهضبة ، وقد عاد الى الكتاب يوزع بصره بينه وبين دوابه .

ولم أحتج آنذاك الى كبير جهد لاعلم انه واحد من اولئك الاحداث ، الذين قطعهم اهلوهم للعمل في الرعي ، لا من اولئك التلاميذ الذين يقبلون على المدرسة اكثر أيام السنة ، حتى اذا وفد الصيف

بفسحته الواسعة تفرغوا لمساعدة اسرهم في عمل عابر كهذا..

وكان في ثوبه البالي ، وسرواله القروي ذي الالوان المتعددة الحائلة ، ثم كوفيته الملفوفة حول رأسه في غير عناية .. وبخاصة تلك البقيه المفتتة من مداس المطاط الذي كان يطأ به الشناخيب والبلان .. كان في كل ذلك ما يدل على ان الفتى من الذين يستمتعون بالحظ الوافر من قسوة الفقر ..

وقبل ان يغيب عن بصري تركت الفناء الى داخل البيت ، وفي انني غير قليل من تلك الرائحة التي نشرها حولي بخـــار جسمه الناضح بالعرق .. ولم أزد على ان تساءلت في نفسي : وما حاجة مثل هـــذا الراعي المعدم الى الشعر والاعراب !..

وكدت أنسى ذلك الوجه الذي لم اعرف اسم صاحبه لولا انـه ابى الا ان يذكرني بنفسـه ظهر اليوم التالي وكنا بجموع الاسرة على المصطبة الخارجية ننتظر الغداء ، عندما فوجئنا بهذا الفتى يلقي علينـــا تحيته ، ولم ينتظر الأذن بل جلس لفورة على حافة المدخل ، قريباً من غسان ، وفي أدب حبي قال له : هل تتكرم بايضاح صغـــير ؟.. ولم يكن في حاجة الى جواب ، بل فتح كتابا في يدة ، وجعـل يشير الى خطوط هناك قائلا : هذه الاقواس لا استيطع فهمهـا دون مرشـد .. فعلام تدل هذه الاقواس الداخليـة الصغـيرة ؟.. وعلام تدل هـــذه الخارجية الكبـيرة ؟..

وكذلك ارجو ان ترى فهمي لهذه الاشارات المختلفة : هـــذا الخط الافقي هو علامة الناقص .. واما هذا الصليب فبعكسه .. انه اشارة للزائد .. أليس كذلك ؟..

وكانت لهجة السؤال مغرية بالاجابه لا تدع مجالا للـــتردد .. والاسئلة صغيرة ، ولا يكلف ايضاحها أي مجهود .. ثم ان على غسان

ان يتخلص منه على أي حال ، فقد احدث دخوله علينا بهذه الصورة وفي هذا الوقت خاصة ، مفاجأة غير سارة ، فالمجلس اسري ، والبنات لم يكنّ على أهبة لاستقبال غريب .. فما ان بوغتن برؤيته حتى هرعن الى داخل البيت .

وعمل غسان بوحي البديهة فبادره بالجواب المطلوب ، و بساطة لا تدع حاجة للاعادة . ولم يبق ما يقتضي بقاءه ، فقدم شكره وانسحب ..

ووجدتني مدفوعا الى الاعراب عن امتعاضي من هذه السماحة المرهقة ، وقلت : هذه المرة الثانية التي يقتحم فيها علينا الدار . ليلقي مثل هذه الاسئلة التي هي ابعد ما تكون عن حاجة الرعيان .. لا اشك ان في الفتى شذوذاً يحسن ان نتخلص منه بوسيلة مناسبة .

ويبدو ان غسانا كان أوسع علما مني بأمره فقال : انه لا يخلو من شذوذ .. ومن أجل هذا يتحمل الضرب من ابيه معظم الايام .. ان اباه يقتضيه ان يتفرغ لرعاية غنياتة حتى المساء ، وان يختم عمله اليومي بغرارة من العشب يحملها على عاتقه عند العودة من لمرعى ، ليوفر للاغنام والبقرة الاخرى طعامها الليلي . ولكن (م غ) قلما يكمل عمله المطلوب لانه مشغول عنه بالقراءة والكتابة التي لا يدعها ابدا .. فهو مصر على ان ينال الشهادة المتوسطة مها تكلفه من جهد وعذاب ومضطر الى مرضاة ابيه الذي يفرض عليه سلطانه بالعصا وهكذا يوزع نهاره بين الدرس والرعي وتعبئة الغرارة .. وطبيعي ان ينحصر تقصيره في موضوع الغرارة ، التي قلماء جاء بها ملأى .. ومن هنا كانت العقوبة ابدا تلاحقه ، لأن اباه لا يرى مثل هذا القصور في اترابه من الرعاة ، الذين يحبون الايقاع به ، فيشكونه الى ابيه ، ويقارنون بين عملهم وعمله ، ويؤكدون له ان ابنه شديد

الاهمال لدوابه ، حتى انه قلما يعطيها حقها من الماء خلال النهار ..وقد اشتهر امره في ذلك ، حتى بات الناس يرمونه بالمجنون وقد رآه احدهم يستوقفني في الطريق ليسألني عن مشكلة فيزيائية ، فنصح لي ان اهمله لانه مجنون ، ولأن اباه لا يرضى ان يشغله شيء عن مهمته في رعاية الدواب التي هي وسيلتهم الاولى الى الحياة . »

واطرقت مليا افكر في هذا الوصف .. وقد كشف لي من أمره مالم اتوقع وقلت تعليقا على ماسمعت « وما الذي يمنع هذا الفتى من الجمع بين الرعى والدرس ! بل أنني لأرى من الخير تقدير طموحه » .

ومنذ ذلك اليوم بدأ يلقى لدينا بعض التشجيع الذي يعوزه .. والقى هو بثقله فأصبح كثير التردد علينا ، لا يكاد يرى احدنا حتى يبادره بقوله : من فضلك .. ايضاح صغير ..»

ولكن الاستيضاحات اخذت تكبر حتى كدنا نضيق بها وبما تحمله من تلك الروائح التي اعتادت ان تترك بقاياها طويلا في انوفنا وما حولنا ..

وقد ضاعف ثقل العبء ان الفتى لم يكن على حظ من الذكاء يتناسب مع طموحه ، بل كان التباين بين النوعين غير قصير ولهذا كثيرا ما وجدتني ابرم به ، واعلن ضجري من بطء ادراكه في دروس القواعد والادب ، وما احسبه في الرياضيات والعلوم كان احسن حالا .. ولولا جهوده المتواصلة ، ومغالبته لنفسه لاستحال علي وعلى ابني ان نصبر عليه طوال تلك الايام ..

٢

ومر من الزمن على ذلك الصيف ما كان جديرا بأن يمحو من ذهني كل أثر لذلك الفتى .. فليست ثماني السنوات بالشيء اليسير في حياة الافراد . لقد تبدلت بطرطوس اللاذقية ، وانقطعت كل صلة لنا بالشيخ

بدر الا بعض الوجوه من معارفنا القدامى تطل علينا بين عام وعام ، كاطلالة الحلم من خلال ذكرياته البعيدة ..

وكنت على وشك الاغفاء بعد ظهر احد الايام عندما دق جرس المدخل في دفقة طويلة واضطررت الى الاسراع نحو الباب ، لارفع اليد المزعجة عن فاصمته ، وشد ما دهشت حين رأيتي بغتة امام الوجه القديم الذي عرفته في راعي الشيخ بدر ! ..

لقد تغير الكثير من مظاهره ، فهو اليوم في هندام مدني لم يهمل حتى ربطة العنق ، وقد خلص رأسه من تلك الكوفية العتيقة ليأخذ ما وسعه من الضياء والهواء . وحل مكان المداس المفتت حذاء ذو شريط انيق ، وقد ترك الزمن اثره فى هيكله فهو اليوم اكثر امتدادا ، واوفر لحما .. غير ان هذا وذاك لم يحولا بيني وبين حقيقته التي كانت اشد بروزا من كل تغيير .. ولعل اشد الظواهر الثابتة دلالة على شخصه عيناه .. تانك اللتان لا تبرحان على سمتهما وعمقهما والمهودين ، ثم هاتيك الوضاءة التي لم تفارق بياض وجهه ، وقد لوحه حر الهجير ، كعهده ايام كان يتلقى اشعة الشمس مع غنيماته في هضاب الشيخ بدر وحتى رائحته القديمة كانت أول شيء لامس حواسي عند مهواجهته ، فساعدت على بعث الماضي كله حيا في خيالي ..

وقلت في نفسي وانا افتح له حجرة الاستقبال ، ارجو ان لا يكون ثمة ايضاح صغير ! ..

ولا انسى انه كان جد مهذب في تحيته واعتذاره ، فهو يعلم ان وقت القيلوله غير موافق للزيارة ولكنه ، كما قال ، خشي ان لا يجدني في غير هذا الوقت .

وآنسته ما وسعني .. وسألته عن القرية والاصدقاء ، وعن دراسته ، وهل لا يزال مقبلا عليها ؟.. وفي هدوئه المعتاد أجاب : منذ ثمانية اشهر

لم أر الشيخ بدر قلت : وأين كنت كل هذه الاشهر ؟ قال : في قرية من أقصى هذا الجبل .. فلم أفهم مقصده وتابعت : وهل لك من عمل هناك !.. قال : بلي .. انني معلم .. معلم في مدرسة هناك !؟.. ولم أستطع كتمان دهشتي : أنت الآن معلم !! وكأنه سرَّ لتعجبي فقال : أنا معلم منذ ست سنوات ، قضيت أربع منها في منطقة الجزيرة واثنتين في هذا الجبل ..

وهنا تذكرت طموح الشاب ، وحرصه القديم على احراز الشهادة .. فقلت : اذن فقد نلت الكفاءة ، وتركت رعي الماشية الى رعاية الاطفال !..

وفي حماسة لم أعهدها منه أجاب : وتقدمت في العام الماضي لامتحان الثانوية ، فلم يكتب لي النجاح فيها وأنا اليوم أزورك لأتدارك على يديك النقص الذي لا بد من استكماله لتحقيق النجاح ..

ولم يشأ ان يدعني للتردد : انني اليوم ذو دخل ، ومن حقي ألا أضيع جهدك بغير مقابل .. لقد كتبت أجوبة الادب على طريقة المحفوظات ولم أتعلم بعد كيف أكتب شرحاً لنص في مستوى الثانوية .. وكذلك لا أكاد أعلم شيئاً عن العروض .. وقد قدرت ان عشرين حصة دراسية لديك تكفي لتزويدي بما يدفعني شوطاً أبعد .. وها أنا ذا أضع بين يديك المقدار الذي تفرضه مقدماً ..

وكنت أتلقى سرده الغريب في مزيج من الاعجاب والحيرة .. ولم أستطع وعده بشيء لان أعمالي اكبر من اوقاتي ، وقد سبق ان اعتذرت لغيره من طالبي الدروس الخاصة بسبب ذلك .. وفكرت ان أفضل خدمة أقدمها له هو أن أصله بمدرس من زملائي يحقق له هذه الرغبة .

وعرضت عليه فكرتي .. الا انه أبى الاصغاء الى تفصيلاتها ، وشرع يؤكد انه لن يقبل هذه الدروس الا من قبلي .. ومن أجل أن ييسر علي الأمر جعل يحاول اقناعي بانه اليوم غيره بالأمس ، وان ذهنه أصبح أكثر فهما مما عهدت ، وهـــذا يعني أنني لن أجد عسراً في تعليمه .. و

وتغلبت عاطفة الاعجاب بالفتى في نفسي على كل عائق ، ورضيت أن أعطيه الدروس المطلوبة ، على ان يساعدني بجهد لا يفتر .. واتفقنا على ان تكون الحصص ثلاثا في كل اسبوع ، احداهن بعد ظهر الخميس والاخريان بعد عصر الجمعة . وقد اخترنا هذين اليومين مراعاة لعمله الذي لا يستطيع عنه إنفكاكا في سواهما .

وبدأنا درس الخميس الاول ، ثم أتبعناه بدرسي الجمعة ، وزودته بوظائف اسبوعيه مساعدة .. ومنذ ذلك اليوم بـدأت أسفاره الاسبوعية بين الجبل واللاذقية ، ليتلقى الدروس في مواعيدها .

وبذل الفتى جهداً مشكوراً ، فكتب واستظهر وأعرب وقطّع .. ولكن مجهوده الذهني ظل دون مستوى نشاطه ، كأيامه القديمة تماماً . وجاء موعد الامتحان ، وخاض معركته في صبر واستمانـــة .. ورحنا نترقب النتيجة ، وقرأ في قائمة الناجحين اسمه ناقصاً ، فلم يشأ ان يطمئن نفسه ، فقصد الى مصلحة الامتحانات ليتبين الحقيقـــة ، فاذا الناجح غيره !.. وهكذا استقبل سقوطه الثاني في غير تذمر . وجاءني يقول : لم يكن بيني وبين النجاح سوى بضع علامات .. وهذا ما يضاعف رغبتي في مواصلة الجهاد حتى النصر ، واني لاعتبر مجهوداتي السابقة وما قرأته من كتب وتلقيته من دروس زاداً ثقافياً ، أمدني بالكثير من الخير .. وأحب ان تهدني بدروس اخرى ترتب لي مواعيدها منذ الآن ..

وواعدته .. ومنذ مطلع العام الدراسي التالي طفق يستأنف أسفاره الاولى ، ليحضر الدروس في مواعيـــدها المقررة ، واضـــاف الى دروسه في العربيـــة دروساً أخرى في الاجنبيـــة رتبتها له مع أحد الزملاء ..

وحين حان الامتحان الثالث كان أوفر استعداداً له ، ولهـــذا لم يفاجأ بخبر نجاحه عند اذاعة النتائج .

٣

وكنت ظهر أمس عائداً الى الدار ، عندما فوجئت بيديه النديتين ابداً تهزان يميني .. وفي حرارة يحييني ثم يقول : سألت عنك في الدار فقيل لي انك في المقهى ..

قلت : مرحبا بك .. هل ثمة ايضاح صغير ؟؟ .

وادرك ما اريد فابتسم وقال : اجل .. انه ايضاح وتوجيـــه .. « واخذ يشرح لي قصده : انني استعد لامتحان اهليـة التعليم في العـام القادم ، وفي وسعي الاعتماد على نفسي في دراســـة موادها جميعا ، الا الموسيقى وبعض تطبيقات عملية في التشريح .. فارجو ان تصلني بمدرسين لهما وتوصيهما بي خيرا ..»

وفعلت ما اراد .. ولم انس ان اذكر للمدرسين طرفا من سيرته ..

وبعد ايام لقيت مدرس الموسيقى ، وسألته عما صار اليـه تلميذه المعلم ، فقـال : انه ذو فهم مخيف .. يريـــد التهام منهاج العـام في بضعة ايام ..!

قلت : وبهذا النهم استطاع التغلب على ظروفه القاهرة فتحول من راع الى معلم .. ولا استغرب ان تقرأ اسمه في الصيف القـادم بين الناجحين من اهلية التعليم .. على انني واثق انه لن يكتفي بهذه الشهادة، بل لن يقف اندفاعه دون الشهادة الجامعية ..!

قال صديقي مدرس الموسيقى : حقـا ان الذي لمسته فيه من قوة الطموح ليستحق الاعجـاب ..

قلت : ولكن عبرة هذا الطموح هـو ما يؤكده لنا من ان الذكاء لا يشكل سوى عنصر محدود الاثر في حياة الانسان ، اما التصميم والارادة فهما الاداة الاولى في كل تفوق من شأن الجهـد البشـري ان يحققه ..

الطبيب الناجح

المكان : (دار بسيطة ولكنها نظيفة .. تشغل التمثيلية منها المطبخ ، وهو صغير مرتب فيه خزانة الآنية ومجلى من البلاط المصنوع ، على جانب منه موقد الغاز .. ثم غرفة نوم العجوز ، وفيها سريرها النقي البياض ، وبعض المقاعد ونضد ذو درج بجانب السرير ، ويغطي ارضها بساط من نوع رخيص .. ثم البهو ويحوي مجموعة من الاراثك البسيطة ، وعلى ارضه سجادة من النوع الحلبي وفي وسطه منضدة انيقة عليها آنية زهر وحولها بعض الرسوم ، يمثل احدها الزوجين في ثياب الزفاف .. واخيراً غرفة نوم الزوجين ، وفيها سريران في حالة متوسطة وخزانة ثياب كبيرة .. وعلى ارضها بساط عراقي مخطط ..)

الاشخاص : (حسن صاحب الدار : شاب في الثلاثين نظيف الهندام ، يعمل موظفاً في التعليم .

فاضلة : زوجته في مطلع العقد الثالث ، حسنة الهيئة ، معنية بشؤون منزلها ، رشيقة عليها ملامح الجد والذكاء .

ام حسن : عجوز في الخامسة والستين ، متمارضة ، عصبية المزاج ... تكاد لا تغادر فراشها .)

المنظر : (فاضلة في المطبخ منهمكة فى تنظيف المجلى وترتيب الصحاف ..

تراقب قدور الطعام على مواقد الغاز ..)

ام حسن : (من داخل غرفتها تصيح في صوت مكدود) : آه .. بطني ... راسي ... تتركوني وحدي ويلكم من الله .

فاضلة : (باعلى صوتها) : انا آتية ... اتية .. الطعام يكاد يحترق ..

ام حسن : اعطيني ماء .. ماء جف حلقي ...

فاضلة : حاضر .. حاضر يا مرأة عمي ..

مزج : فاضلة تخفف حرارة الغاز ثم تمضي بكوب الماء الى غرفة حماتها .. والكاميرا تتبعها)

فاضلة : سلامتك يامرأة عمي . (وتاخذ في اجلاسها ثم تقدم اليها الماء) : تفضلي ..

منظر مكبر (ام حسن تشرب قليلا ثم تزم فمها في استكراه)

ام حسن : انه مر جدا .. ليش ؟ ..

فاضلة : (تاخذ جرعة من الكوب) : ماء عذب مافيه علة ..

ام حسن (طبعا انا اكذب ! .. دائما انا اكذب ... (وهي تدير وجهها عن كنتها في شيء من الغضب)

فاضلة : (مبتسمة ..) معاذ الله ...ولكن ...

ام حسن : بس .. يكفي .. انت تكذبيني بكل شيء .. حتى انك لا تصدقين اني مريضة .. آه .. رأسي بطني .. ياجوعي !..

فاضلة : سلامتك يا مرأة عمي .. يخسأ الجوع ... ما عندك تفاح وموز ...

أم حسن : ورز بحليب . ولبن مبرد .. وايش بعدا .. قلت لك عشرين مرة أنا لا آكل .. لا أستطيع .. اولادك هم الذين يأكلون هذا كله ...

فاضلة : حسنا .. سأمنعهم من ذلك .. والآن هل تريدين ان آتيك بفواكه .؟

أم حسن : لا .. لا .. لا أريد .. لا أطلب شيئاً .. أنا مريضة .. مريضة جداً ..

فاضلة : لا تتوهمي يا امرأة عمي .. ألم يقل الطبيب انك في عافية !..

ام حسن : وهل يعرف الطبيب أكثر مني ؟!.. هل يحس آلامي !.. آه قلبي ... بطني .. رأسي .. ركبي .. ركبي ...

فاضلة : سلامتك سأطلب من حسن أن يغير لك الطبيب .. آه .. نسيت الطعام على النار .. اسمحي لي ..

أم حسن : معلوم .. معلوم .. لا تريدين البقاء عندي .. تكرهين رؤيتي ...

فاضلة : الطعام على النار انه يحترق . ألا تشمين رائحته !..

ام حسن : واذا احترق .. ماذا يحدث ؟... هل يوبخك ؟... هل يضربك ؟.. لا بسم الله عليك يا مُدلّلة !

فاضلة : (تغادر الغرفة) سأعود حالاً .. (وتهمس) : يا رب عونك ...

أم حسن : (تستعيد نشاطها فجأة ... وتشيع كنتها بنظرات السخط وباشارات الكره) المرض لك والموت ..

(في منظر مكبر تصعي الى حركة اقدامها حتى اذا اطمأنت الى وجودها في المطبخ سحبت الدرج المجاور لتستخرج منه بعض الفواكه، ثم تاخذ في التهامها ، وفي هذه الاثناء يطل عليها ابنها حسن حاملا غلاف الفواكه فتلقي بقية التفاحة ، وتمسح فمها بسرعة ثم تعود الى الاستلقاء مستأنفة انينها) : اه بطني ... رأسي ... قلبي ....

مزج (منظر مكبر لحسن وهو يدجل .)

حسن : سلامتك يا امي .. كيف تجدين نفسك اليوم ؟ في تقدم ان شاء الله ..

ام حسن : من اين التقدم .. من عطف امرأتك ! من حسن معاملتك !.. إيه الشكوى لله . .!

حسن : فاضلة تحبك كثيرا .. وتحب ان تخدمك دائماً ..

ام حسن : معلوم .. تحبني مثل وجع البطن ! .. راحت ايام المحبة وخدمة الكنة لحماتها .. كان هذا ايام الخير .. ايامي انا .. انا التي ما كنت انام حتى تنام حماتي ، ولا آكل الا من بقايا طعامها . ولا ادعها تعمل اي شيء . .

حسن : (في لهجة ضاحكة) مسكين والدي ... وماذا ابقيت له من وقتك ! .. لقد ظلموك اذن كثيرا . شيء مؤسف ...

ام حسن : (في استنكار) : ظلموني ! ... معاذ الله .. والله أنا كنت المد لله في البيت .. الجميع في خدمتي .. ياحسرتي على ايام ابي حسن ! .. فقدت كل سعادتي بعد موته .. لم يعد احد يهتم بي ... (تبكي) .. إهم ..إهم ..إهم..

حسن : (لا يتمالك قهقهة محبوسة) هذه سنه .. هوني عليك .. كلنا بخدمتك .

ام حسن : معلوم .. كلكم في خدمتي! .. هذا كلام بكلام ..

حسن : بل عمل بعمل ... قولي بالله هل ترين منا قصورا في خدمتك!

فاضلة : (تدخل وتشارك في الحديث) قولي يامرأة عمي : هل ترين قصورا ؟

ام حسن : قصور ؟ .. اتركوها لله .. تحسبون كل الخير بالطعام والفواكه ! .. وانتم تعرفون انها محرمة على فمي .. كيف استطيع الاكل وانا مريضة ... مريضة حتى الموت ! .. اه . رأسي بطني قلبي

فاضلة : اعرضها على الطبيب ياحسن .

حسن : كم مرة عرضناها !.. وكم طبيب رآها !.. وكلهم يقولون لا علة فيها غير الوهم .

أم حسن : (ترفع رأسها عن الوسادة في غضب) وهم !.. ماذا ؟

هؤلاء أعرف مني ببطني وقلبي ؟.. آه رأسي .. بطني . قلبي ..

فاضلة : لا بد من تغيير الطبيب .

أم حسن : معلوم .. الطبيب البارع لفاضلة .. أما أنا فهات يدك والحقني .. لو كان بعض مرضي في فاضلة لاجريت فيها عشرين عملية .. أما أنا فلا حق لي الا في الفواكه واللبن والرز بحليب ..

فاضلة : اسمع يا حسن .. هل قرأت في الجريدة خبر الطبيب العجيب .. الطبيب الالماني المتخصص باعادة الشباب الى العجائز !. (وتغمز اليه هامسة في أذنه) : دعني العب دوري ..

أم حسن : آه ... قلبي ... رأسي ..

حسن : قرأت ذلك .. وعرفت انه اتخذ عيادة في ساحة الحرية ..

فاضلة : يجب ان تحضره الوالدة .. فلعل الله ان يرد اليها شبابها على يديه !..

أم حسن : الله يرضى عليك يا فاضلة .. أنا قلت لحسن : فاضلة دائماً فيها خير ...

فاضلة : اطمئني يامرأة عمي .. كل شيء يستطيعه حسن سيفعله من أجلك ..

حسن : بكل تأكيد .. كلنا في خدمتك يا أمي .

أم حسن : متى يأتي الطبيب ؟.

فاضلة : الان (تهمس في اذن حسن) : انتظرني في البهو ..

حسن : (ينهض متأهباً للذهاب) توكلنا على الله ..

أم حسن : لعل الطبيب يستطيع اثارة رغبتي في الطعام .. منذ أيام عديدة لم آكل شيئاً يا ولدي أكاد أموت جوعاً ..

فاضلة : (ترفع بقية التفاحة عن الارض وهي تقول) : حقاً .. الصغار وحدهم يأكلون الفواكه واللبن . والرز بحليب .. انظر الخبثاء

كيف تمتلىء بطونهم حتى يلقوا التفاح على الارض ..

حسن : (وعلى وجهه ضحكة خفيفة) حقاً .. انهم خبثاء .. سآتي بالطبيب حالاً (ويخرج .) الكاميرا تتبعه الى البهو (.)

فاضلة : (تسوي فراش العجوز ، وتصلح شأن الغرفة ، وتفرغ وعاء الفاكهة في درج النضد .. اسمحي لي .. سأنظف الردهة والبهو قبل حضور الطبيب .

أم حسن : في أمان الله يا حبيبتي .. عجلي .. عجلي ..

مزج : (الكاميرا تتبعها الى البهو ، ومن هناك تمضي مع حسن الى غرفة النوم حيث تبدأ في تغيير ثيابها . ثم قطع سريع منظر مكبر .. أم حسن تنتهز فرصة خروجها فتفتح الدرج وتستخرج بعض الموز وتلتهمه .. ثم تمسح فمها وتستلقي .)

ام حسن : آه .. بطني .. رأسي .. قلبي ..

حسن : (يدخل .. كان توفيق الله كبيراً .. لقد اهتديت الى هاتف الطبيب بسرعة ، وطلبت اليه الحضور فوراً . وما أظنه يتأخر أكثر من بضع دقائق .. آمل ان تجدي لديه شفاء عاجلا .

أم حسن : آه .. آه .. ان شاء الله .. اذا ما تم ذلك فسيكون من حظكم يا ولدي ..

حسن : طبعاً .. بل من سعادتنا ..

(يرن الجرس فينهض حسن) حاضر .. أهلا بالحكيم .. ويخرج لاستقباله :

أم حسن : (تختلس النظر الى مدخل الباب . ثم تغمض عينيها حين يطل الطبيب مع ابنها) : آه .. آه ..

الطبيب : (منظر .. الطبيب في قميص وبنطلون ، وعلى رأسه قبعة من القش الناعم .. وقد حجب عينيه بنظارتين سوداوين .)

الطبيب : في لكنة متعددة يغير فيها مخارج الحروف مسباه كبير .. اهذا المريد ؟!..

حسن : نعم يا حكيم .. ارجو ان تفحصها بدقة .. لقد عجز الاطباء عن الاهتداء الى مرضها حتى الآن ..

الطبيب : يضع حقيبته ، وهي حقيبة اطفال مدرسية ، على النضد ، ثم يشمر عن ساعديه ويأخذ في فحص ام حسن مستعيناً بالسماعة ..) ، تنفسي .. تنفس طويل .. اسألي .. اسألي .. (يجس بطنها بدقة واهتمام) : أوه .. انت بيا كل كثير ؟..

حسن : كلا يا حكيم .. ان امي لا تأكل شيئاً .

الطبيب : انت جلتان .. انت ما بيارف .. هنا أكل كتير .. (وهو يدق على بطنها)

أم حسن : (في منظر مكبر تختلس النظر الى الطبيب والى حسن وهي تسعل) آه .. آه

الطبيب : اسكت هذا يدر جسمك جداً .. لا تتكلم .

ويجلس الطبيب متظاهراً بالتفكر ..)

حسن : (وهو يغالب نفسه كي لا يضحك) كيف رأيت يا حكيم بشرني .

الطبيب : (بعد نفخة طويلة) الختر كبير ... يجب أملية في البتن .. وأملية في الكلب .. وأملية في الرأس .. في الاسان ..

حسن : أوه ... شيء مخيف الا يكفي عملية واحدة ؟..

الطبيب : ابداً ... لا يكفي ...

حسن : وهل يحمل جسمها هذه العمليات الاربع ...؟

الطبيب : هذه مشكلة .. ربما تموت ..

حسن : اعوذ بالله .. وما العمل اذن ؟ دخيلك ياحكيم ..

ام حسن:(تقطع انينها لتصغي الى الحوار في جزع ظاهر وفي منظر مكبر).

الطبيب : لا بد من العمليات .. اذا بكيت على هذه الحال ...

حسن : ماذا تعني ؟ ...

الطبيب : انها تبكي كثير .. وتاكل كثير .. وتنـــام كثير .. وفي هذا درز كبير ..

حسن : هل هناك سبيل الى اشفائها بغير عملية .. ؟ ..

الطبيب : طباً .. طباً ..

حسن : كيف ؟ .. ارجوك ياحكيم أن توضح ..

الطبيب يجب ان تتكتع أن الكلام تماما ، ثم تاخذ التـآم في أوكاته المؤينة فكت ، ثم لا تبكي في الفراش .. بل تمشي قليـــلا .. وتلأب ماء الاولاد .. أليس إندكم اولاد ! ؟ ..

حسن : عندنا ثلاثة هم الآن في المدرسة .. وسيحضرون الساعة.. ولكن والدتي تنزعج جدا من الصغار ياحكيم ..

الطبيب: لا .. لايجوز ،انها بهاجة الى الدهك .. فتدهك ماالاولاد.. هذا دواء يكوي جسمها ويكتر لهمهـا ، ويهمر خدها ، ويرد لها شبابها .. بشرت ان تستامله سلاسه اشهر فكت ..

حسن : امي .. امي .. هل تسمعين ؟ ..

أم حسن : ماذا .. ؟ نعم ..!

حسن : الحكيم يوكد انك بحاجة الى عمليات اربع خطيرة جدا .. وهو مستعد لاجرائها الان اذا شئت ..

الطبيب : نأم .. نأم .. هالا ..

ام حسن : ولكن ســـاموت .. الم تسمع .. ساموت (في صوت باك)

الطبيب : ربما .. ربما ..

حسن : اذاً ماذا تختارين ؟ .

ام حسن : (تشير الى فمها بانها ستنقطع عن الكلام ..ثم تهمس) الطريقة الثانية

حسن : ولكنها تكلفك كثيرا .. تكلفك ان تنقطعي عن الصراخ .

ام حسن : افعل ..

حسن : وان لا تلزمي الفراش .

ام حسن : افعل ..

حسن : وان تاكلي مثلنا ومعنا ..

ام حسن : سأفعل ..

حسن : وتلاعبي الاولاد وتضاحكيهم

ام حسن : اين هم ؟ ألم يجيئوا بعد !..

الطبيب : ماذا تكول ! تريد الامليات ؟! .. حسن (ويستخرج من الحقيبة مقص خياطة وسكين مائدة .. والمنظر مكبر .)

ام حسن : (مشيره الى الطبيب في جزع) لا . لا . سأعمل كل ما وصفته لي .. سأسكت .. وامشي وألعب .

حسن : اذن نجرب ثلاثة اشهر .

ام حسن : وبعدها ....

حسن : ستعودين الى الشباب .. وستكونين صبية اكثر من فاضلة .. وسنبحث يومئذ عما يسعدك .

ام حسن : واين فاضلة ؟.. نادها يا ولدي حتى تسمع ..

حسن : انها تهيء الطعام .. ولعل الحكيم يتفضل بمشاركتنا الغـــداء ...

الطبيب : شكراً .. شكراً .. انا مشغول جداً .. خاتركم .. اخبرني كل يوم أن تتور الهـــال .. (وينهض مودعا ثم يخرج حسن وراءه حتى اذا غادرا الغرفة الى البهو سقطا على المقعـــد متهالكين من الضحك .. وفي سرعة تخلع فاضلة ثوب الطبيب لتدخل على حماتها) .

مزج (الكاميرا تتبعها الى البهو)

ام حسن : الحمد لله .. لقد عادت الى الحياة بعد ان كادت السكين تلعب في بطني ...!

مزج (الكاميرا تتبع الزوجين الى غرفة العجوز)

فاضـــلة : بشريني يا امرأة عمي .. هل وجدت خيراً ؟

ام حسن : (تشير الى فمها معلنة الصيام عن الكلام)

فاضـــلة : (لحسن) هل حـــدث شيء .. هل قلع لهـا الطبيب ضرســـاً !..

حسن : (يحاول اخفاء ضحكة) كلا .. ولكنه وصف لها الانقطاع عن الكلام الا عند الضرورة .. وفي هدوء بالغ ..

ام حســـن : (في صوت هامس) والمشي ... واللعب ...! .. ساعداني على النهوض .. اريد ان اجوب (منظر مكبر .. ياخذان بيديها فتنهض وتمشي بينهما ...)

فاضلة : رائع ... رائع .. لقد بدأت تستعيدين شبابك ...

ام حسن : (في اناة طويلة): وابن الصغار !.. لقد ابطئو جدا.. اريد أن العب ، وان اضحك .. وان آكل معكم ..

حسن : وسيكون بيتنا سعيدا بذلك ...

فاضله : بل ان بيتنا منذ اليوم لسعيد

(الكاميرا تتراجع في بطء فيبدو كل شيء في الغرفـــة بهيجا .. الســـرير والنضد .. والمقاعد الاربعة .. والاشخاص الثلاثة .. حتى يختفي تماما ..)

بين اليقظة والحلم

الزمن : عام ١٩٣٧

المنظر : بيت قروي صغير ، ذو باب خفيض ونافذة واحدة مطلة على حقول الزيتون .

الأثاث : طبق من القش المصبغ معلق في الجدار . خوان للجلوس عليه بساط قديم وبعض الوسائد . في وسط الغرفة مائدة صغيرة عادية .

سلوم : صاحب البيت يرتدي جلبابا أبيض وقد وضع بجانبه على الخوان طربوشه المعمم عليه منشفة صغيرة بيضاء .

(يطالع في جريدة ثم يخاطب نفسه) ... نعم ... ما المانع ان يقرأ الناس اسمي هنا .. يجب ان أفعل ... قليل من الشجاعة يا سلوم ... ليعرف الناس من أنت ...

الزوجة : (تدخل حاملة دجاجة تجسّ مبيضها) : ويلي أنت باق هنه !.. لمن تركت البقرة ؟ هالوريقة بدها تخرب بيتنا ... ما تتركها في الصبح والمسا ...

سلوم : طولي بالك .. بل رويداً ... هذه الوريقة ... أعني الجريدة ... ستشق لنا طريق جديدة .

الزوجة عال ... عال ... ما بقى ينقصني الا تحكي بالنحو .. كأن الأفندي معلم مدرسة !.

سلوم : طولي بالك .. بل رويداً .. بتشوفي .. أعني سترين كيف أصير معلم مدرسة .

الزوجة : (ترميه بالدجاجة فتقفز على الطربوش فيسقط على الارض ..) شو جنيت ؟ احكي بالعربي قرد !..

سلوم : لا بأس ... لا بأس ... قلت لك سأكون معلم مدرسة ... ولذلك أنا أتمرن على كلام النحو ... أفهمت ؟... قفي ... قفي ... خطرت لي فكرة ... (ينهض ويأخذها بيدها) : إجلسي هنه ... اسمعي ... أنا الآن معلم ... وأنت تلميذة ... لازم ترددي كلامي (يتخذ هيئة جدية ويمشي ذهاباً وجيئة يتناول قضيباً عن الارض ويشير الى الجدار المقابل ...) يا أولاد ... انظروا ... فتحوا عيونكم ... هكذا تكتب الألف (ويشير بعلامة الألف على الجدار) . يعني الألف مثل القضيب تماماً ... ثم ... باء ... (ويشير بها كذلك) والباء هكذا تماماً بدون الرأس طبعاً (يمد يديه على مداها ثم يطوي مرفقيه الى الاعلى) أما اذا تركنا الرأس على حاله فيكون الحرف هو التاء ... يعني ... الباء لها نقطة من تحت ... والتاء لها نقطتان من فوق .

الزوجة : (تتمتم في دهشة) ويلي ... شو صاير فيه !..

سلوم : (يخطو في بسالة فكره ... فيأتي بالطربوش ويجعله على رأسه ثم يعيد الشكل الأول) : أما الآن ... فيكون الحرف ثاء ... يعني ثلاث نقط من فوق ... فهمتم يا أولاد !... الله الله ... هذه طريقة جديدة ... اخترعتها لكم ...

الزوجة : (مدهوشة تشخص اليه بذهول فاغرة الفم ...) ويلي ... إيش هادا ...!

سلوم : (ويمشي فيلمح ساقيه فيذكر شيئاً) : هاه ... انظروا ... انظروا ... هذا لام الف ...يعني مثل هذا تماماً (يقعي قليلاً ويمد احدى ساقيه أفقياً ...)

طيب ... لنجرب الآن ... قم انت يا ولد ... ماذا ... مالك لا تقوم ؟...

الزوجة : (مذعورة) ويلي ... قرد ... جن الشيخ !...

سلوم : لا ... لا عفواً هذه تجربة ... (حركة من الخارج يدخل شابان قرويان معهما كتابان) ... أرأيت يا علي ... ! قلت لك سأكون معلم مدرسة ...

الشابان : عليكم السلام ..

سلوم : عليكم السلام ... أهلا وسهلا ..

الزوجة : (تخرج وهي تتمتم) جن الشيخ سلوم ... ويلي ... على شبابه!

(الشابان يجلسان والى جانبهما سلوم)

علي : (فاتحاً كتابه) ما نمت الليلة ... قبح الله الأعلال ... لقد تركت في صدري علة .

الشيخ سلوم : هذا شيء بسيط ... أنا تركت الاعلال ودرست غيره ...

سعيد : وأنا مثلك ... راجعت حروف الجر .. وأظنني فهمتها تماماً ...

الشيخ : لقد جربت أن أكتب ... وهذه مقالة سأرسلها الى الجريدة ...

علي : مقالة ؟... ايش موضوعها ؟

سلوم : رسالة عن القرية ... وعن إقبال شبابها على العلم ... اسمعوا .

(يخرج ورقة من جيبه ويقرأ) : لقد بدأ الاديب العالم الشيخ سلوم حركة تعليمية مباركة . وأقبل عليه الطلاب الراغبين في النحو .. « يقطع القراءة ويخاطبها » . ما رأيكم القول . الراغبين أم الراغبون ؟

علي : والله هذه ... قل « يدرسون النحو » وكفى ..

سلوم : فكرة عظيمة .. يجب ان نتجنب كل كلمة مبهمة من هذا النوع ... « ويواصل » . وقد تقدم الشابان الاديبين على فطوم وسعيد خرما تقدم كبير على يديه ...

سعيد : « مقاطعاً » . ما هذا ؟... تريد ان ترتفع على ظهورنا ؟.

سلوم : اف ... انسيت الاتفاق ؟ اما قلنا لازم نعمل شيء ... يلفت النظر .. لا بد من تقديم أحدنا موقتاً .. والخير للجميع يا أخي ...

علي : صحيح ... صحيح ... الاختلاف لا يجوز أبداً ...

سلوم : المقالة الثانية لازم نكتبها بالتعاون ... وستكون أول خطوة لتعريف الناس بـ ...

علي . بك طبعاً ... الشيخ العالم الاديب .. الشاعر ... الوطني ..

سلوم . لا لا لا يجوز الكلام في الوطنية الآن ... ألا ترى الفرنسيين يحاولون الغاء المعاهدة السورية نحن يهمنا المصلحة في الوقت الحاضر ... وسنستفيد من كل الظروف .

سعيد هذه حكمة ... لازم نكتفي الآن بالكلام عن العلم والادب فقط ...

علي . لكن هل تنشر لنا الجريدة ؟...

سلوم . المسألة بسيطة .. نقدم لها مع الرسالة الاولى اشتراكاتنا الثلاثة ... والمال حلال المشاكل ...

سعيد . صحيح ولكن من أين المال ؟...

سلوم . أنا فكرت بالموضوع ... أمامنا التسليف على الزيت .. يجب ان يبيع كل منا مقداراً يسلمه في الموسم ... وسأقوم أنا برحلة لجمع الزكاة في مختلف القرى ... وأعاهدكم أن أبذل كل ما أحصل عليه لغاياتنا المشتركة ...

علي . نعم الفكرة ...

سعيد . هنيئاً لك بهذه العمة ... لو كنت ابن شيخ مثلك لغزوت الجبل كله وراء المال ...

علي . هذه العمة المباركة ستوصلك الى الوظيفة يا شيخ سلوم ...

سلوم . وستوصلكم أنتم أيضاً ... اسمع ياسعيد . . وانت يا علي . . فكرة قديمة لازم تنفيذها ..

سعيد . هات لنرى ...

سلوم . مدير الناحية اليوم في القرية مع بعض الدرك .. لازم ندعوهم للغداء ... لقد حان الوقت للتخلص من وجاهة المختار .. وهذا أقصر طريق لذلك ...

علي . هذا عين الصواب .. علي أنا العرقات ...

سعيد . وعلي ...

سلوم . الفراريج ... طبعاً ... أما أنا فسأقدم البندورة والزيت .. والبيت .. اتفقنا ..

علي . لا تنس ان ترتدي ثوبك الفرنجي الجديد ... هل هل تمرنت عليه ؟.

سلوم . كن مطمئن .. لقد أتعبني الرسن . أعني الكرفتة ، ولكني اتقنت استعمالها .. « وينهضون جميعاً الى الخارج . »

منظر مكبر . « اولا الشيخ سلوم في الغرفة منفرداً يرتدي ثوبه الفرنجي الجديد ويحفظ خطبة صغيرة ثم مأدبة قروية على مصطبة خارج الغرفة .. يقف سلوم اثناءها ويلقي الخطبة المحفوظة » .

سلوم . سيدي المدير العظيم ، سادتي الدرك المحترمين ...

هذه حفلة متواضعة يقيمها الشباب لتكريمكم في هذه الدار المتواضعة وهي بعض ما تستحقه جهودكم الجبارة من تقدير ... ان عبقريتكم يا سيدي المدير فوق الظنون ... وكذلك بسالة أبطال الدرك شيء يعرفه الجميع .. لذلك نرى الشباب المثقفين يسخرون باقوال الدساسين ، الذين تشويه سمعتكم يريدون ، وهم باكرامكم يتظاهرون ...

أحد الدرك . « يهمس في أذن رفيقه » .. يقصد المختار .. فهمت ؟.

سلوم . وثقوا بأننا نحن الشباب نعرف كيف نرد هذه الدسائس ونضرب أصحابها بالمكانس ..

ويسرني ان تعتبروا هذا البيت لكم ، واننا دائما جنودكم ... (الحضور يصفقون ، والمدير يغمز بعينه للدرك)

المدير . ما شاء الله ! هذه مواهب جديدة تبشر بخير كثير ... انت خطيب بليغ يا شيخ سلوم ...

احد الدركيين . ومصقع كذلك ....

سلوم . اخجلتموني يا سادتي ... وصدقوني اني لم اجرب الخطابة قبل اليوم ... ولكن ...

المدير . ولكنها صدفة جميلة ان نكتشف هذه المقدرة ... لماذا لا تنشر آثارك ! من يدري فقد تبرز على كثير من الادباء !.

سلوم . عزمت على ذلك بعد الاتكال على الله ....

المدير . سأدلك على جريدة عظيمة في مصر ..

علي . (لرفيقه سعيد هامساً) اسمع ... اسمع ....مصر !. ...

المدير (يواصل حديثه) هذه الجريدة تفتش دائماً عن المواهب المجهولة والعبقريات المدفونة ...

احد الدرك . اكتب عنوانها يا شيخ سلوم ...

سلوم . (يخرج من جيبه بعض الورق ... ومن جيب اخرى قلم رصاص يبريه بسكين على المائدة) : اسمها اذا امرت ...

المدير . اكتب : مصر ـ القاهرة ـ شارع السنانير . نمرة ١٠٠ بناية الخنانيص . مجلة سلة المهملات ...

« سلوم يكتب ذلك بدقة .. »

المدير . عندي فكرة ... يا شيخ سلوم .. لماذا لا تجرب زيارة المستشار ؟... ومن يدري فقد ترجع بوظيفة طيبة !....

سلوم . والله فكرت ... لكن .

دركي . أتستحي ؟

سلوم . قليل ...

المدير . هذه فرصة لخدمة نفسك ، وخدمة قريتك ...

سلوم . (في عزم) سافعل ان شاء الله .. (قطع سريع .)

منظر مكبر : (في غرفة المستشار الفرنسي . سلوم في بذلته الفرنجية ، وعمته البيضاء فوقها المنشفة . يقبل يد المستشار)

سلوم . (للترجمان خبروا سعادة المستشار العظيم .. انني مستعد لكل خدمة .. (قطع)

مزج (منظر اجتماعه برفيقية القرويين ... في داره بالقرية)

سلوم (لرفيقه) ... كل شيء يجري بطريق النجاح .. لقد وجدت المستشار . يعرفني من الجريدة ... ارايتموها ! . لقد نشرت الرسالة كلها... انظروا (يخرجها من جيبه الداخلي ملفوفة بخرقة بيضاء .. فيفتحها بعناية » . حافظوا عليها .. سنحتاج اليها ...

(الشابان يتزاحمان على قراءتها .)

سلوم . والآن كما قلت لكم ... لازم انتقل للمدينة ... سأبيع الزيتونات حالا .. واستأجر بيت مناسب ... يليق بزيارة الموظفين والكبار .. سأحضر تلفون .. وكهرباء .. وموائد .. وصحون .. وسجاد وسيكون في البيت مرحاض على آخر موضه ... يا اخي بدنا نعيش ...

علي . هذه أشياء تكلف كثير .

سلوم . يا اخي انسيت الاتفاق ؟ .. انا علي كل هذا ... والباقي عليكم انتم ...

سعيد . يعني تريد أن نفهم الناس بانك صديق المستشار ...

سلوم . والقائمقام ، والدرك ، والحكام كلهم .. طبعا ...

علي . طيب واذا انكشفت الحقيقة ؟ ..

سلوم . هذا غير ممكن ... سترى كيف تمشي الامور على كيفك ...

منظر : سلوم في بيته الجديد في المدينة .. اثاث متوسط .. وتلفون في غرفة الاستقبال .. سعيد وعلي واقفان على الباب ، احدهما في ثوب افرنجي والآخر في قميص وسروال وعقال ... سلوم في وسط القاعة .. حوله عدد من القرويين بينهم بعض الشيوخ .. يدخل بعض القرويين واحد تلو الآخر يحملون هدايا .. دجاج واوان فيها لبن ، وفي بعضها سمن ، يسلمون هداياهم الى الشابين ، ويدخلون في وقار ليسلموا على سلوم مقبلين يده فيدعوا لهم دون ان يتحرك من مكانه .. ويجلسون ..)

احد الشيوخ ..(مشيرا الى شخص بجانبه) هذا احمد الذي كتب مأمور الاحراج فيه ضبط المخالفة .. هو بحاجة لنظركم ..

سلوم . (يخرج من جيبه مفكرة يكتب فيها) . اسمك يابني .. احمد رزوق من قرية ... ! طيب كن مبسوط ... سأراجع القائمقام ...

ينسحب احمد مع الشيخ مقبلين يد سلوم

رجل آخر . ياسيدي .. قضيتنا تعرفها ... موظفو الريجي يطالبوننا بالغرامة ، وما عندنا شيء والله غير الذي قدمناه لحضرتكم ....

سلوم . كتبت اسمك .. ما عليك .. سأخلصك مهما كلفتني قضيتك من المال .. انت تعرف يا أخ صطوف كم ندفع من الاموال في سبيلكم ... لكن لا بأس ..

الرجل . الله يديمكم لنا ياسيدي .. من لنا غيركم ...

(ينسحب مقبلا يده) (قطع سريع .)

مزج : (غرفة اخرى من المنزل مغلقة الباب .. سعيد يحرك جرسا كهربائيا متصلا بالتلفون فيرن ..)

سلوم . (يرفع سماعة التلفون ..) . هالو .. هالو .. من حضرتك ؟ ..

دولة رئيس الوزراء ! .. أهـــلا . سلامات .. كيف صحتكم يا اخي .. مشتاقين .. الله يحفظكم .. ممنون كثير ... لازم تشرفونا انتم .. ولو مرة واحدة ياخي ...طيب امركم ... ســلموا لنا بالله على اخواننا الوزراء .. (ويضع السماعة)

الحضور : (يتهامسون فيما بينهم معجبين ...)

سـلوم : (مرة ثانيـة يرن الجرس .. فيتكلم) . هالو .. من حضرتك ... سعادة القائمقام ؟ ... سلامات ياخي ... انتظر تشـريفكم على الغداء يوم السبت ... ؟ تريد ان اتغدى عندك ؟ امرك ياسـيدي .. لا فرق بيننا .. بالله يا اخي هـذه قضية ... (يقطع الـكلام ويلتفت الى الحضور اسمك بالله ...

الرجل : عبدك مخلوف ابراهيم ياسيدي ... (ناهضا احتراما)

سلوم : (يواصل حديثه) . نعم . نعم .. قضية السيد مخلوف ابراهيم ... لا تنسوها الله يحفظكم .. ممنون جدا .. مع السلامة ...

(يضع السماعة ، ولكن الجرس يرن حالا)

سلوم : نعم .. من حضرتكم ؟؟ . مدير المال ؟ اهلا .. صباح النور ياسيدي .. كيف صحتكم يا اخي ... مشتاقين والله .. كن مبسوط .. وحياتك ما نسـيت قضيتك .. البارحة ترجيت وزير المـالية من اجلـكم ... وغدا ان شاء الله سأتصل برئيس الوزراء ... تريـد مقابلتي ؟ طيب انا قادم اليك ...

احد الحضور : (اثناء المـكالمة يهمس لرفاقه) . اسمعوا ... حق مدير المال يترجاه ! ... سبحان المعطي ياخي

سـلوم : (ينهض) بالاذن من الاخوان ... انا مضطر للذهاب الى السراي (الجميـع ينهضون) ..

سلوم : (مخاطبا الواقف على الباب) ياعـلي ... لا تنس غـداء الاخوان .. لازم تعرف واجباتك ... فهمت ! .

علي : امرك يا سيدي ..

احد الرجال . اسمح لنا يا سيدي ... ما جوعانين والله ...

سلوم : ما بصير ابدا ... لا ورحمة والدي ...

الجميع : امركم يا سيدي ... قدس الله روح الوالد ..

علي : تفضلوا للغرفة الثانية ...

مزج: (سلوم ينسل الى غرفة اخرى مغلقا وراءه الباب ... يتمشى في اعجاب . مخاطبا نفسه): عال . عال . يا سلوم بك كل شيء على مايرام ! .. وفوق المرام بس هالملعونان سعيد وعلي !...

(سعيد وعلي يدخلان ويغلقان وراءهما الباب)

سلوم: هل اكلوا ...؟

علي : وانصرفوا ... اقعد لنبحث موضوعنا ....

سلوم: اي موضوع ؟

علي : موضوع الخدمة ... رح ياعلي وتعال يا سعيد ... والوظيفة متى تتحقق ... ؟

سلوم : العجلة من الشيطان ياعلي ... كل شيء مرهون بوقته ؟

سعيد : ومتى يحين هذا الوقت ؟

سلوم : قريبا ... ورحمة ابي لقد حدثت المستشار بشأنكم . واخذت وعد ... ولكن الحالة توشك ان تتغير كما ترون .. ويجب ان ننتظر النهاية .

علي : اي حالة تقصد ؟

سلوم: حالة الفرنسيين .. يظهر انهم سيخرجون ... وسيكون الحكم للوطنيين ...

علي : نحن لا يهما السياسة ... يهمنا الوظيفة ..

سعيد: هي وظيفة جابي صغير ... فما علاقتها بالسياسة ! ..

سلوم : يا اخي ! .. انتم لا تفهمون السياسة .. نحن الزعماء نقدر الظروف والامور على حقيقتها ...

علي وسعيد : زعماء .. ما شاء الله !..

علي : علينا كمان يا سلوم !..

سلوم : عفوا ... يظهر انكم لا تزالون أغبياء ، كأنكم لم تخرجوا من القرية بعد ... ومع ذلك ساتصل الآن تلفونيا بمدير المال .. وساطلب الاسراع بتوظيفكم حالاً ... (يحاول الخروج)

سعيد : (يمسك بثوب سلوم) قف .. شوى .. يظهر انك نسيت انني انا مدير المال والقائمقام والوزير و .. في تلفونك ؟ .

علي : نحن نريد عمل صحيح . لا تلفونات وهمية ...

سلوم : حسن .. حسن .. سأريكم بنفسكم كيف اقابل مدير المال واطلب منه .. (يخرج)

سعيد : (لعلي) يا أخي ... بالحقيقة صار له شأن في الحكومة ... ألم تره أمس يخلو بحاكم الصلح ويشرب عنده القوة .؟

علي : صحيح والله ... صحيح .

مزج : سلوم من الخارج يتجسس عليهم . ثم يعود الى الغرفة وبيده صحيفة)

سلوم . يا شباب . . . نسيت ان اقول لكم . . . انني سأذهب الى اميركا ...

الشابان : اميركا !!.

سلوم : نعم انتم لا تفهمون الامور مثلنا نحن ...

الشابان : الزعماء .. طبعاً !

سلوم : لقد ثبت ان الفرنسيين خارجون من البلاد حتما .. انظروا (ويعطيها الجريدة) ولذلك سأبرق من الآن الى الهيئات

الوطنية بتأييد حركاتهـــم ضد الفرنسيين قبل ان يسبقنا أحـد من هذه البقعة .

علي : هذا ضروري ولكن ما شأن اميركا ؟..

سلوم : سأذهب الى اميركا باســـم الدعاية للقضية الوطنية بـين المهاجرين .. وسـأحمل توصية من رجال الحركـــة الوطنية لهـذه الغاية .. ثم ..

سعيد : ثم ماذا ..؟

سلوم : ثم هناك مال كثير .. وبعد ذلك .. (ويهمس في اذنهما) النيـابة ..

الشابان : النيابة !؟.

سلوم : اي نعم .. النيابة .. فالانتخابات ستكون قريبة حتما ..

علي : هذا جنون لا شك فيه ...

سلوم : جنون في نظرك .. أما انا .. انا العاقل وحـــدي .. وسأكون نائباً رغم انفك وعلى اكتاف الآلاف امثالك من القرويين المجـانين ..

سعيد : لقد اصبحنـا في زمن العجائب .. كل شيء ممكن يا أخي (لعلي) . الراعي الذي يصير زعيما يستطيع ان يصير نائباً .

سلوم : نحن ..

علي : الزعماء .

سلوم : رأس مالنا البقريات فقط ..

سعيد : والمال كيف تؤمنه !..

سلوم : هذا بسيط .. سأقوم بحملة اكتتاب لبناء مستشفى ومدرسـة في الجبل .. وستنهال عليّ اموال المهاجرين انهيالا ..

اما انتم فعليكم المحافظة على البيت واستقبال الوافدين من رجال القرى .. وسأدع لكم ان تتصرفوا بكل ما يزيد من الهدايا عن حاجة البيت . . وسيكون

نصيبكم كبيراً من غنائم اميركا ..

(يهم سلوم بالخروج)

سعيد : ولكن الوظيفة هل اهملتها ؟..

سلوم : امرك غريب يا سعيد؟. أتفضل وظيفة صغيرة على هذا المستقبل الكبير؟..

علي : انا شخصياً موافق على رأي سلوم .. عفواً الزعيم سلوم .. الظروف نفسها تقودنا الى اشياء اعظم .. كان كل مطمع سلوم معلم مدرسة واليوم لا يرضى إلا بالنيابة ..

سلوم : معلوم .. مطامع الرجال مثل بذرة البلوط .. اذا اخصبت اخرجت شجرة عظيمة ..

علي : واذا ضعفت ؟..

سلوم : لا تتجاوز غرسة هزيلة مثل وظيفة المعلم والجابي ...

(يهم بالخروج ثم يعود) . اسمع يا علي انا اصبحت انزعج من اسم سلوم. هذا شيء قديم لا علاقة لنا به اليوم .

سعيد : صحيح..لازم تغييره..ليكن اسمك من الآن فصاعداً . الافندي ..

سلوم : واذا كان لا بد من الاسم فليكن سليم ..

علي : حسن .. الافندي سليم ..

الفصل الثاني

منظر : (حفلة كبيرة في احدى مدن البرازيل ، جمهور من الجالية السورية يملأ القاعة متجهاً الى المنبر . فوقه الاعلام البرازيلية والسورية)

بعض الجمهور . أين هو ... أين الاستاذ سليم !

أحدهم . لم يشرف بعد ... باق خمس دقائق

مزج . ـ فندق العاصمة ـ ردهة الاستقبال .. فيها عدد من رجال الجالية ينتظرون خروج سلوم من الحمام .

داخل الحمام .. سلوم يرتدي المناشف ... بيده ورقة يستظهر ما فيها ، يتمشى ، ثم يقف واضعاً يديه على منضدة هناك ، ممثلاً حركات الخطيب يتمرن على اخراج بعض المقاطع الحماسية .

سلوم : الوطنية ، الشهداء ، العروبة ، فلسطين ، النضال ، الاستقلال ، الجبل الأشم ، جنود الوطن ، الاستعمار ... (قطع سريع ..)

مزج : (قاعة الاحتفال نفسها ، يدخل سلوم مع ثلة من رجال الجالية .. الحضور يقفون .. مصفقين .. يأخذ مجلسه في مقدمة الجمهور ..)

عريف الحفلة : (يتقدم الى المنبر) سادتي واخواني .. نبدأ هذه الحفلة التكريمية بالنشيد السوري .. (النشيد يعزف من اسطوانة . الجميع يقفون حتى النهاية حاسري الرؤوس)

العريف : (يستأنف الكلام) . انها لفرصة سعيدة ان نجتمع اليوم للحفاوة برسول كريم من ربوع سورية الحبيبة ، وليس أعز على جاليتنا الكريمة المجاهدة في هذه الديار المضيافة ، من ان تستقبل أخاً كريماً يحمل اليها انباء العهد الجديد الذي غمر بنوره أصقاع الوطن الأم .

قد يكون رسولنا اليوم ممن لم نسمع به من قبل ، ولكن رسائل الرجال الوطنيين الموثوقين في الوطن تكشف لنا في شخصه النبيل عن مزايا رفيعة تستحق منا كل اهتمام واحترام ... وحسبه فضلاً انه من الشباب الذين حملوا لواء الدعوة للقضية الوطنية ايام المحنة .. وقد قرأتم مقالات بعض الصحف السورية في تعريفه ، واذا كانت الصحف هي لسان الرأي العام فلا شك ان المحتفى به من خيار المناضلين في حقل الجهاد الوطني ...

سلوم (في منظر مكبر) : (من مكانه مخاطباً الخطيب) . وقد نسيت الصحف اشياء كثيرة ... منها السجون والمنافي التي حملناها راضين في سبيل القضية ... عفواً اذا جهرت بذلك فأنه تصحيح لا بد منه لغلط مطبعي .

الخطيب : (مواصلا حديثه) واني باسمي وباسم الجالية الكريمة ارحب بالمحتفى به أحر ترحيب وأدعو اخواني من الذين قاطعوا هذه الحفلة الى التعاون على تحقيق رسالته ، التي لا هدف من ورائها سوى خدمة بقعة عزيزة من الوطن الذي ندين له بوجودنا ... (تصفيق ..) والآن أدع المنبر لضيفنا الكريم فليتفضل مشكوراً .

سلوم : (يرقى المنبر ... وهناك يبسط يديه على المنضد ... بعد ان يتجرع كأس ماء ...) :

سلوم : يسرني بهذه المناسبة السعيدة ان احمل الى افراد جاليتكم المجيدة تحيات الوطن ، ورجاله الابرار وشبابه الاخيار من اخواني الاطهار .

ان العهد الجديد الذي دفعت بلادكم ثمنه من دماء الشهداء ... وجثث الابرار من الرجال والنساء ، يتطلب التعاون الشامل بين سائر الابناء سواء المقيمين

في ربوع الفيحاء ، او المهاجرين في البرازيل الشماء .. وليس انفع للوطن في نهضتنا الجديدة ، وحريته العتيدة ، من انشاء المدارس في كل مكان ، وبناء المستشفيات لمعالجة المرضى من الرجال والنسوان ... وان اخوانكم في الجبل الأشم .. ينتظرون منكم ثورة الشمم .. واثقين بما عرفوه فيكم من الغيرة والكرم ... (تصفيق ... ثم قطع سريع .)

منظر : يدور بعض الافراد على المجتمعين واحداً واحداً يتناولون تبرعاتهم ، ويكتبون اسماء المتبرعين ومقدار تبرعاتهم ...

ومزج : سلوم في غرفته من الفندق يطالع بعض الصحف العربية الصادرة في المهجر ، وفيها انباء الحفلات المقامة له ، وبعض مقاطع من خطبه التي يكثر فيها ذكر الوطن والوطنية ، والعروبة والاستقلال . ثم قوائم التبرعات ..

سلوم : (يقرأ مجموع الارقام) خمسة عشر الف دولار ...؟ تساوي أربعين الف ليرة سورية !... شيء عظيم !.. يجب ان اكتفي بالمبلغ قبل ان يحدث ما لم يكن في الحسبان .. ان رسائل الاعداء تكاد تشق طريقي .. يا لهم من خبثاء حساد !.. يريدون ان يقطعوا رزقي !.. قطع الله رقابهم ...

(يستل احدى الرسائل من جيبه .. يقرأ فيها) : . حذار من هذا النصاب الخبيث ؟ . . انه يريد ان يغرر بأموالكم كما غرر ببسطاء القرويين .. وليس له والله في الوطنية سوى بعض البرقيات لم يكتبها الا بعد ان قطع امله ببقاء الفرنسيين ...

(يمزق الورقة في غضب .. ثم يعلكها .. ويبصقها من النافذة ..) قبح الله هؤلاء الحاقدين ! .. لقد اوشكوا ان يهدوا عزيمتي .. ويذهبوا بعقلي .. وما احسن حظي عندما وصلت هذه الرسالة الى ابن عمي ! ..

منظر . (في المطار .. سلوم يحيط به جمهرة من افراد الجالية .. احدهم يقدم اليه ورقة ..)

الرجل . هذه حوالة بمبلغ ستة عشر الف دولار كدفعة اولى لتأسيس

المستشفى والمدرسة في القرية .. وسنتبعه بدفعات اخرى حتى يتم المشروع ..

سلوم : يأخذ الحوالة ويضعها ضمن محفظته) : سنقدم اليكم قريبا ان شاء الله رسوم الأبنية .. وسندشنها بوجود وفد منكم .. وسنتوجها باسم الجالية تخليدا لجهودها المبرورة ...

(الرجل يقدم اليه وصلا بالقيمة يوقعه سلوم مرتجف اليد ..)

(الحضور يدفعون اليه حوالات اخرى أمانات الى ذويهم)

(وكل منهم يذكر اسم المرسل اليه وسلوم يتناول الحوالات ويكتب الاسماء . في مفكرته ومبلغ كل منها .. ثم الطائرة تتحرك وفيها سلوم) (قطع .)

منظر : (سلوم في بيروت . يدور على دور الصحف يعرفها بنفسه وانه قادم من البرازيل بعد ان قام بجولة للدعاية الوطنية ، ويقدم الى اصحابها بعض نسخ من صحف المهجر التي كتبت عنه ..)

(سلوم يشتري سيارة من بيروت ... ثم هو في مركز البريد يبرق الى اصدقائه بوصوله ...)

(وفود قرويين يسلمون عليه في بيروت ويعود معهم الى القرية ..)

(سلوم في بيته . يرتب الرسائل الى بعض الصحف السورية وفيها حوالات ، كل منها بمئة ليرة سورية)

(منظر وفود القرى تأتي بهداياها من الاسمان والالبان والدجاج والحيوانات ، تدخل للسلام عليه .. احد القرويين . (يقف امام سلوم ينشد قصيدة في تهنئته بالعودة ...) .

الف اهلا ومرحبا بالمهام ... ذي المعالي والسيد القمقام
من تعالى بالاوطان الى السماء ... ثم طال النجوم بالزحام
المجاهد النبيل ذو العزم والبأ ... س ورب الاباء والأقدام

(بفتح الهمزتين)

سلوم : أعد يا أخي أعد .. هذا بيت جميل . المجاهـــد النبيل ذو العزم والبأس ورب الأباء والأقدام . .

(بكسر المزتين)

القروي : المجاهد ..... الأيام والأقدام

من عـــلا مقامه فجأة كالبدر خـــلال الغيوم في الظلام

هـــذا هو الليث ياقوم فارفعوه كي تشاهدوه فوق الآكام

هو قائدنا الى المجـــد وليس غـــيره من الزّعـام ...

عليك منـا تحيـــة كالاعاصير تهدى مع الف ســـلام

(تصفيق من الحضور)

احد الشيوخ : والله يافندي .. هالقصيـدة من دهن باله .. عملها وحده الليلة .. وكان يطحر فيها مثل الحامل ... حتى مطلع الفجر ..!

سلوم : ما شاء الله ! ... هو ابنك ! ..

الشيخ : اي ونعم ..

سـلوم : أهنئك بهذا الشاب . لا شك له مستقبل عظيم . (يلتفت الى الشاب يتناول منه الورقة) انت يابني امرؤ القيس ... وسـأعمل على تعيينك بوظيفة مناسبة ان شاء الله ...

الشيـخ : الله يحفظك ياسيدنا .. من لنـا غيرك ؟ ...

احد الحضور : ياسيدنا الافندي .. والله تيتمنا بعدك . وما عاد لنـا من يهتم فينا .

سلوم : مونتو برغادو ؟ .. هذه ثقة افتخر بها وسـأضع كل جهودي ونفوذي تحت خدمتكم .. وسـأبدأ عملي بعـد رجوعي من زيارة اصدقائي الوزراء .. يهمني ان تعرفوا ان عندي مشاريع كثيرة لاصلاح الجبـــل ولذلك رضيت ان اتقدم للانتخابات القريبة لتمثيلكم في المجلس ..

(يغشاهم صمت)

علي : (واقفا على الباب) واجب على الجميع ان يشكروك ياسيدنا لأنك تنازلت لتحقيق هذه الرغبة .. (يلتفت الى الحضور) والله قدامي البارحة كانوا الافندية يترجونه لهذه الغاية وكان يرفض ...

الشيخ : لنا الشرف بهذا الفضل ونحن كلنا تحت امر الافندي ..

سلوم : مونتو برغادو .. انا عارف انكم هكذا تريدون ... ولذلك قبلت هذه المهمة .. حتى اخلصكم من الاقطاعيين .. الذين مصوا دمكم .. النيابة ياشيخ ابراهيم مهمة متعبة .. هي خدمة للشعب لاسيادة مثل ما تعرفون ، وانا رضيت بها حتى اتمكن من شق الطرقات لكل هذه القرى .. ثم لاعفائكم من الضرائب لأن الفلاح لازم يأخذ من الحكومة لا يعطي .. كما هو الحال في البرازيل والارغواي والتشيلي... ثم لاعطائكم القروض اللازمة من اجل تشجير الاراضي ..

منظر مكبر : (وتاخذه الحماسة فينهض ليقول بلهجة خطابية) وسوف اقول للمجلس وللحكومة ويجب ان تفتحي المدارس المختلفة في كل قرية ، ويجب ان تنشىء فرعا للجامعة في الجبل ، حتى يتمكن كل طالب ان يدرس الطب والحقوق وهو في قريته بدل ان يذهب الى دمشق ... وسأطلب من الدولة ان تجعل زراعة التبغ حرة ، وتعين كل شاب يقرأ ويكتب في الوظائف المناسبة .. هذه بعض مشاريعي .. وصدقوا انني سأترك النيابة فوراً اذا لم استطيع تحقيقها . (تصفيق حار ..)

(حركة من الخارج)

علي : القائمقام .. القائمقام .. شرف القائمقام !..

(الجميع يقفون ...)

سلوم : (يجلس مكانه .. ويجيب ببرود) اهلا وسهلا .. قل له يشرف ..

(القائمقام يدخل ومعه بعض الموظفين)

سلوم : (ينهض بسرعة واهتمام . متقدما من القائمقام) اهلا.. اهلا .. ما اشد شوقي لهذا الوجه الجميل النبيل !..

(يعانق ويقبل وجنتيه ويأخذ بيده الى مقعده .. ثم يسلم على البقية بحرارة فائقة)

القائمقام : الحمد لله على السلامة ..

سلوم : سلمكم الله .. والله ورحمة ابي كنا الآن في حديثكم .. حضرة الاخوان كانوا يتحدثون بفضلكم وعطفكم ورحمتكم .. اسمحوا لي ان اهنىء الحكومة العزيزة بانتقائها امثالكم من الوطنيين الذين يعرفون واجبهم .

القائمقام : اشكرك يا سيد سلوم ..

(سلوم يجفل لهذه الكلمة ثم يتماسك .)

لا فضل لنا في خدمة الشعب . هذا بعض واجب الموظف ..

سلوم : وهذا الشعور بالواجب هو الفضل الاكبر ياسيدي .. وأرى من واجبي ان أبدأ أول حديث لي مع دولة رئيس الوزراء عن شخصكم لأهنئه على حكمة حكومته باختياركم ...

القائمقام : مع شكري لهذه المواطف . ارجو الا تزعج نفسك بذلك . (قطع .)

منظر : (سلوم في غرفة المطبخ . زوجته منهمكة في اعداد الطعام .

وقد تبدلت هيئتها القديمة . واصلحت من شأنها . يظهر عليها أثر البغتة من دخوله)

الزوجة : يا شيخ علي البحرى ؟. (واضعة يدها على صدرها)

سلوم : (في استكبار ويداه خلف ظهره) مونتو برغادو .. يعني أنا بخوّف !..

الزوجة : لا .. لا .. ما تنبهت لدخولك ..

سلوم : كيل دياولو !.. أما انت فشيء مخيف جداً ... انت لازم تبقى هنا في المطبخ بس ...

الزوجة : حرام عليك يا سلوم ...

سلوم : سلوم !.. من سلوم ؟؟ سلوم في عينك (ينهال عليها ضرباً) حتى اليوم لم تتعلمي : سليم أفندي ..؟

الزوجـــة : نعم . نعم . نسيت ... افندي ... افندي ... سيدنا الافندي ...

سلوم : فيلا لا بوتا ؟.. انتبهي .. حذار ترفعي صوتك .. القـائمقام بأمري .. بلحظة واحدة تكوني في السجن .

الزوجة : امرك .. امرك يا سيدنا الافندي ...

سلوم : انت من ... من انت ؟؟.

الزوجة : أنا مثلما تريد ..

سلوم : انت خادمة ... خادمة وبس ...

الزوجة : خادمة .. خادمة وبس ...

سلوم : أما زوجة الافندي فهي ذاهبة في نزهة .. فهمت !.. هكذا يجب ان تقولي لمن يسألك ...

الزوجة : امرك .. يا سيدنا الافندي ...

سلوم : وسأتزوج قريباً صبية لائقة .. بهذا البيت .. وبهـــذا الشباب .. (مشيراً إلى نفسه ..) يكفي ما حملت منك في الماضي .. كيل دياولو ...!

(يخرج معضباً .. والزوجة تتبعه بنظراتها ضاربة صدرها) .

الزوجة : مطول بها الكذب ؟.. الله يشمت قلبي بآخرتك .. الله يبهدل قدرك ؟..

منظر : (عمليات الانتخاب في مراكزها المختلفة ..)

سلوم في دار احد كبار المدينة حيث أجتمع عدد من الوجهاء .)

سلوم : عفواً يا سيدي الافندي .. والله ما قدمت نفسي لهذه الدورة الا بدافع الرغبة في خدمة اوامركم . واقول لكم انكم تستطيعون ان تكتبوا عليّ العهد الذي تريدونه لأكون مطالباً أمامكم .. ولا أكلفكم درهما واحداً بل أضع تحت تصرفكم تكاليف الانتخاب .

كبير الحضور : أقول لك بصراحة يا سيد سلوم .. نحن قررنا تأييدك لا حباً بك بل نكاية بخصمنا ...

سلوم : اشكركم ياسيدي .. وانتم تعرفون ان خصمكم هو خصمي تماما .. وليس لي غرض سوى كسر نفوذه فقط ...

الكبير : والقائمقام .. انت تعرف ما يلحقه من الضرر بمصالحنا في نصرته للفلاحين ودفاعه عنهم ونشره المدارس بينهم ...

سلوم : انا اعرف سيئاته كلها .. واعرف انه يريد تحطيم نفوذ الوجهاء . لذلك سيكون اول عمل لي هو السعي لنقله .. ولكن المصلحة تقضي اليوم بالتعاون معه ..

الكبير : اتفقنا ... (ويلتفت الى الحضور) عليكم ان تخرجوا الى العمل في المدينة والقرى . واعلنوا ان مرشحنا هو سلوم ...

(ينهضون ..)

منظر : (عمليات الانتخاب .. سلوم يتنقل بسيارته بين المراكز ...

التطبيقات والهمسات في كل مكان ..)

(منظر الفرز . ثم اعلان النتيجة بفوز سلوم بزيادة صوت واحد على منافسه . سلوم يذهب الى البيت وينطرح في فراشه مخاطبا نفسه) : نيابة بثلاثين الف ليرة !! .. شيء كثير ... ولكن لا بأس .. لا بد من تعويضها ..) .

(ويغلبه النوم فيرتفع غطيطه) .

الفصل الثالث

منظر : (البرلمان السوري . النواب في مقاعدهم .. الرئيس على المنصة ..)

النائب سلوم : (واقفا مكانه يخطب) .. ويجب ان لا تهمل الحكومة شأن مهاجرينا الكرام في البرازيل خاصة ... انهم شطرنا المغترب ..

احد النواب (يهمس لرفيقه) : وهذا استغلال آخر .. يريد سلوم ان يسترضي الذين اعطوه اموالهم ليصرفهم عن مطالبته بالمستشفى والا ...

نائب آخر : ولذلك يريد ان يظهر بمظهر البطل .. المناضل عن حقوق المغتربين ..

نائب ثالث : كلمة حق ..

نائب رابع : يراد بها باطل ...

سلوم : (يواصل كلامه بلهجته الخطابية) . ويجب ان نتذكر ان الوزارة في شكلها الحاضر لا تمثل كتل المجلس .. وهذا ضعف .. مع احترامي لحضرات الوزراء الذين اثق بكفاءتهم كل الثقة ...

نائب : (يهمس لرفيقه) استجداء مستور .

نائب آخر : يريد وزارة ...

نائب ثالث : على اكتاف بعض النواب ...

سلوم : وهناك أشياء لا يجوز السكوت عنها ..

الرئيس . (ينبه سلوم) ليذكر حضرة النائب ان وقته قـــد انتهى .. فهناك زملاء طلبوا الكلام .

سلوم . عفواً يا سيدي .. هناك اشياء هامة .

الرئيس . متى تقولها . ؟.

الآن .. اذا امرتم .. قد يظن بعض زملائي انني ارغب في الاشتراك بالحكم ...

(اصوات من النواب) : لا لا .. انت اكبر من ذلك !؟..

سلوم : انا يهمني فقط قوة الوزارة وهيبة الحكم ... ولا فرق بين الاشخاص ..

(نواب ينسحبون تباعا وملا ..) (قطع ..)

مزج : (منظر النواب . خارج القاعة .. فترة راحة .. سلوم يلاحق بعض الصحفيين ..)

(لاحد الصحفيين) : انت زعلان مني !؟.. انا مقصـــر .. مشاغلي كثيرة قاتلها الله . هي تجعلني اقصر مع اصحابي .. أرجو أن تتكرموا باجابة دعوتي الى الغداء ..

(سلوم متوجهاً نحو سيارته على مدخل البرلمان . علي فاتحاً البـاب لسلوم (ومعه بعض الصحفيين) .

(في مطعم فخم .. سلوم والصحفيون على المائدة ..)

سلوم : ... أما الوزارة فقد عرضت علي .. ولكن لم أجـد من المصلحة الاشتراك فيها اليوم .. نحن لا يهمنا المناصب .. يهمنا جو العمل يا أخي .. الشعب المسكين في حاجة الى من يدافع عنـــه . الضرائب اثقلته . والموظفين كذلك بحاجة الى ترفيه .. والصحافة يجب ان تنال حقها بصفتها السلطة الرابعة ..

صحفي . سأكتب عن افكارك الطيبة هذه ..

صحفي آخر . وسأبين للناس زهدك بالمناصب ..

سلوم . صدقني ما كنت اريد التظاهر بشيء من هذا . ولكن الانسان بحاجة لشرح اعماله احياناً ولا سيما اذا كان من ممثلي الشعب ..

(ينهضون الى المغسلة . سلوم بحركة بارعة يدس في جيب كل منهم ورقة مالية ..)

على المسرح . (سلوم في غرفته بالفندق يطالع بعض الصحف متهللاً) .

سلوم . (يقرأ) .. ويتردد اسم الاستاذ سليم بين المرشحين للوزارة في هذه المناسبة .. (ويقرأ في صحيفة أخرى) .. وهنا وقف الاستاذ سليم يسرد ملاحظاته القيمة على بيان الوزارة ...

سلوم . (لنفسه) هذا نصف الطريق الى لوزارة .. حقاً ان الجرائد هي التي تفعل العجائب ...؟

الاستاذ سليم .. الاستاذ سليم .. حقاً هذا لقب جديد احسن من النيابة .. وهو باب الوزارة .. إحم .. إحم .. إحم ...!

(يطرق الباب خفيفاً)

سلوم . (يسوى جلسته) . ادخل ..

(يدخل الخادم . وينحني مقدما بطاقة لسلوم ثم يخرج)

سلوم . (يفتح الغلاف . ويقرأ البطاقة) ..

ان جمعية الهلال الاحمر السوري تدعوكم لحضور حفلتها الساهرة ...

سلوم . وهذه مناسبة أخرى يجب ان نستفيد منها ...

(جرس التلفون يرن .. يأخذ السماعة) . هالو .. هالو .. من ؟ . ومرحبا . طيب .. اوه ؟ .. انت متأكد من ذلك ؟ . لماذا ياأخي هذه

الحملة ؟ ماذنبي ؟ .. طيب فهمت .. اشكرك جدا ياخي .. عفوا نسيت ان اقول لك . الا تحضر حفلة الهلال الاحمر ؟ اذن انتظرك في السادسة . مع السلامة ... الى اللقاء ..

سلوم . (لنفسه) هذه محاولة جديدة ستكلفني مئة ليرة سورية .. لا بأس .. (ينظر في الساعة) .. الساعة الخامسة .. يجب ان اذهب حالا الى مطبعة الجريدة .. لمنع الخبر من الانتشار ..

(يهم بالخروج ، يسمع طرق الباب . يعود لمجلسه) . ادخل ..

علي . (يدخل ثم يغلق الباب وراءه . ويقف ساكنا قليلا ...)

سلوم . ماذا تريد ؟ ..

علي . اريد .. اريد ان اذكرك بالوعود ...

سلوم . اف !! هذه وقاحة ... من اجل هذا جئت تزعجني في هذه الخلوة .. الا تعرف اني مشغول !

علي . عمتى تذكرنا ! .. امالنا حق فى مشاغلك ؟ .. لقدحاول سعيد الانتحار يوم امس تخلصا من الانتظار .. وانا ...

سلوم . وانت الم تنتحر بعد ؟ ..

علي . لا .. لأنني انتظر الوظيفة .. والا فعندي طريق آخر ..

سلوم . (يتغير وينهض نحوه واضعا يده على كتفه بلطف) .. ويلك ياعلي .. لماذا العجلة ؟ .. هل تظن اني نسيتكما ؟ .. انتظر حتى تستقر الوزارة ..

علي . او حتى تصل الى الوزارة ... لا ... لا نستطيع الانتظار بعد ..

سلوم . ويلك .. الا تأكلون وتشربون .. وتلبسون ! .. من احسن منكما في القرية ؟ .. وماذا في الوظيفة الجابي افضل من كل هذا ؟ .

علي . لا نستطيع ان نظل عبدا الى الابد نأكل ونشرب وثياب

وتمثيل ..؟ هذه القيود لا يرضى بها الا الحمار .. واين وعودك القديمة ؟ .. اين حسنتا في هذه الوجاهة التي ملكتها ؟ . تذكران هذا شيء لايمكن ان يدوم ابدا .. وسترى ان النتيجة السوداء قد بدأت ...

سلوم . ماذا تقول ؟ ..

علي . ستفهم ما اقول عندما تخرج الى الشارع ..

سلوم. الى الشارع ؟ ..

علي . نعم عندما ترى اصحاب اموال اميركا ينتظرونك لتدفع اليهم اماناتهم ..

سلوم. وهل جاؤوا ..؟!

علي . نعم .. نعم .. وهم بانتظارك ..

سلوم. قل لهم است هنا ...

علي . ولماذا أقول لهم ذلك ! .. ومقابل اي شيء ؟؟ .

سلوم. (يحوطه بذراعيه) . علي .. هل تظنني انسى فضلك وفضل سعيد ؟ .. انتظرني فقط اسبوعين .

علي . اسبوعين ؟ ! .

سلوم. نعم اسبوعين فقط .. بشرط ان تدبر الجماعة ..

علي . سأفعل .. وسنرى (ويهم بالخروج)

سلوم. لا تنسى ان تهيء لي السيارة بعد انصرافهم ..

(علي يخرج . سلوم يطل في حذر من النافذة على الشارع يراقب حركة الدائنين .)

منظر . (علي يحيط به القرويون في الشارع)

علي . سافر لبيروت وسيبقى هناك اسبوعين .. اخروا لي القضية اسبوعين فقط .. وعلي الباقي ...

احدهم : جماعتنا بأميركا منتظرون الخبر .. ايش نقول لهم ؟..

علي : لا تقولوا لهم شـــيء الآن . اخروهـا اسـبوعين .. اسبوعين وعلي ...

(القرويون ينصرفون ..)

منظر (سلوم يركب السيارة وعلي بجانب السيارة .. ثم في المطبعة مع المحرر)

سلوم . . . يا أخي .. أملي كبير بان نتعاون في كل شيء . . انا مستعد لكل خدمة تأمرونى بها ... وأقسم لك بشرفي ما أنا الذي اعدت الجريدة ... يظهر ان الخادم الخبيث هو الذي فعل ذلك بغير علمي .

المحرر : القضية ليست قضية جريدة .. ولكن قضية واجب صحفي لا يجوز التخلي عنه .. ان عدداً من القرويين جاء يعرض علينا ظـلامته .. انهم اصحاب حق معك ولا سبيل لهم الى مطالبتك به الا عن طريق الصحافـة ... تستطيـع ان ترد على ادعائهم اذا شئت ..

سلوم : أقسم لك بشرفي ورحمة أبي ما لهم شيء بذمتي ، ولكن الاعداء والحساد .. الا تعرف ؟.. على كل يظهر ان وقتك ضيق مثلي ، ولذلك كتبت لك جوابي على هذا الموضوع وتستطيع ان تقرأه اذا شئت . (يناوله غلافاً مغلقاً ويعود الى الخارج قليلا وهو ينادي) . علي .. علي ...

المحرر : (يفتح الغلاف فيرى ورقة النقد فيدس الغلاف في جيبه) اذن نؤخر الخبر اليوم حتى ندرسه جيداً ..

سلوم : أشكرك جداً .. ولكن هل تسمح لي ان أراه ؟.

المحرر : تفضل (ويمشي معه الى المنضدة فيأخـــذ ورقة ويناوله اياها) .

سلوم (في منظر مكبر يجلس على مقعد هناك عليه ورقة ملطخة بحـــبر حطري . يقرأ الورقة في تأثر ظاهر ثم يدسها في جيبه ، ثم ينهض فيودع المحرر

ويخرج . السيارة تقف أمام أحد الابنية ، يخرج صحفيان فيركبان معه . ثم تقف السيارة امام منتزه صيفي في دمشق . ينزل علي يفتح الباب ويهبطون . الصحفيان يريان لطخ الحبر الكبيرة على مؤخر سليم فوق ثوبه الابيض فيضحكان سراً ، ويمضيان معه الى داخل المنتزه .. حيث يجلس في مقعـــد امامي . مناظر مختلفة للحفلة ... ثم يدور الرقص .

سلوم يحاصر احـــدى الغانيات ويرقصان .. الحضور يلحظون مؤخر سلوم فيضحكون ويتغامزون . . ويكثر اللغط بشأنه و نظر اليه ، فيلمح ذلك ثم يلمس مؤخرته فتتلطخ راحته بالحبر ، وهنا ينفجر الناس بالضحك العالي .. يخجل وينسحب في غير انتظام .)

سلوم . (يرمي نفسه في السيارة ويخاطب علياً) . هـــذه فضيحة انت مسؤول عنها .. نعم انت .. ألم تر الحبر ؟.. لماذا لم تنبهني اليه ؟.

علي : قلت لك لم أر شيئاً . ومع ذلك فهناك فضائح أخرى تنتظرنا ... وهي أشد سواداً من الحبر .

سلوم : ما أشد حمقك ! (يغير لهجته) .. انا عارف انك لا ترضى بهذا .. ولكن العجيب انك لم تره .. على كل سنغير الثوب ولكن . . قطع سريع .. منظر . (سلوم في بعض اراضي الجزيرة يلاحظ الآلات الزراعية وشجر القطن يكسو بقعة كبيرة من الارض . .)

سلوم : (يخاطب وكيله) كيف ترى الموسم ؟.. أظنه جيداً ...

الوكيل : هدا ما ننتظره اذا لم يطرأ سوء ...

سلوم : وكم يبلغ المحصول كما تتوقع ؟ خمسمئة طن !..

الوكيل : اذا سلم الله ...

سلوم : (لنفسه بعد اجراء حساب على ورقة) خمسمئة طن تساوي مئة الف ليرة ثروة فوق الحلم ...؟

(جماعة من الفلاحين يأتون بأثمار من القطن)

احد الفلاحين : يظهـــر ان الدودة اللعينة بدأت تفتك بالقطن ؟..

الوكيل : (ينظر في الثمر وبغتة يرى الدودة) بوادر مخيفة . . لقد انقطع الأمل . .

سلوم : (مجفلا للنبأ محدقاً في الثمر) لقد انهار كل شيء في لحظة واحدة ! . . أصبحت خائفاً من الخسارة الكبيرة بعد ان توقعت الربح الكثير ! . (قطع . . .)

منظر . (سلوم في ردهة احدى المحاكم يجتمع بجمهور من القرويين ويحدثهم همساً) . أنا لا أفكر باضاعة حقكم . . . ولكن انتظروني قليلا . . . حتى يظهر موسم القطن . . .

احدهم : ألم تقل ان الموسم خاسر . . فماذا ننتظر ! . .

سلوم : يأخذ بيد محاميه ويهمس في اذنه ، ثم يذهب المحامي بالقرويين الى جانب . .

المحامي : مارأيكم اذا سوينا القضية . . فنحي ماأمكن من هذه الاموال ! . . أنتم ترون ان الرجل مفلس . . ذهبت هذه الاموال كلها في القطن ، فاذا وافقتموني عملت على تعويضكم بالنسبة الممكنة . المئة عشرة . عشرين . . . ما أمكن . . ؟

احد القرويين : « وبيده رسالة من اميركا » أخي أرسل لي معه ٢٠٠ دولار وأنا أرضى منها بمئة . . والله يسامحه بالباقي . .

آخر : وانا لي مئة دولار . . هات . . ثلاثين . .

علي وسعيد : في منظر مكبر . . ينظران الى بعض القرويين ويغمزانهم بأعينهما لكي لا يرضوا بالتسوية . .)

سلوم : (يلمح ذلك منهما فيدعوهما اليه) نسيت ان اخبركما ان قضيتكما انتهت والحمد لله . . وسنذهب الآن توا الى الوزارة لتسلمها امر التعيين . .

علي : الآن ! . . .

سلوم : نعم الآن . . الآن يا علوش (ويربت على كتفه) ارايت ان الصبر مفتاح الفرج !! . والآن هل يفكر سعيد بالانتحار ؟؟

سعيد : انتحار ! !

علي : (يقهقه) . الانتحار لم يفكر به سعيد . . ولكني اخترعته انا . .

سلوم : (يربت على وجه علي) يا خبيث . . . انت مخترع كبير . .

علي : والله انت مخـــترع اكبر يا . . . استاذ . . . يا ليتني في بدنك شعره . .

سعيد : معلوم . . شعره النائب نائبة ؟؟؟

(سلوم وعلي وسعيد في السيارة . تقف امام وزارة المال . ينزل سلوم ويدخل مبنى الوزارة مسلما بيده على شيء . . . !)

سلوم : انتظراني قليلا حتى أقابل الوزير . . . (ويذهب)

علي : (لسعيد) أنا خائف يا سعيد ؟ .

سعيد : من ايش . . .

علي : ان نخسر اليوم اسلحتنا . . .

سعيد : وكيف ؟ . صرح . . . لا افهم ما تقول . .

علي : لقد انتهى امر الدائنين وابرؤوا ذمته . . فبماذا نحاربه اذا كان امر تعيننا هذا كذبة جديدة ؟ .

سعيد : والله . . هذا ما أفكر بـه . . ولكن انتقامي سيكون كبيراً كبيراً . . اذا صح ذلك . .

علي : أسكت . . هـــو ذا اقبل . . انـــه يدبر الكذبة . . انظر الى وجهه . . .

سلوم : أف ؟ . ما اتعس حظكما ! . . ان الوزير مريض . .

(في هذه اللحظة . رجلان يخرجان من الوزارة . .

احد الرجلين (للاخر) لقد حدثت الوزير بكل شيء . . وأظنـــه اقتنع بكلامي . .

سعيد : ألا تسمع ! .. الوزير هنا .. (ويتقدم نحو الرجل المتكلم) يا أخي هل الوزير في غرفته ...؟

الرجل : في (اشمئراز) نعم هو في غرفته .

علي : (لسلوم) ألا تسمع !.. ان الوزير هنا ...

سلوم : (يقهقه) يظهر انك لم تفهم كلامي !.. أنا لم أقل الوزير بل قلت أمين الوزير .. ان أمر التعيين عند الامين لا الوزير . وهذا مريض .

(رافعاً صوته بغضب)

علي : المريض ليس الامين .. ولكن الامانة .. اسمع ما أقول لك . يجب ان تضع حداً لهذا الكذب ... لا وزير ولا أمين ولا بطيخ ..

سعيد : هذه حيل شبعنا منها .. يجب ان نعرف مصيرنا ..

سلوم : ... ما هذه الاقوال ؟...

علي : هذه الاقوال وراءها افعال ...

سعيد : لكل شيء حد يا سلوم .

سلوم : سلوم ؟. من سلوم هذا ؟. اخرس !..

علي : الكذب وحده هو الذي يجب ان يخرس . لقد آن للكذب ان يخرس ..

سلوم : (وهو يدخل السيارة) سترى جزاءك على هـــذه الوقاحة . (للسائق) امش ..

(السيارة تمشي ويتعلق بها علي فيسقط وتصدع قدمه ..)

(يأخذ سعيد بيد علي منهضاً اياه ناقضاً أثوابه .)

(يشيعان السيارة بنظرهما في صمت ثائر ..)

علي : لقد خسرنا كل شيء (متنهداً)

سعيد . لا .. لم نخسر شيئاً بعد ..

علي : وماذا بقي لديك بعد ان برئت ذمته من حساب أميركا ؟..

سعيد : بقي لي عقلي .. هل تظن اني اليوم كما كنت قبل سنة ؟ .

كلا .. لقد افادتني تجارب هذا المحتال خبرة لا تقدر .. امش ..

(يمشيان)

عـلي : (يلتقط قطعـــة من صحيفة على الارض فيقرأ فيها) . الف ليرة سورية جائزة لأحسن قصة سينمائية . ان شـــركة سينما العروبة تضع الف ليرة سورية جائزة لأحسن موضوع سينمائي . فعلى الراغبين بالسابقة ان يتصـلوا بمكتب الشركة ليطلعوا على الشروط .

سعيد : (يضع راحته على جبينه) ارايت كيف ان القدر نفسه يفتـح لنا طريق الانتقام ، لن ابيت هذه الليلة حتى اواجه مدير الشركة . . اتكون معي ؟ ..

علي : (يقهقه) . اجننت ! . ماشأننا عنده ! ..

سعيد: ويحك .. انا نملك افضل موضوع للسينما .. واذا كنت عاجـزا عن فهم ما اريد فلا حاجة لي بك . .

(يمشي مسرعا) هلم .. هلم ..

علي : (يسعى وراءه عارجا) لا تعجل .. انسيت اني لا استطيع السـير وحدي ؟ (قطع .)

منظر : (مكتب الشركة ، سعيد وعلي عند مدير المكتب)

المدير ... قصتكما ممتعة حقا ... اصحيحة هي الى هذا الحد ؟ ..

سعيد : اقسم لك اننا لم نزد عليها حرفا .. انها حقيقة ..

المدير : حقيقة ولكنها فوق الخيال .. حســـنا سأعهد بكما الى كاتب ممتاز وهو يتولى اعداد قصتكما للتمثيل ، ثم نخرجها في شريط رائع ..

(يضغط الجرس ويتم حديثه لهما) . وفي اعتقادي انكما ستقومان بنفس دوركما الطبيعي في الشريط ..

منظر : (التمثيل والتدريب الفني في الاستوديو وفي احدى القرى ..) اعلانات كبيرة على واجهات الشوارع . عليها العبارات التالية :

(اغرب من الخيال .. المسرحية الرائعة .

بطولة .....

اخراج .....

تعرض لاول مرة في سينما العروبة ...

احجزوا تذاكركم قبل فوات الوقت ...)

على الشاشة : (عرض الشريط في قاعة السينما . زحام كبير . في المقاعد الامامية عدد من الوزراء والنواب بينهم سلوم ...)

(قبل العرض تطفأ الأنوار ...)

صوت : (بالمكبر) ان ادارة سينما (العروبة) تشكر حضرة الوزراء والنواب والجمهور الكريم على تشريفهم هذه الحفلة التي تدشن بها موسمها الفني ، وتعتبر ذلك منهم تشجيعا كريما على اداء رسالتها الفنية ، وهي اذ تعرض قصتها السورية الجديدة (اغرب من الخيال) تقدمها كنموذج للقصص التي نأمل ان تؤدي بها رسالة جديدة في عالم السينما العربية .. رسالة تشبع رغبات الجمهور المثقف الذي يتلف الى الموضوعات الواقعية ذات الهدف الاجتماعي النبيل ...

على الشاشة : (يبدأ العرض . مناظر مختلفة من القصة ... وتتجه الابصار الى سلوم بمن حوله كلما اضيئت الأنوار . ممزوجة بابتسامة غريبة ... وهمس متتابع بين النواب ...)

(منظر سلوم على الشاشة يرقص ، ومؤخرته ملطخة بالحبر ...)

سلوم (في منظر مكبر يقف في غير وعي صارخا) . هذا عيب ! .. (ثم ينتبه لنفسه فيجلس في حركة عصبية ... ويخاطب الناظرين اليه) الا ترون انه ...انه ...انه شريط سخيف .. انه .. ان هذا المنظر يبعث على الاشمئزاز . اريد يبعث على الضحك ! ...

احدهم : هو كذلك .. انه يبعث على الضحك .. ولعل اجمل ماني الشريط ان يعرض الافكار العميقة ، والحقائق الكبيرة في اسلوب هزلي خفيف .

آخر : يظهر انك لم ترض عن الموضـــوع ... اليس كذلك ؟ .
(غامزاً رفيقه) .

سلوم : . كلا .. كلا .. بل .. ولكن ..

(وتنطلق في هذه اللحظة ضحكة مدوية من الجمهور ، فيلتفت الجميع الى الشاشة) ..

على الشاشة : (مأمور التنفيذ ، ومعه عدد من الدرك ، قادم لحجز سيارة سلوم استيفاء لدين القروبين اصحاب الامانات . المأمـــور يلقى سلوما ويعرض عليه قرار المحكمة ، ثم يسلم السيارة الى شخص ثالث بانتظار نتيجة الحجز .)

سلوم . (ذاهلا وفي حركة عصبية) لا .. هذا ليس بصحيح .. هاهي ذي اوراق التصفية .. (موجها كلامه الى الشاشة) انظر ياحضرة المأمور .. انظر (يستخرج الاوراق من جيبه وتتجه انظار الناس اليه في دهشة .. ينتبه هو لموقفه فيحاول تداركه .. فيعود الى جلسته ويخاطب مجاوريه ملطفا من لهجته ، ماسحاً عرقه .)

عفوا ... عفوا .. ـ لقد ادهشني التمثيل .. حقـــا انه رائع .. لم تتأملوا مثلي لهذه النتيجة ... اتمنى لو كانت على غير هذا الوجه ...

نائب : بالعكس . الواقع انها أفضل خاتمة لمثل هذا النصاب .

آخر : ياله من محتال ؟.. أكاد أعرفه شخصياً ..

نائب ثالث : ولم لا تقول انك عرفته ... أما أنا ...

سلوم : حقاً انه تمثيل مدهش ... يكاد ينسيك انك تشهد شريطاً من صنع الخيال ...

نائب : خيال !.. ما أظن فيه ذرة من الخيال .. انـه واقع .. ألا تعرف بطل القصة !.. هل تريد ان أدلك عليه ؟..

سلوم : لا أدري ماذا حدث لرأسي ... صداع شديد ... الا تشعرون بثقل الجو ؟ .

النائب : أما أنا ... فلا ... ان الجو لخفيف جداً ...

آخر : وظريف جداً ...

(قطع سريع ..)

على الشاشة : (في منظر مكبر .. سلوم في بيته القروي الاول نفسه ، جالساً في الفراش ... مطرقاً في شبه غيبوبة) :

سلوم : (يرفع رأسه في تثاقل .. ثم يدير بصره في أرجاء الغرفة ذاهلاً) :

أفي يقظة أنا !!.. أفي حلم أنا ؟!!

إجـــازة ...

لقد أحببته كثيراً ... بل أكثر مما أحببت أي انسان لقيته في حياتي ... ولقد اشفقت عليه بمقدار ما أحببته ...

عرفته لأول مرة في بحث قرأته له عن بعض البدع الوافدة على المسلمين ... فاستهوتني جرأته وحماسته لفكرته ، واخلاصـــه الحار في الدفاع عن جوهر الاسلام ...

ثم جمعتني وإياه حفلة ادبية في طرابلس ، كنـا هو وأنا بعض المتحدثين فيها ... فكان تقارب الهدفين بيـني وبينـــه سبباً لتعارف لم ينفصم ولن ينفصم ...

وكنت كل يوم القاه فيه ازداد به اعجاباً ، وله حبا ... لقـد تمثل في قلبي كواحد من بقية شباب الاسلام في عهد النبوه : ايمانـاً واعياً نقياً يسعف صاحبه بأفضل الحلول لأعقد المشاكل ، لا يعتريه فتور ولا كلل في خدمة العقيدة التي ملأت شغاف قلبه ، فأصبحت له الهـواء يتنفس ، والنور الذي به يبصر ... ثم حبا للحق والخير لا يطمـئن بصاحبه الا ان يندفع للجهاد في سبيل هداية الناس جميعـــاً الى كل حق وخير ... وقد ساقته هذه الدوافـع لتوسيع مجالات عمـله الى مختلف ميادين الحياة ، تحقيقاً لما يفهمه عن الاسلام من كونه الدين الذي يشمل بنظامة الالهي جوانب النشاط البشري كافة ، فكان طبيعيـاً ان يلاقي في

طريقه المؤيدين الذين يسترخصون كل غال في سبيل الاسلام ، والمعارضين الذين لا يتورعون عن ارتكاب كل كبيرة للوقوف في وجهه .

وكان خصومه ضروبا مختلفة من الناس ، فيهم الملاحدة الذين يرون في كل نشاط ديني عدواناً على أفكارهم وتهديداً لوجودهم ، فهم يحاربون حركته بكل سلاح وفي كل ميدان .

وبينهم شيوخ يزعمون التخصص في خدمة الاسلام ، فلا يرضيهم ان يتصدى لهذه المهمة سواهم وبدافع من الخشية على نفوذهم القائم على الاوهام يثيرون الغبار في وجهه ، ولا يتورعون حتى عن التواطؤ مع اعداء الاسلام للكيد له ، والدس على دعوته ...

ولعل أشد الخصوم إيذاءً له اولئك الذين كانوا الى وقت قريب ألصق الناس به ، ثم واجهتهم المحنة فلم يثبتوا ، وبدلاً من أن ينطووا على انفسهم معترفين بالعجز اخـــذوا يهاجمونـه لتعويق سيره ، وللتظاهر ببطولات لا حقيقة لها ...

والعجيب في امر هذا الرجل ان أياً من هـــؤلاء الخاصمين لم يستطع التأثير في طريقته التي اختطها الى اهدافه منذ الخطوة الاولى ، فهو يؤمن بان الاسلام الذي يعمل لتحقيق اهدافه في تحقيق الاخوة الانسانية وتأمين العدالة الاجتماعية لا يسمح لدعاته ان يشوهوا اسمه بسلوك المشارب المتلوية ، والوسائل غير النظيفة ، ولهذا كثيرا ما كنت اختلف واياه في الحديث عن هؤلاء ، اذ كان يابى الا ان يقـــدر لهم الظروف المخففة من سلامة النية ، وخطأ الاجتهاد ... وربما عمد الى الدفاع عنهم بذكر ماوسعه ذكره من حسناتهم ، او يمكن اعتباره حسنات لهم ، حتى بت على يقين انه من طراز تسمو به اخلاقه . فوق الاحقاد ، فهو ينظر الى خصومه من خلال طبيعتهم الانسانية ، وعلى ضوء مقاييسه الاسلامية الصافية ، فلا يميل به الهوى عن الانصاف ، ولا تغلبـــه العاطفة على واجب العدالة ...

والرجل الى ذلك ذو مواهب عجيبة من شأنها ان تجعل له اثر غير عادي في مجتمعه ، واكثرها تتجلى مواهبه في خطابته ، فقد يخطب في وسط من ذوي الاتجاه المخالف ، فما يكاد يمضي في حديثه اليهم حتى تتحطم الحواجز بينهم وبين افكاره ، فاذا هم اقرب مايكونون اليها ، لا يمنعهم من ايثارها الا استكبار الهوى ، وعدم الالفة للحق ... ونبرته الخطابية تذكر السامع بما قرأه عن رسول الله (ﷺ) اذ يقف ليخطب القوم فيبدأ هادئاً ثم يغيب في موضوعه ، فاذا هو الفكرة نفسها تتجسم في كلمات كأنها مقدمات معركة .. (آ) ومع كل انفعاله مع الموضوع لا يكاد يفوته شيء مما يؤكده ، مثلاً أو قصة أو نكتة .. فكأنه يقرأ في كتاب لا يخطيء منه فكرة ، ولا يخرم حرفاً ولا يقترف لحناً ... ...

ولعل لمواهبه هذه أثرها في الهاب بعض الخصومات ضده ، إذ يحاول اصحابها التهوين من شأنه ، بابراز انفسهم فيسقطون في الامتحان ، ولا يجدون سبيلا الى تلافي نقائصهم الا ان يخلقوا له النقائص !... ومما أنس لا أنس يوم كنا على مائدة أثر حفلة خطابية ، فشاء أحد المدعوين من المخربين ان ينتقم لنقصه فقال : لم نسمع خيراً من محاضرة فلان ـ يريدني ـ فقلت : ومع ذلك فخير ما فيها انها قبسة من افكار هذا المغوار ...!

وبهذه المواهب ، وبهاتيك الخصائص الخلقيه استطاع الرجل ان يشق للمفهوم الاسلامي الصحيح طريقه في عقول الجديد ، ليس في بلاد العرب وحدها ، بل حيث تصل لغة القرآن من بلاد الاسلام ، ولقد قال فيه خصومه الكثير الكثير ، اتهموه في دينه ، ورموه في خلقه ، واثاروا الشبهات فى اغراضه ، ولكن ردود الفعل لذلك كله كانت تعميق اثره في النشء الاسلامي ، اذ كان واقعه الملموس فوق كل هذه المحاولات : كان سلوكه العملي صورة تامة من دعوته لفكرته ، تجلى ذلك في حياته

السياسية اذ كان في البرلمان الصوت الاسلامي الذي ركز مفهوم الحرية والعدالة الاجتماعية في صلب الدستور ، وفي حياته النضالية من اجـــل فلسطين اذ قاد معركتها في الشارع وفي خطوط النار فكان مثل المجاهد الذي باع نفسه لله ، فلم يعرف المساومة ، ولم يقبل المهادنـــة .. وفي ميدان الاصلاح الاجتماعي حيث كان مثـل العالم الناظر بنور الله ، فهو يعمل لتحقيق معاني الاسلام ، تحريراً من الجهل ، وتحريراً من الخرافة ، وتحريراً من الفقر ، واخيراً تحريراً من الطائفية التي تجعل من الدين وسيلة لطغيان المغتصبين ، ولهضم حقوق المخالفين ...

وشاء الله ان تكون معركة فلسطين نقطة التحول في خط السير السياسي والاجتماعي في سورية ، بدأت انقلابا في نظام الحكم ، ثم اخذت طريقها في تحطيم النظام الاجتماعي وتغيير القيم الاصيلة ثم جاء السلاح من الشرق لتحصين البـلد ضد الخطر الطارىء .. ولكن الايدي الـــتي استقدمته لم تشأ له ان يدخل البـلاد إلا في موكب من امواج الدعايات لافكار غريبة ، لم تلبث ان استهوت الغافلـين ، فراحوا يفتحون لهـا بيوتهم وصدورهم ... وسرعان ما انقلبت مقاييس الناس ، واذا بالبـلد يمتلىء بالشعارات الوافـــدة ، واذا بالشكوك تثار في كل شيء ، وتكاد التيارات الاصلاحية في الميادين الاجتماعية والسياسية والدينيـة تتحول الى صراع طبقي يمزق وحدة المجتمع ، ويجعل منه معسكرات لا هدف لبعضهـا الا القضاء على بعض ...

وكانت احداث ، وكان وراء الاحداث قوى تخطط للتطور الجديد ، فما لبثت ان دفعته الى البرلمان نفسه فاذا هناك (تجمع قومي) يسخر كل شيء من اجل توطيد الحكم لأقلية لم تستطع تحقيق اهدافها عن طريق طبيعي فراحت تستغل بساطة الجماهير باثارة المخاوف ، وخلق الاشاعات ..

لتجعل منها ستاراً كثيفاً تحقق وراءه وفي غفلة الاعين ، كل ما استعصى عليها من الاغراض ...

وخلا احد مقاعد البرلمان فكان على كل من الجماعات السياسية أن تركز هجومها عليه ... وأجمعت كلة المعارضة على ترشيح صاحبنا لذلك المقعد ، لان الموقف كان في مسيس الحاجة الى مثله في صف المعارضة ، ولما وراءه من رصيد شعبي جدير بأن يتغلب على القوة التي تختبىء وراء التجمّع .. ولم يستطع خلاصاً من هـــذا الترشيح فخاض المعركة ، وهو يعلم انه يغالب في السلطة الفعلية كلها ، بما فيها من اسلحة ودسائس ووسائل نشر واعلام ...

ثم انكشفت المعركة عن النتيجة المقررة وهي نجاح مرشح القلعة ، لأن سلاح الارهاب قد نجح في عزل ثلثي الناخبين عن الميدان ، فخلا بذلك لأضعف الخصمين ..

وتحقق لصاحبنا هناك ما لم يكن يجهله من النتائج ، واستيقن من جديد ان المحنة الجديدة التي منيت بها الحرية في سورية قـد أصبحت تتطلب كفاحا من نوع آخـر ، يكافىء بقوته وتنظيمـه ذلك التخطيط الغريب الجديد ...

٢

قلت : اني كنت شديد الاشفاق على هذا الرجـل ، لا من حيث كثره خصومه وافتنانهم في ابتكار ضروب الايذاء له فحسب ، فذلك أمر قد وطن على قبوله منذ اختار أو اختار له القدر هذا الطريق ، ولكن اشفاقي عليه انما كان بسبب ما اعلمه من مرضه الخطر . . الذي كان يعاوده بين الحين والحين ...

كان مصابا بمرض المباقرة ... الذين اعدهم الله للنهوض بأعبـاء

الواجب ، فجعلهم بذلك اشد من الناس الآخرين حاجة لاستهلاك وقود الحياة ...

كان عقله ـ كابي تماما ـ يأكل من جسده كما يأكل السيف من غمده.. فهو ابدا في تفكير في حياة الناس ، ومستقبل أمته ، يحمل في قلبه هموم العرب في فلسطين والجزائر وعمان واليمن ... كما يحمل هموم المسلمين كلهم في كشمير واندنوسيا وتركيا والحبشة وبقية المناطق الافريقية التي احالها الاستعمار مسلخا ومطبقا لشعوبها الاسلامية .. هذا فضلا عن هموم اخوته في الشرق والغرب من البشر الذين يعيشون من خوف الفقر، ومن خوف الحرب في حروب ..

والهم يخترم الجسيم نحافة ويشيب ناصية الصبي ويهرم

كما يقرر ابو الطيب والاطباء ... وطبيعي ان يكون اثر هذا الهم اكثر مايكون في القلب ، والدماغ وفي اوعية الدم المتصلة بهما ... ومن هنا كان صاحبي يعاني نوبات من ضغط الدم تكاد تكون متصلة ، وطالما سمعته يشكو الارهاق ، ويرغب الينا ـ انا ورفاقه الآخرين في اعفائه من العمل ليتاح له ان يسترد بعض العافية .. ولكننا نأبى عليه ... واقول له انا : انك ميت على كل حال ، واوثر لك ان تسقط في معركة الاسلام على ان تموت في فراشك ...

وفي ذلك الجو الخانق الذي كانت تعانيه الحرية في سورية كان مرض الضغط احق الامراض بالانتشار ، ولعل مؤسسات الاحصاء الصحي لو عمدت الى التحقيق فيما يرافق عهود الفوضى والقلق السياسي من امراض لما وجدت اكثر ملازمة لها من ضغط الدم والى جانب ذلك كله كان من الطبيعي أن تترك الانتخابات الموجهة اثرها البالغ في صحة صاحبي ، فاذا هو مضطر الى مبارحة دمشق ليوفر لنفسه فرصة للاستجمام في احد المصايف اللبنانية ..

وصمم على اخفاء هذه الرحلة حتى عن اقرب الناس اليه ، فلم يعلم

بوجهته سوى اهل بيته . وفي فندق مكرزل من ضهور الشوير . اختار غرفة منعزلة في الجناح الجنوبي ... وقد سره ان تكون خالية من الهاتف... ويستطيع أن يغلقها عليه اذا شاء فلا يدخلها حتى خادم الفندق ، الا اذا ضغط على جرسها الكهربائي الذي يكاد يكون صلته الوحيدة بالعالم .. بل ان الخادم نفسه سيحتاج في هذه الحالة الى اكثر من عشر دقائق ريثما يصل اليه ...

انها لصومعة رائعة ... طالما هفا الى مثلها وحالت دون رغبته المقادير ...

من نافذتها الشرقية سيمتع عينه باروع مناظر الصباح ، حين ترسل الشمس تحيتها الاولى الى هذه الغابة الواسعة الحالمة من احراج الصنوبر ومن على هذه الشرفة العريضة سيشاهد موكب الغروب ، اذ تهبط الشمس نحو خدرها بين ذراعي الافق ... ومن هنا في احضان الليل الحافل بالاسرار سيفرغ لمناجاة ربه فينعم بتلك النشوة العليا التي كادت تصرفه عنها المشاغل التي لا اول لها ولا آخر ...

انه لم يكن قط في حاجته اليوم الى هذه الخلوة ، فهو يرجو ان تتيح له عزلة تامة عن كل مشاكل الحياة ، وستكون منفاه الاختياري الذي سيقطعه عن كل البشر بما فيهم من الخير والشر .. ومن اجل ذلك رفض ان يصحب من الكتب سوى كتاب الله ، وبعض كتب الحديث الشريف .. واستبعد حتى المذياع ، وصمم على الا يتصل اثناء خلوته بأية صحيفة ... وقرر ان يظل في منفاه هذا شهرا كاملا فلا يغادره قبل استكماله ..

ومما حبب اليه هذه العزلة يقينه بان للنفس امراضا لا شفاء منها الا بالاعتكاف في مثل هذه الخلوات ، فهو لها كالصوم بالنسبة الى الجسد حين يسرف هذا في التهام الطعام والشراب ، فتتبلد احاسيسه ثم لا يستطيع استعادة صفائها الا بالصوم ...

ونقد الخادم بعض الليرات كدفعة اولى من اكراميته وهـــو يقول له : اني بحاجـــة الى راحة تامـة ... فأرجو ان لا يعلم احد مكاني الا بعد ان آذن لك .

وسعد صاحبنا أياماً بهذه المتعة على النحو الذي قدر .. وخيل اليه انـــه يستكشف كل يوم جديداً من معاني القرآن ، كما لو كان يتلقى وحيه من معينه النبوي مباشرة .. وأحس ان شعوره بالحياة قد بدأ يتوهج على نحو لم يكن له بـه عهد من قبل ..

لم يعد يحس بشيء من الارهاق الذي كاد ينوء به قبل ايامه هذه .. وتوقع الا يغادر هـــذه العزلة الا وقد استعاد كل صحته ونشاطه كأفضل ما عرف من صحة ونشاط ..

واستيقظ ذات صباح ... ليجد نفسه على غير ما ألف ... وخيل اليه انـه يصحو من حلم مزعج ولكنه لم يذكر شيئاً من تفاصيله .. بل لا يذكر منـــه شيئاً البتة ، إلا أن أثره لا يزال حاداً يحسه ضيقاً في الصدر ، وجفافاً في الفم ... وضجراً لا يحتمل ...

يالله !... أين تلك النشوة الغامرة التي سعد بها طوال العشرة الايام تتنزل على قلبه من وراء هذه المادة فتنسيه كل هموم الحياة ، وترفعه الى الذرى الموشـاة بآلاف الالوان من عالم غير منظور !...

لقد انطوى ذلك كله ، كما يمحي خيال الحلم البهيج في لحظة صحو مفاجئة.

وأطرق يفكر في أسباب هذا الضجر الطاريء ... ويتساءل : هل من حادث في الاولاد ! لقد تركت والدي متعباً بعض الشيء ... فهل حـــدث من شيء !

وما كاد يذكر أباه حتى ارتفع نبضه واسرعت دقات قلبه ... وأحس بحرقة في صدره تكاد تدفعه الى البكاء ...

ولم يعد قادراً على البقاء مع هذه الهواجس ، فاذا هو يجمع ثيابه ، ويضم كتبه الى مكانها من الحقيبة .. ثم يضغط على زر الجرس .. ولم يستطع انتظار

الخادم داخل الغرفة فغادرها الى الشرفة ليراه وهو في الطريق اليه .. وما ان أطل وجهه من خلال شجرات الصفصاف حتى ناداه يقول : أي فؤاد !.. سيارة الى بيروت حالا ...

وفي بيروت كان يريد مراجعة الاطباء ليجـــدد فحوصه ، ثم يعود الى دمشق في اليوم نفسه .. ولكنه لم يجد لديه القدرة على الانتظار كل هـــذه الساعات ، لأن الضجر قد استبد به الى حد لم يعد يطاق .. وعلى الرغم من اتصاله الهاتفي بالبيت ، والجواب المطمئن الذي تلقاه .. لم يستطع احتمال البقاء ... وكان حر بيروت قد اسهم بدوره في توقره العصبي ذاك فلم يقر له قرار حتى كان في طريقه الى دمشق ...

ما ان وطيء صاحبنا .. عتبة داره حتى عاوده الشعور بالارتياح وكاد يستعيد اطمئنانه الروحي الذي فقده منذ الصباح .

لقد وجد أهله على أفضل ما يرجى من السلامة والهناءة .. وزال قلقه على أبيه بما انتهى اليه من اخباره الحسنة .. ولكنه مع ذلك لم يزل يتساءل في سره عن أسباب ذلك السأم الذي هاجمه مطلع اليوم دون ان يهتدي الى جواب !... ومن ثم لم يستطع ان ينتزع من قلبه شعور التوقع لشيء مجهول على الرغم من كل المحاولات التي بذلها للفرار من ذلك ..

ورأى ان يفعل شيئاً للتخلص من هـــذه الحالة فمشى الى الحمام يريد ان يعالج جسده بشيء من الماء الفاتر ، ولكنه ما كاد يمضي بضع خطوات حتى أحس بصدمة هائلة نزلت بشقه الايسر جميعاً ، فأخلت توازنه فأهوى وهـــو يردد اسم الله ...

وكانت السقطة سليمة بفضل الله ، اذ حدثت وهو بجانب الباب ، فتلقـاه بيمينه ، واسعفته بقية من قوة كان لمشقات الجهاد ولتدريبات الفتوة فضل كبـير في صيانتها حتى اليوم ، فلم يصل الى الارض الا بعد مقاومة دفعت عنه الكثير من الاذى ...

وغرق البيت في غمرة الكارثة ، حتى أوشك الهلع ان يطير بالقلوب ،

ولكن الرجل لم يفقد شيئاً من وعيه ، وان عطل الشلل الطارىء حركته أو كاد وأدار في وجوه من حوله نظرة هادئة مطمئنة ... ثم أسعفه لسانه بالكلام فجعل يذكرهم بما يجب من الصبر والتسليم لقدر الله ...

★ ★ ★

وكنت أنا في الطريق الى زيارته ، أخشى أن يغلبني الأسى أمامه ، أو يخونني لساني فأنطلق بما يضاعف آلامه ... ولكن قلقي هذا قد بدأ يستقر منذ رأيته ينهض لاستقبالي ، ويسعى نحوي بكثير من النشاط الذي لم يستطع الشلل الظاهر ان يطغي عليه .. وعانقته ، وفي قلبي غصة محرقة كادت تتفجر دموعاً في مقلتي لولا الضبط الذي فرضته على نفسي ...

ونظر إلي بعينيه الخضراوين ، فراعني منهما الدين الاسر الذي طالما استشرفت من خلاله صفاء وسرني ان أطالع في بياض وجهه المشرب بحمرة الحياء تلك النضارة نفسها التي عهدتها من قبل كأصدق ترجمان عما وراءها من جمال اليقين وصدق الطوية .

وكان لتلك الابتسامة المطمئنة التي رافقت نظره إليّ أثرها العميق في مشاعري ، فزايلني كثير من الجزع الذي كنت أحسه ، وبخاصة حين سمعته يرد على آخر أسئلتي بهذه الكلمات العجيبة :

« ... ولقد جعل الله من هذه المحنة القاسية منحة لا يكافئها شكر ... كانت مشاغل السياسة ومشاكل التدريس الجامعي تستهلك وقتي كله ، فلا أجد فرصة لأي شيء سواها ... وقد طالما تلهفت لاجازة طويلة أخلو فيها الى نفسي لأسجل آلاف الخواطر التي تعلمتها من الحياة ... ولأعيش مع مكتبتي هذه .. ولكن عبثاً ... حتى شاءت حكمة الله فجعلت من اصابتي هذه اجازة واسعة تتيح لي أن أقرأ ما لم أجد فرصة لقراءته ، وان أكتب ما كان متعذراً بل مستحيلاً أن أكتبه .. »

وسكت قليلا .. ورأيته يرسل بصره فيما لا ادري مما هو وراء هذه الاكداس المكومة من الكتب .. ثم استأنف يقول : لو تقدم موعد

الاصابة ساعة لاستحال علي ان اجد مسعفا ، لأن الجرس ، وهو صلتي الوحيدة بالفندق ، وسيكون بعيدا عن متناولي والخادم لا يأتي الا بالطلب.. ولو تأخرت في بيروت او في الطريق وقتاً ما لكان ممكناً ان تقع الكارثة في عيادة الطبيب او في السيارة .. فالضجر الذي اعتراني حتى احرجني ثم اخرجني الى دمشق لم يكن اذن الا حافزا من وراء الغيب يسوقني بقوة خفية لا ستقبل قدر الله في بيتي وبين اهلي ...

الا ترى يا صاحبي ان وراء ذلك كله عناية الله ... وحكمته !!

ومرة اخرى اتعلم من هذا ... الرجل العظيم كيف يجب ان يتلقى المؤمن قدر الله .. ثم جاءت الوقائع مؤكدة بصورة عجيبة ماذهب اليه من تفسير لهذه المحنة .... فلقد اخرج للناس اثناء مرضه هذا عددا من المؤلفات كانت خير ما كتب هو عن الاسلام ، بل في طليعة ماالف المؤلفون عن الاسلام منذ مطلع هذا القرن ...

ولعل في هذا تفسيراً عمليا للقانون الآلهي الذي يقول :

(وعسى ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا .)

من أحاديث الموت

الموت ، وهو ثمة الفواجع البشرية ، ضروب من الفضل على الناس لا تحصى ... والعقل لا يستطيع ان يتصور غير الموت قوة تحفظ على الانسان صفته الانسانية اذ لولا هو لاختلف معنى الحياة ولكان تاريخ الانسان هو تاريخ الوحشية التي لا رحمة فيها ، والظلم الذي لا يتصور معه العدل ، والظلام الذي لا يتخلله بصيص من النور ...

واول فضائل الموت انه يؤلف الصدمة الكبرى ، التي تصفع غرور الانسان فتطأمن انفه وتقوم اخادعه ، اذ تذكره بمصيره التافه الذي لا مفلت منه .. ولعل اقرب فوائده منالا هذه الاجتماعات العابرة التي يتلاقى فيها الناس ، ليجددوا ما رث من روابطهم العاطفية ، وليشعروا اهل الميت ان ثمة قلوبا تتجاوب في غمرة الفاجعة .. ثم ذلك الصمت الذي يغلب على مجتمعات التعزية ، فيكون فرصة روحية للتأمل ، ولكف الالسنة عن الكثير من الفضول الذي يكاد يؤلف معظم احاديث الناس اليومية .. حتى اذا انطلق لسان بكلمة لم تكن الا خيرا .. لان جو المأتم يفرض التركيز في الفكر والقول فلا يسمح امرؤ لنفسه بكلمة لا تتصل بصميم الموقف .. الموقف الذي لا يتسع بطبيعته لغير التفكير في المصير المشترك ...

من احاديث المآتم ان رجلا خرج للصيد مع ولد له شاب .. ولما كان المساء عاد به جثة هامدة ، اذ أصابته رصاصة طائشة من غدارة ابيه ، وقبل ان يخبر ام ولده بالبلية قال لها : ان الصيد كبير ... فاتينا بقدر واسع من احدى دور الحي .. ولكن لا تأتيني به الا من دار لم تعرف مصيبة الموت .. ولم تدع المرأة بيتا الا طافت به ... ثم عادت فارغة اليدين ، لانها لم تعد داراً خلت من مصيبة الموت ... حينئذ قال الصياد المسكين لزوجته : اذن فاعلمي ان بيتك قد تساوى اليوم مع غيره .. وها هو ذا ولدك قتيل الغفلة .. فابكيه ماشئت ان تبكيه ..

وكان مأتمنا ، عقيب دفن (المنذر) الحبيب كغيره مثقلاً بالصمت ، غارقاً في التأمل ، كأن كل فرد هناك يتهيب أن ينتهك حرمة الموت بكلمة أو إشاره .. ولكن دخول القاضي المتقاعد (م أ) لم يلبث أن حرك هذا السكون ، اذ جعلني أستعيد خيال مأساته التي لا تزال قريبة العهد بالعيون والقلوب ، فلم أستطع كفكفة دموعي ... وكأنه أدرك ما اعتورني فلم يستطع بدوره حبس دموعه ..

وقلت لصديقي الشيخ المفجوع : لقد تساوينا في المصيبة .. بالامس صرع الموت (خزيمة) واليوم يختطف المنذر ... وما أشد التشابه بين ملابسات المصيبتين ، التي تحمل اللوعة بها أشد عمقاً وأطول ايلاماً ..

ان موت الأحبة لأليم رهيب ، ولكن وفاة خزيمة مأساة من حقها ان ترفع الاحساس بهول الفاجعة الى القمة .. انها أولاً مأساة الطب الذي وقف مدرسوه ومنفذوه من اساتذة الجامعة عاجزين امام أوجاعه ، لا يعرفون ما يصنعون ، الا هاتيك التجارب التي جعلت من جسده مخبراً لمختلف الجراحات والادوات ، دون ان تستطيع علاجاتهم جميعها تعديل حرارته او وقف جريانه .. حتى قضى وهو يصرخ فيهم : اريحوني من انابيبكم ومشارطكم . . ودعوني لرحمة الموت .. »

وانها ثانياً مأساة العاطفة التي لا تستطيع ان تنسى ان نجاحه الجامعي قد أعلن عقيب مغادرته مشفى الجامعة نفسها الى القبر ..!

اما منذر فلم يكن اكثر من طفل دون الثالثة .. لم يدخل مدرسة وبالتالي لم تتح له المشاركة في اي نشاط اجتماعي كما انيح لخزيمة.. فالمصيبة به شخصية لا تتجاوز قلوبنا نحن الذين كنا نستشف من خلال حاضره كل روائع المستقبل. ولكن القدر المشترك بين المصيبتين ان موت المنذر كموت خزيمة كان تحديا لقوة الانسان وغروره ، لانه كان مثار الاتهام بالقصور ، سواء في مجال الاحتياط الشخصي قبل الكارثة ، او الاسعاف الطبي بعدها ...

لقد سقط المنذر من النافذة الى ارض الشارع على غفلة من اهله ، فحمله فتى كريم الى المستشفى ليتداركه خبراؤه بالاسعاف الواجب ، وبدلا من اجراء الجراحة العاجلة لتصريف الدم المتفجر داخل الجمجمة ، وأضيعت الفرصة المتاحة في التصوير والتنظير ، حتى انقطع كل امل بحياة الصغير ! وحتى سقوطه من النافذة لم يكن مفاجئا ، بل سبقته النُذر الكثيرة المثيرة ، فقد تبين لنا اليوم ان المنذر قد اعتاد الصعُود عن الاريكة الملاصقة للنافذة الى حافتها .. حيث يطل على الشارع يراقب سيارة والده او يتابع حركات الصغار . وقد حدث ان نبه الناس امه الى موقفه المخيف هذا مرات ومرات بل ان عمه سحبان وكان نزيلا عندهم لبضعة ايام ، قد اخبر امه انه يتوقع فاجعة للمنذر من هذه النافذة ... التي لايجد من يحميه منها !

فأنت ترى ياصديقي ان كبر المصيبة ليس فقط من كونها سلبتنا حقنا في الصغير ، فذلك امر جدير ان نستسلم فيه الى حكمة الله ... ولكن ذروة المصيبة انها ادنى الى صورة القتل منها الى صورة الوفاة ..

واي قتل ! .. القتل الذي لا نستطيع معه ثأرا ولا ادعاء ..

ان الامومة يا صاحبي تضحية وحرص ورعاية ، ومن نتائج هذه الخلال ان تحتاط الأم لكل امر ، وان تسد دون ولدها كل منافذ الخطر . فهل فعلت ام المنذر شيئا من ذلك ! .. وهل من حقنا بعدُ ان نطالبها بدمه ! ..

والطب في العالم المتمدن اسعاف عاجل لتقوية جبهة المقاومة في الجسد المصاب ، ثم كفاح عنيد ضد الالم والموت حتى المغامرة . فهل لقي المنذر شيئا من ذلك ! ام ترك لبقية الحياة في جسده ان تصارع وحدها جيوش الموت مدى ساعتين دون معين ! ..

انا لا اتهم ، ولكني اتساءل : اهنا طب وهناك طب !! . واخيرا دعني اتساءل : من المسئول .. بل دعني اسأل : هل من حقنا ان نقول : من المسئول !! .

٢

وكان مع الشيخ ولده الاكبر ، واه كنت احسبني احرك بحديثي المأتمي جرحا نائماً في قلبه غير جرحه على أخية ، فاذا هو يمسح فيض عينيه ، ثم يقول في لهجة حاول جهده أن يجنبها الارتجاف : الطب الاعرج .. هو اكبر المضاعفات في أشجان المنكوبين بمثل هذه المآسي ..

واستل من محفظته بطاقة .. ليرينا عليها رسم غلام في الثانية عشرة ممتلئاً صحة وعافية .. وتابع هذا كبير اولادي . وقد كان في طريقه الى المدرسة قبل ايام ، عندما فاجأه كلب شارد أخذ يعمل في جسده نهشاً وتمزيقاً .. وفي خلال ساعة كنا متهيئين للسفر الى بيروت ، ومعنا رأس الكلب الجاني ، كما هو مألوف في مثل هذا الموقف ، ولكن كثيرين أشاروا علينا بالاتجاه الى حلب بدل بيروت ،

لأن في حلب ما نطلبه من التخصص في معالجة الكلب ، وهي من جسر الشغور على بعد قريب ، بينما يستغرق سفرنا الى بيروت بقية النهار ، فلا يتاح البدء بعلاج الطفل الا في الليل او صباح اليوم التالي ..

واخذنا طريقنا الى حلب .. واجريت الاسعافات الواجبة ... وفي نهاية الايام المقررة عدنا بالولد الى بلدنا بادي السلامـــة .. لا يشكو الا موضع الابر الكبيرة التي مزقت جسمه الغض .. وعاد الى مدرسته يتابع تحصيله في الصف السادس .. غير ان الامر لم يستمر كذلك سوى أيام ستة حتى فوجئنا بما لم يكن في الحسبان .. لقد ظهرت بوادر الكلب على الطفل ... وكأن المرض كان يعمل عمله وراء مظاهر الشفاء ، لذلك لم يدعه حتى وافاه الاجل ..

ولم يستطع مواصلة حديثه فسكت قليـلا يغالب غصة .. ثم عاد يقول : وطبيعي ان البلاء قد جاءنا من المصل الذى فقـد ـ لسبب ما ـ مفعوله او من طريقـــة العلاج الذي لم تراع حالة الطفل ، وما يقتضيه وضعه الخاص ... أو من كلا الامرين معا .. وهي على كل حال نهـاية لا يستطاع وصفها أيضاً الا بانها ضرب من القتل .. القتل الذي لا نعرف على من تقع تبعته !..

٣

وكان في هذه القصص المأتمية ما يكفي لاغراق القاعـة في جـو لاذع من الانفعال المثير .. ويغلب على الظن انه لم يبق ثمة واحد الا أحس ملء وجوده بالمشاركة الصميمية في هـذه الوقائع ... ذلك ان كلا من هؤلاء قد راح يتصور نفسه مهدداً باحدى هذه الضربات .. وان كان لا يعلم متى وأين تواجهه .. وان كلا منهم قـد راح يغلي بالثورة ضد اولئك المجهولين ، الذين يستخدمهم القدر لتنفيذ هذه المـآسي ، دون ان ينالهم عقاب القانون !..

أما أنا فقد اختلطت في ذهني مشاهد الفواجع .. فلم أعد قادراً على الفصل بين حزني على منذر ، وحزني على خزيمة ، وحرقتي على ابن أخي خزيمة ... وسمحت لدموعي آنئذ ان تنسكب دون استحياء ، اذ لم تكن خاصة بانسان ، بل عامة شاملة لكل مفجوع ... ولكل مظلوم من بني الانسان ...

حكيم من صافيتا

كانت قاعة الاستقبال تغص بالزوار من انحاء مختلفة ، وقد وفدوا ، وأنا منهم لمجاملة صاحب الدار الذي لم يمض على وصوله من المهجر الاميركي سوى بضعة أيام .

وكان الحديث ، كشأنه في مثل هذا الجو ، متشعباً يقفز من موضوع الى موضوع ، دون ان يستوفي بحثاً ، أو ينتهي الى نتيجة .

سألنا الصديق العائد عن حال مهاجرينا ، وأوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية والادبية ، وعن مشاهداته اثناء هذه السياحة في مختلف الاقطار التي مرّ بها . ولا أدري السبب الذي دفع بالحديث اخيراً الى الاستقرار في المجال الفلسفي ، فقد عرض صديقنا العائد صوراً من القلق النفسي الذي لمسه في عواصم اوروبة واميركة ، فكان ذلك مدعاة لتركز الحديث على موضوع الحضارات ، واصنافها واهدافها ، وأثر كل منها في الوجود الانساني ، ثم تحليل عناصر الخطر الذى يكمن في انحرافات الحضارة الغربية ، كما يصورها الكبار من مفكري الغرب نفسه ..

وشارك معظم الحضور في نسيج الحديث ، كل بما يلائم اتجاهه وادراكه ، ولكن الذي لفت نظري من بينهم ذلك الرجل الهزيل ، الذي وضعتني الاقدار بجواره ، فلم اوله من نظري اول الامر الا بمقدار

ما تفرض المجاملة من تحية عابرة وابتسامة فارغة ..

لقد وجه صاحب الدار الكلام الى هذا الرجل الضئيل يسأله رأيه فيما يسمح ، فلم يعجل الى الجواب ، بل اعتذر بأن معلوماته في الموضوع لا تصلح للعرض ، غير ان الصديق أصر عليه ، ولكي يضعه تلقاء الامر الواقع أخذ يعرفه لنا بالكلمات التالية : « انه الاستاذ (داوود توما) غادر صافيتا في مطلع الحرب العالمية الاولى الى البرازيل ، حيث قضى ثلاثين سنة . عمل في التجارة ، وأتم دراسته على نفسه .. وقد شارك في كثير من الاعمال الثقافية والانسانية هناك ، وبلغ من حبه للعلم ان اصبح يتقن العديد من اللغات الحية ، كالفرنسية والانكليزية والالمانية والاسبانية ، والقديمة كاليونانية واللاتينية والعبرية .. حتى السنسكريتية .. ولا شك ان لافكاره في موضوع الحضارات قيمة لا تُفوّت ..

وكنت اسمع هذا السرد في تعريف الرجل كضرب من التهكم الذي لا يراد به إلا مجرد العبث .. ولم يكن ذلك ظني وحدي ، بل رأيت أكثر من واحد في المجلس يشاركني هذا التقدير ... فكان علينا ان نُصغي لنسمع من الرجل البرهان الذي سيضعه في مكانه الحق ..

وانطلق يتحدث في حياء واناة وجهد ، كأنه خارج من عمل مرهق استنفد قوته ، أو أقحم في موضوع لم يتهيأ له .. حتى اقامله لم يستطع ان يدفع عنها الرجفة الظاهرة . الا انه استطاع مع ذلك ان يقيم ركائز من الافكار الصغيرة ، ما لبث ان مد فوقها العوارض والدعائم ، حتى انتهت أخيراً الى كيان علمي منظور .. فكان اشبه بانسان مجهول أخذ يمر قلمه هنا وهنا ، ثم لا يلبث ان يؤلف من خطوطه المبعثرة صورة معبرة ، تكاد تنطق بكل ما في نفسه من تطورات وما في روحه من مواهب ..

لقد حدد معاني الحضارة ومصادرها وبواعثها ومركباتها ..

وسافر بنا عبر التاريخ الى مصر فالهند فالصين فاليونان فالقدس فبغداد فدمشق .. ثم صار بنا الى عواصم اوروبة واميركـــة وروسية حيث تتصارع تيارات الحضارة الحديثة .. واضطر خلال ذاك الى عرض بعض النصوص القديمة بلغاتها الاصلية ، ثم ترجمتها باسلوب فيه من الحياة ما يهز المشاعر ، فيجعلها تعيش معانيها بكل طاقاتها الادراكية ..

وقد برزت خلال حديثه نزعاته الروحية اذ كان شديد الالحاح على ربط الامن البشري بالتعاليم الآلهية ، التي كانت وستظل بنظره أقصر طريق الى الحضارة الصحيحة السعيدة ..

وطبيعي ان لا يتساوى الحضور في قبول احكامه واستنتاجاته ، ولكنهم كانوا سواء في الاستمتاع بطريقته ، والانتفاع بمعلوماته الدقيقة الواسعة ، ولذلك أقبل معظمهم عليه يصافحه عند انفضاض الاجتماع .

وكان علي أن أبقى مع اثنين من الاصدقاء عند صاحب الدار اذ كنا ضيوفه ، وسرني ان يتخلف داوود عن القوم لامر يبدو انه قدم في الاصل من اجله ، فأعدت استيضاحه حول بعض النقاط من حديثه ، وتمنيت عليه لو انه يزورني في طرطوس ، وهي قريبة من صافيتا ، فقال : حتى الآن لم أجد مقري النهائي ... ولعلي أجد في طرطوس عملاً ما يقي نفسي ذل الحاجة لغير الله ..

وكانت مفاجأة اخرى ان يكشف لي الرجل بهذه السرعة عن ذلك الجانب الخاص من نفسه ، وآلمني ان يكون انسان في الستين من عمره وفي مثل هذا الضعف الشديد ، مضطرا الى البحث عن القوت ! .. ولم اعرف ما يجب ان اقول له .. وكان صديقنا قد عاد من تشييع زواره فالتفت داوود اليه يسأله : هل تم شيء ، بشأن الارض ! .

واجاب صديقنا : لم اجد فرصة للتفكير بها . على كل لست في حاجة اليها ، وسابحث لك عن شار ..:

وعاد داوود يقول : « اكرر ما سبق ان ذكرته لك . وهـــو انني لا ارضى اية زيادة عما تساوي ، وكل ما أتمناه هـو ان يتاح لي من ثمنها رأس مال يمكنني من عمل صغير .. »

ـ واي رأس مال تأتي به ارض لا تعدو مساحتها الدونمين ، ولا تتجاوز اشجارها الثلاثين !

ـ ولكنه على كل حال يعتبر شيئا حسنا لرجل يقنع بالكفاف ..

ـ حقا .. انها لقناعة عجيبة ان ينتقل الانسان من جـو الملايين الى حدود المئات ، ولا يجد في ذلك اية غضاضة !!

ـ ولم لا ! .. لقد جئنا هذه الدنيا عراة . ونفارقها كذلك .. وكل ما نحرزه منها بين المهد واللحد احلام عابرة ، لا بقاء لها لاحـــد ، ولا يستحق فقدانها اي اسف ! ..

وهنا انصرف صديقنا الي بوجهه ليقول : ان حياة داوود لقصـــة غريبة .. لقد سجلت ثروته في البرازيل ارقاما خيالية ، ولكن مؤامرة غادرة احالتها حلما محزنا لا اثر له خارج نطاق الذكـرى .. وكان له هنـا ارث من والده ، لو بقي لكان جديرا ان يجد في مورده بعض العزاء ، ولكنه لم يبق لأن والدته لم تر ضرورة لاستبقائه . فطار مع الامـــوال الكثيرة التي تلقتها منه ايام رخائه .. ولا عفلتها عن هـذين الدونمين لما وجد اليوم ما يساوم عليه ..!

وكان داوود يصغي الى كلمات الصـديق في فتور غريب ، كان لا علاقة له بها . ولم يكن بد من ان يعقب عليها بشيء فقال : ومع ذلك ليس من حق هـــذا كله ان ينسيني الحظ الكبير الذي بقي لي من رحمة الله .. »

وتدخلت في الحديث مستوضحا : هل لي ان اعلم ما تريد ؟!..

قال : نعم .. انه النور الذي اخرجني من الظلام . لقـــد غادرت الجامعة الاميركية في بيروت الى البرازيل فراراً من اخطار الحرب العالميـة

الاولى ، وكنت في طور المراهقة لا اكاد اثق بشيء ، ولا اعلم عن الحقائق الآلهية الا ما صب في أذني بطريق التلقين .. ثم شاء الله ان يملأ يدي من المال ، ويضيء قلبي بالحق ، ثم شاء كذلك ان يسترد هبته من الحطام ، ويبقي لي نعمته من الهدى . وها انذا اعود الى بلادي فارغ اليدين من الذهب ، ولكني مملوء الصدر بالاطمئنان .. اجل .. انني اعود ومعي القرآن . . فاي قيمة لاموال الارض بعد القرآن !! .

٣

لم أستطع فصل نفسي عن قضية داوود طوال ذلك اليوم ، فلث حديثه وصورته ورجفة يديه ونظرته الحنون ،طبوعة على ذاكرتي . وفي غير انتباه وجدتني أردد بعض كلماته ، فيؤلف ذلك كله في أعماق نفسي صورة لا أستطيع محوها صورة حكيم اسطوري يتراءى لعيني من وراء القرون ، وقد صفت نفسه من شوائب الرغبة والرهبة ، وانثالت على لسانه تجارب الانسانية ، في كلامٍ يفارق كلام الناس بما له من طعم ، وما عليه من وهج ..

ولما أويت الى فراشي عقيب فراغ مضيفنا من الزائرين ، وجدت الفرصة موانية لبعض الاستفهامات ، فقلت له : انني شديد الاعجاب بداوود وشديد الاسف لانني لا أستطيع عمل شيء من أجله .

قال مضيفي ، وهو يأخذ مجلسه بجانب فراشي : ولو علمت تفاصيل قصته لازددت اعجاباً وأسفاً . . ثم راح يتابع : لقد بدأ عمله في المهجر تاجراً صغيراً بمساعدة بعض مواطنيه هناك ، وباستقامته وسعة اخلاقه استطاع الاستحواذ على ثقة الذين عاملوه من كبار التجار وصغار الباعة ، فأقبل عليه الحظ ، حتى أصبح في العشر الاولى من سني هجرته بين الاوائل من تجار القهوة في البرازيل . وتزوج .. الا انه لم يرزق الولد ، وبذلك ، سلكت عواطفه الابوية طريق الحب للاخرين ، فشارك بالمؤسسات الخيرية ، ولم يغفل اقرباءه من كل عون ممكن .. ووامى

الاجل اباه عقيب الحرب ، فنظم لامه وكالة تطلق يدها في حصته من التركه ..

وذات يوم جاءته رسالة من قريب يشكو ولداً له ، زلزلته نوازع المراهقة ، فترك المدرسة ، وركب رأسه ، فهو يسأله اذا كان يرى من الخير استقدامه اليه للعمل تحت رعايته ، فلعل تغير الوسط مساعد على انقاذه من هذه الفوضى ..

وخيل الى داوود توما انه يستطيع تقديم خدمة طيبة لقريبه فتيسر لابنه سبيل القدوم ، وانزله خير منزل ، وحمل يدربه على العمل ، ويعده لادارته .. وفي جلسه منزلية فاتحه امام زوجه بانه سيعهد اليه بتجارته كلها .. عندما يطمئن الى انتظام امره كما يجب .

وكان داوود في حاجة الى رفيق صالح ، يحمل عنه بعض اعباء تجارته ، اذ لم يعد قادرا على اعطائها نفسه كلها . لقد كان في قلبه هوى للمعرفة حمله معه من الشرق ، كما حمل خصائصه الاخرى .. وبالرغم من مشاغل التجارة ، لم يستطع الا ان يتعهده بالمطالعة الدائمة لكل جديد من نفيس الكتب ، ولو اتيح لك ان تزور مكتبه الخاص في متجره آنذاك لرأيت عليه سجلات الحساب والبضائع ، مقابل اكداس الكتب .. وللفت نظرك بوجه خاص اصناف المؤلفات الدينية تحتل رفا مستقلا على يمينه بمحاذاة الصندوق الحديدي وخزانة الاضابير . وهي مؤلفات لا تختص بدين واحد ، ولا تقتصر على لغة واحدة ..

وقد حدثني هو عن مبدأ اتصاله بالقرآن ، فقال : انه عرفه لاول مرة عن طريق احدى الترجمات الفرنسية ، وكان قد قرأ عنها إطراء مغريا في مجلة عالية ، فاقبل عليها يطالعها في وعي وتمحيص ، كشأنه في كل ما يقرأ ، غير انه سرعان ماصيب بصدمة مزعجة ، اذ وجد في هذه الترجمة اموراً لا يقبلها عقل ولا يستسيغها ضمير ، ورأى ان يعود الى الاصل العربي ليقابله مع الترجمه ، فاذا هناك بون شاسع قد يكون مرده الى ان صاحب الترجمة لم يستطع التحرر من مقاييس بيئته ، او لم يستطع الاتصال بروح

التركيب العربي في القرآن ، فاسلمه ذلك الى هذا الانحراف كله .. ومن هنا سلك داوود طريقه الى القرآن ، فكثر به اتصاله ، وراح يعقد المقابلات بينه وبين الكتب المقدسة الاخرى ، وكان هذا كافيا لتدله بالمعاني القرآنية ، وتتبع احكامها ، حتى بات ، كما لاحظت ، يرى الغنم كله في ما وصل اليه من هذه الحقائق .. على ان هذا قد استتبع في نفسه تطورا آخر ، اذ نمى في عقله نزعة التحقيق ، فامسى لا يطمئن الى فكرة الا ان يقرأها في عبارتها الاصلية ، كلما وجد الى ذلك سبيلا . وطبيعي ان يؤدي به هذا الى الاستكثار من الدراسات اللغوية ، حتى اصبح على هذا الالمام الواسع بمختلف الالسن .. »

وامسك مضيفي عن الحديث ليصب القهوة التي جاء بها الخادم ، ثم قال : غير ان هذا الاكباب على العلم ، الى جانب تلك المشاركات الاجتماعية ، التي كان يسهم بها في عدد من المؤسسات ، لم تلبث ان طغت على اهتمامه بزوجه ، واصبح كثير الغياب عن المنزل ، تمر الايام لا يعود اليه الا في ساعة متأخرة من الليل ..

ولك ان تقدر النتائج التي ستعقب هذا الوضع ..

ان هناك فتى لم يتخلص بعد من ضغط المراهقة .. وامرأة تشعر بأنها مسلوبة الحق ، لا تنال من عناية الزوج ما يروي عطش القلب المتفتح الى الحياة ..!!

وهكذا انتهى الامر اخيرا الى قراره الطبيعي ، في ذلك البيت الذي شاء القدر ان يكون مسرحا لاسوأ الفواجع . ثم هذا يوم تلقى صدر داوود ، على مدخل داره ، وفي منتصف الليل ، اربع رصاصات ، استقرت احداهن في معدته ..

وظن القاتل ان فريسته قد انتهت ، فتركها تعانق الارض ، ومضى ليخبر الشرطة بأن مجرما قد اطلق النار على نسيبه فأرداه . . .

غير ان نفس داوود لم تكن قد استوفت اجلها بعد ، فنقل الى حيث تدارك الاسعاف بقية الحياة في صدره ..

ولقد استهلكت المعالجة من عمره عشر سنوات ، كانت كافية للقضاء على امواله ، التي تقاسمها الاطباء والمحامون ... والسارقون .. وحتى القاتل نفسه لم يكن احسن حظاً ، اذ قضى في السجن بضع سنين ، ثم غادره قبل استيفاء مدة العقوبة بسبب فقدانه عقله ، ولم يلبث بعد ذلك إلا قليلا حتى اجهز على نفسه بالانتحار حرقاً ..!

وهكذا كتب على داوود ان يجد نفسه اخيراً فارغ اليدين من كل قوة . لقد خسر ماله ، فعاد كيوم وطئت قدمه ارض المهجر .. وخسر صحته اذ اصبح نصف ميت ، لا يكاد يستطيع الحركة إلا في مشقة .. وبات مستحيلاً على محطّم معمود مثله ان يستأنف عملاً أياً كان نوعه في اميركة ، فلم يجد بدا من العودة الى وطنه ..

على انه لم يكد يصير الى مسقط رأسه حتى واجهته بقية المأساة ..

٣

وتوالت السنون على ذلك اليوم .. وفقدت رؤية داوود الا مرة واحدة ليلة زارني على غير موعد ، فكانت فرصة عزيزة استمتعت فيها بطرائف من الحكمة لا أزال انعم بذكراها حتى الساعة .. وفيما بعد علمت انه انتدب لتدريس بعض اللغات الاجنبية في احدى الثانويات ، ثم انقطعت عني اخباره ، حتى جاءني زميل لي من اقربائه يبلغني نبأ موته قبل قليل ..

ولقد احزنني نعيه يومئذ .. مع انني لا ارتاب في ان وفاته كانت له راحة ، إذ جاءت خاتمة ضرورية لمأساة طويلة . ولكن

الذي احزنني انه عاش بقية حياته غريباً مجهولاً حتى بين اقرب الناس اليـــه .. !

وانني لأتصوره ، وهو محمول الى مثواه الاخير ، في موكب متواضع لا يتجاوز افراده اصابع الكفين ، فتطالعني من خـــلال ذلك صورة موجعة .. صورة الجهل .. جهل الناس لقيمة هـــذا الحكيم ، الذي كانوا في أمس الحاجة الى الاستضاءة باشعاعه الروحي العميق .. والانتفاع بتجاربه الانسانية الكبيرة .

الرحمة السوداء

كان مزعجاً ذلك النبأ الذي شاع عن مقتل (أ . ر) ومما ضاعف اهتمام الناس به ما أفرغوه على حادثة الاغتيال من الوان قصصية مغرية ، والثابت ان الرجل كان على فرس له في الطريق بين قريتين ففوجيء بكمين خرج عليه من بين الشعاب وتبادل واياه اطلاق الرصاص ثم انفض القتلة بعد ان تأكدوا من مصرعه ...

أما اسباب القتل فقد لبثت مجهولة لم تستقر منها الظنون على واحد ، وتفاوت الناس في تقديرها ، ولكن أقربهم الى بيئة القتيل كان يردها الى عوامل عشائرية محضة ... ومن حقه ان يفعل ذلك لان المطلعين على اوضاع تلك البقعة من حكومة اللاذقية ـ ايا مذاك ـ كانوا على علم بالخصومة الحادة التي تحتدم بين القتيل ومنافسيه من آل (خ ..) وقد شاهدوا من مراحل تلك الخصومة وتطوراتها ما جعلهم يتوقعون كل شر ، ويترقبون بين يوم وآخر انفجاراً لا ينتهي دون دم ، لذلك انصرفت اذهانهم فور شيوع النبأ الى آل (خ ...) وأخذوا يحوكون القصص حول مقدمات يحسبون انهم رأوها أو سمعوا بها ... وبالطبع لم يخل بعض هذه القصص من أوهام لا وجود لها خارج تصوراتهم ...

وكنت أحد الكثيرين الذين آلمهم مصرع الرجل ، ذلك لانني عرفته كثيراً ، وكاد يكون لي صديقاً ، ومما قربه الى نفسي تلك الصراحة البريئة التي كانت احدى مميزاته ...

سألته ممازحا قبل أيام من مقتله عن حقيقة مهمته في مجلس الادارة ، وكان ينظر في اصابعه وهو يعبث باظافرها فقال ، وقد جللت وجهه المهيب الناصع البياض ابتسامة خجلى : (أتريد ان نكذب !.. والله لسنا في يد الحاكم الاجنبي اكثر من خصية بغل يشد بها ساعة يشاء فتتحرك كما يشاء ...)

كان واحداً من الكبار الذين يقع عليهم اختيار الفرنسيين لتمثيل طوائفهم في مجلس الادارة ـ البرلمان المحلي ـ وهو اختيار يكلف هؤلاء الممثلين من المتاعب أكثر مما يقدم لهم من الفوائد ، ذلك ان الفرنسيين الذين يدفعون الرجل الى ذلك المنصب هم انفسهم الذين يدفعون غيره الى منافسته ، فيمدون هذا وذاك بالتشجيع والاغراء ، حتى تستحيل بيئة الرجلين الى جحيم من الخلاف الذي لا ينتفع به سواهم ، لأن كلاً من الفريقين يحاول استرضاءهم والاستمداد من قوتهم ... وبذلك تتابع الاحداث ويطرد الاستغلال حتى يصبح كل اصلاح لذلك الفساد مستحيلاً .

وفي منطقة (ا . ر) بالذات وجد الفرنسيون ظروفاً صالحة لاستعمال القوى التبشيرية كعامل فعال لتركيز دعائم استعمارهم الى الأبد ... فاقيمت المؤسسات الصحية والمدرسية ، وتقدم رجال الدين يساومون الاهلين على تغيير دينهم مقابل ضمانات مغرية ، وفي الوقت نفسه عرفوا مواطن الضعف في صفوف القوم فنفذوا اليها يوسعونها في كثير من الحذق الذي عرفوا به ، فاذا العشيرة الواحدة عشائر ، واذا الاسرة المجتمعة مزق مبعثرة ... ثم لا يجد كل من هؤلاء واولئك سبيلاً لصيانة نفسه من الآخرين الا باللجوء الى حماية هؤلاء الطيبين من رجال الدين ...

وكانت الخطة الاستعمارية محكمة الى حد لم يفته تقدير كل شيء ، والاستفادة من كل شيء ، وفي مقدمة ذلك احتضان هؤلاء المغيرين لدينهم ، واحاطتهم بكل وسائل الكرامة ، فما هو الا ان يقبلوا تسجيل اسمائهم وابنائهم على الدين الجديد حتى تغمرهم النعمة في المسكن والكسوة والتعليم والرعاية الصحية ، وما الى ذلك ،

وفي هذا وحده ما يكفي لاغراء المترددين بالاقبال على هذا الخير الذي لا مطمع لهم بمثله الا عن هذه السبيل .

والحق ان (ا . ر) لم يكن براض عن ظهور هـــذا العنصر الجديد في منطقة نفوذه ، لسبب بسيط هو يقينه التام بان خروج أي فرد من عشيرته الى دين المبشرين سيفقده كل سلطان عليه ... يدري ... فقد يأتي يوم قريب او بعيد لا يبقى له بينهم من يقول له مرحباً !..

ومن هنا جاءت معارضته للحملة التبشيرية ... فهـــو وان لم يتحمس لمقاومتها ، ولم يجابهها بالعداوة الصريحة لم يبد عطفه عليها ، ولم يقدم اي عون أول الامر ... وهذا وحده كاف لجعله غير مرغوب فيه ، لا في نظر اصحاب الحملة ولا في نظر من وراءهم من الاجانب .

وفي غمرة ذلك الصراع الخفي شاءت المقادير ان يعقد مؤتمر طرطوس لبحث قضية الوحدة والانفصال عام ١٩٣٦ وقد جاء ذلك المؤتمر نتيجة مخاض طويل من التطور الاجتماعي جعل للجيل الجديد من شباب الجبل في حكومـــة اللاذقية أثره البارز في توجيه الافكار ، وفي صد التيارات الرجعية التي سبق لها ان وضعت الاكثرين من آبائهم في خدمة الاهداف الاجنبية ...

وكان المؤتمر فرصة طيبة لم تلبث ان ميزت الوجوه وصنّفت العاملين في حقل السياسة ، فاظهرت كل فريق في وضعه الصحيح ...

ولم يستطع (ا . ر) ان يكتم حقيقته يومذاك فاذا هو يعلن موقفه في صف الداعين الى وحدة سورية دون اي قيد او شرط ...

وطبيعي ان يكون لذلك اثره الهام في موقف الجهات الاستعمارية من الرجل ، فتتربص به الدوائر ، وتستغل الخصومة القائمة بينه وبين اقربائه اشد استغلال .. ولكن الظروف التي طرأت على البلاد عقيب معاهدة عام ٩٣٦ حدت من سلطان الفرنسيين الى حين ... وبذلك تاخر موعد الانتقام من العناصر الخارجة عن طاعتهم حتى استطاعوا تنظيم انصارهم وتركيز طاقات الموالين لهم بشكل مكنهم اخيرا من نسف المعاهدة والعودة إلى الحكم المباشر .

وكذلك كانت المعركة الجديدة فرصة اخرى لتثبيت التصنيف النوعي ، للفئات المتصارعة ، فوقف كل فريق في جانب فكرته ... وكان لرجال الحملة التبشيرية دورهم البارز في المعركة اذ حشدوا لها كل طاقاتهم في سورية ولبنان فنازلوا الحكم الوطني بالمنشورات المطبوعة في بيروت تحمل اغرب فنون الاختلاق ، ودفعوا بالماجورين للانقضاض على هيبة السلطة الشرعية يبارزونها بكل وسائل التهديم والتشويه ... حتى اذا وافت سنة ١٩٣٩ باعلان الحرب الثانية دخلت البلاد في هدنة جبرية ، وقفت قادة النضال الوطني فيها يترقبون اثر التطور العالمي في مصير وطنهم وقضية امتهم ....

اجل ... لقد جمدت الحرب العالمية كل ضروب النشاط السياسي في البلاد الى حين .... ولكن رجال التبشير وحدهم ظلوا محتفظين بأسلحتهم يدبرون للغد ، ويركزون الامور في وعي لكل شيء .

وفي هذا الجو المنظم برزت شخصية (خ ..) بقوة ... واخذت عناصر كبيرة من العشيرة تتألب حوله على صورة لا يرى فيها خصومهم الا ضربا من التحدي البعيد المدى ... وكان لدى (خ ..) قوة ذاتية لا مثيل لها عند خصومه ... اذ كان حوله من البنين ثمانية فتيان كلهم يحسن خوض المعارك واستعمال السلاح ، وهي كقوة ضاربة من شأنها ان تردع وتجمع ، من ناحية تشكل طاقة متماسكة اشبه بالعمود الضخم يملأ العيون روعة وهو قائم ، فاذا اهوى ملأ القلوب رهبة ووجلا ... ومن ناحية اخرى تغري الضعفاء بالالتفاف حولها ايمانا بجدوى ذلك التماسك ، وثقة بما هو جدير ان يحققه من التفوق المحترم ... فاذا اضيف الى ذلك عطف رجال التبشير ومن وراءهم على جماعته ، وما في ذلك من ايحاء بتحقيق الامتيازات والمنافع العاجلة لمؤيديه ، حصل من ذلك يقين بان الجبهة المنافسة ل (ا . ر) قد اصبحت تشكل خطرا على نفوذه ووجوده جميعا ..

ومن هنا كان على المحققين ان يبدؤوا عملهم اذ ينظرون في ظروف

الجريمة ... وهذا مايسر لهم ان يضعوا ايديهم دون جهد كبير على (بعض) المتآمرين والمنفذين ... ثم ينتهي الامر باعدام واحد من ابناء (خ ..) والحكم على الاب وواحد من بقية اولاده بالسجن عدة سنوات .. ثم لا يلبث أن يوافي الأجل ذلك الابن السجين ، فيلحق بأخيه على مشهد من الوالد المفجوع ...

٢

لا جرم ان الكارثة كانت اكبر من تفكير الذين قاموا بمباشرة تنفيذها، ولو أتيح لأحدهم فسحة من التقدير السليم لهرب من تصور نتائجها فضلا عن المشاركة في اشعال الفتنة والتعرض لهذه النتائج التي ما تكاد تنتهي ...

لقد كان شديد الانحدار ذلك الطريق المظلم الذي دُفع اليه من الخطوة الاولى اولئك المساكين .. أشبه بعقب دخينة يلقى من نافذة على غير تقدير ، فما هي سوى لحظات حتى يكون الحريق الذي يكتسح المدينة ..

وهكذا بدأ الخلاف بين (ا . ر) و (خ ..) مشاكسات كلامية عن بعد ، وتولى أهل الخير تضخيمها فلم تصل الى الطرف الآخر الا بعد كثير من التحوير المثير ... وجاءت الايدي المرنة فحاكت من الكلمات حبالا ومن الاشارات حبالا ، حتى وافى اليوم الذي نسفت فيه جسور الاصلاح ، فلم يعد امام المقدم سبيل الى الانسحاب ..

وكان في نفس (خ ...) شعلة من أمل لم تزايله في أحلك ظروف المحاكمة ... أمل بمجهول يكاد يسمع صوته يهتف في أعماقه : قليلا من الصبر ... فلن ندعك .. لذلك ظل متمسكا بجلده حتى حين سمع حكم القضاء بالاعدام والسجن ... ولما جاءه النبأ بتنفيذ الحكم في ولده أصر على تكذيبه ، لأنه لا يريد ان يفقد ذلك الامل الذي ما كان يتصور ان الحياة ممكنة بدونه على ان الزمن هو وحده الكفيل بتغيير الوقائع ، وتضميد جراح الفجائع ... فما هو الا ان تثبت من الامر حتى سقط في يده ، وادرك انه كان مخدوعاً ... مخدوعاً بغير شك ... ولكن ما العمل ، وما يجديه ان يعلم بهذه الخدعة بعد

فوات الوقت المناسب ؟...

وكان متعذراً على (خ ..) ان يحني رأسه للعاصفة، ان الصبر من شيم الرجال، ولئن فقد ولدين، وقضي عليه بالسجن كل هذه السنين، فلا ينبغي ان يضيف الى مصائبه تلك فقدان السمعة حتى يقول أعداؤه: لقد أذللناه ... وحطمنا رجولته ... كلا .. ان عليه ان يكون أشد جلداً، ولموت أولاده جميعاً وهو على رأسهم أهون من ان يلمح عدو دمعة في عين واحد منهم ..

وتولت الايام تعزية (خ ..) حتى ألف واقعه الجديد .. واستطاع ان يصمد للنكبة مدة الحكم دون ان يلوح عليه أي تذمر أو تململ. وعندما حان موعد الافراج عنه أبى ان يدخل قريته الا في موكب فخم يشعر كل عدو انه لم يزل كأمسه الغابر يملك جميع الوسائل التي تحفظ له مكانته ..

وعلى مبعدة أميال من القرية من عشرات من أنصاره في العشيرة، وفي مقدمتهم أبناؤه الستة ينتظرون وصوله.

وترجل (خ ..) من السيارة يصافح الوافدين لاستقباله، وقبل ابناءه في حنان عميق .. ثم امتطى الفرس التي جيء بها اليه، ومضى على رأس الجميع يحف به مجموع ابنائه، الذين اخذوا مع رفاقهم يملؤون الطريق بالاهازيج، وبالطلقات يرسلونها من بنادق الصيد بين الفينة والاخرى ... وبدا (خ ..) في طليعة الموكب كعهد الناس به من قبل ... لم يفقده السجن الطويل والفجيعة الكبيرة بولديه كثيراً من تلك الروعة التي طالما تحدث بها الناس ... ان قامته لا تزال في امتدادها الذي يعلو به كل من حوله، وان بدا عليها بعض الانحناء الخفيف، واثقلها قعود السجن بشيء غير قليل من اللحم الذي لم يعهد له مثله ... ولم يبارح عينيه الواسعتين بعد ذلك البريق الصارم الذي طالما سيطر به على ابنائه واتباعه .. وصحيح ان شعرات بيضاء قد

بدأت تطل في شاربيه الغليظين ، وخلال حاجبيه الكثيفين البارزين . . غير ان هذا كسب له جديد ، اذ يضفي على وجهـــه الابيض الذي لا يزال خالياً من التجعد صورة من الوقار المهيب الذي من شأنه ان يضاعف جمال القوة ..

وظل موكب (خ ..) يزداد تكاثفاً بما ينضم اليه من اهـل القرى المجاورة حتى انتهى الى قريته التي خرجت جميعهـا للمشاركة في الاستقبال ...

وعندما وطىء عتبة الدار كانت عشـــرات الطلقات من بنادق البارود تصفع الهواء ... وتعالت اصوات النساء ترتجـل الاغاني القروية في تمجيد القادمين ... ولكل أغنيـة قرارهـــا الملائم من الزغاريد ..

٣

لم ينته الاستقبال بدخول (خ ..) داره ... بـل لم يستقر في بيته حتى استؤنفت الاحتفالات في الساحة القريبة ، حيث قدم الطعام للجموع ، وأديرت اواني الخمور ، ثم عقدت حلقات الدبكة التي انتظمت الشباب والصبايا ، فراحوا يتمايلون على دوي الطبول وزعيق المزامير . . . وظل ذلك الى ساعة متأخرة من الليل حيث بدأ الناس بالانفضاض ... ثم ما لبثت الساحـة ان اقفرت من آثارهـم ليبسط عليهـا الليـــل جناحيه ...

ونام كل شيء في القرية ... إلا هذه الدار .. التي لم يفكر احد ممن بقي فيها بالنوم ، وكان ذلك طبيعيـــاً ، لان افراد الاسرة لم يتمكنوا من التفرغ لانفسهم قبل ان ينفض المهرجان .

وكان (خ ..) في امس الحاجة الى مثل هـذه الخلوة ينفرد فيها باهله ، ليتعرف منهم اخبار الناس ، وما هو في شوق الى معرفتـه مما لا تستطيع تعبيراً عنه كل هذه المظاهر ... وهو الى ذلك كان يستشعر

ضيقاً في الصدر لم يفارقه طوال هذا النهار ، وما يدري سبباً له إلا ان يكون من التعب الذي عاناه في هذا الاستقبال ...

واشار الرجل الى ابنائه وبقية اهل بيته بالسكوت ... وملأ صدره بمصة كبيرة من الدخان ، وبرم طرفي شاربيه الاحمرين الكثيفين ، ثم وجه كلامه الى زوجته قائلا : كيف حال الجماعة ؟ ....

وتنفست المرأة طويلا قبل ان تجيبه : ذقنا منهم المر ... ولكن اليوم ... شفينا الصدور ... ودفع (خ ..) في جوفه دفقة من العرق الصرف كبيرة ثم واصل : والاب ك ... وبقية الشلة ... كيف شانهم ؟!

وهنا ضجت الغرفة الكبيرة باللغط .. وبصعوبة فهم الرجل من زوجته هذه الكلمة : . « لقد نسونا تماما .. وهم مع (الجماعة) بكل صراحة .. »

فلم يبد على الرجل اي اثر للاستغراب وقال : « عرفت هذا من زمان ... إيه ! ... لقد خدعونا طويلا ... ولكن ... »

ولم يشأ الاسترسال في هذا الحديث الموجع ، وهو احوج ما يكون الى تناسيه ؛ ورأى أن العودة الى الصخب والغناء اجدى في معالجة ذلك التوتر الذي يعتمر صدره ، ولذلك اشار الى من حوله بطي ذلك البحث ... واستئناف مهرجانهم الخاص ...

وانطلقت هنا حناجر القوم ترتل في نغم صاخب مقاطع حماسية من النظم الشعبي المثير . . وشرعت الهتافات تنطلق بين مقطع ومقطع بحياة القادم المنتصر . . ودوى الفضاء مرة اخرى بازيز الطلقات النارية يرمي بها الهواء من النوافذ ممزوجة بالزغاريد ...

.. وكانت الساعة قرابة الثانية قبل الفجر عندما شم (خ ..) رائحة التبن المحروقة تتصاعد من تحت ... وما هي الا لحظات حتى ملأ الدخان فضاء القاعة ، وراح يثير السعال في الحضور جميعا .. وسمعوا طقطقة متتابعة كأن اشياء تحترق ...

وتحرك كل من هناك يفتشون عن مصدر النار . واتجه اثنان من الشباب

الى السلم الخشبي يريدان ان ينحدرا الى القبو لاطفائها .. فاذا طلقات متتابعة من الرصاص تحصدهما حصدا فيهويان على رأسيهما الى صحن الدار جثتين هامدتين ...

وهنا فقط أدرك الحضور هول المفاجأة وعرفوا ان العدو قد حصرهم بين النار والرصاص ... فلا منجاة لهم الا بمعجزة !...

وبدأت أرض الغرفة تتساقط بعد ان التهمت النيران أخشابها من أسفل ، فلم يبق الا ان يقذف كل بنفسه من احدى النوافذ .. ورأى (خ) أحد أقربائه يهوي به الخشب المحترق الى أحضان النار .. فلم يجد بداً من الوثوب الى الخارج كيفما كانت النتيجة .. وألقت الزوجة بنفسها وراءه .. واسعفتها قوة غير متوقعة فاندفعا نحو الفضاء .. مبتعدين عن ألسنة النار .. ولكن الاجل كان ينتظرهما غير بعيد ... فاستقبلا حتفهما ذبحاً بيد مجهولين ..!

وأقبل أهل القرية على صوت الرصاص ، وعلى ضوء اللهيب .. بيد انهم لم يجدوا الا رائحة الشواء .. وركاما من الحجارة تأكلها النيران .. التي اخذت تزحف نحو القرية ، فكان عليهم ان يبادروا الى درء الخطر الماحق عن بيوتهم قبل ان يسألوا عن أسبابه ونتائجه وضحاياه ...

★ ★ ★

وطلع صباح ذلك اليوم غائماً ملفعاً بكثيف من الضباب الخانق .. وكان الناس يتحدثون بالجريمة الجديدة التي ذهبت بخمس أنفس .. فلم يبق من اسرة (خ) بعدها سوى ثلاثة فتيان وثلاث بنات شاء القدر لأمر ما أن يكونوا خارج منطقة الموت ...

وكرت الايام في سيرها نحو المجهول ... وجاء يوم لم يكن متأخراً جداً رأى الناس فيه اولئك المتخلفين من القافلة يلوذون بحماية اولئك الرهبان الطيبين الذين استطاعوا ان يظللوا برحمتهم السوداء البقية الباقية من كلا الجانبين المتخاصمين ...!

حرمان ...

« ... دالله ... دالله ... ياحبيبي ... قم الى رزقك ... لم يبق في النوم الا الوطاويط ... »

ولم يكن دالله ـ وهو مختصر عبد الله ـ نائما ، بل انه محروم من النوم منذ اكثر من ساعتين ، منذ ان تلقى سمعه صوت المؤذن القريب وهو يطلق تسبحاته من اعلى المنارة القريبة بعد منتصف الليل ، ولعله كان يتمنى لو يستطيع شغل نفسه عن هذا الارق بمثل عمل هذا المؤذن ، الذي ربما كان الدافع له الى ذلك التسبيح محاولة الهرب من مثل هذه الهواجس التي تؤرقه ...

وتوك لجدته العجوز ان تعيد عباراتها التقليدية ، وهي تهز كتفه لينهض الى عمله المملول ... ولكنه اضطر اخيرا الى فتح عينيه لينظر اليها وهو يقول :.. احرام علي « ان اشبع من النوم ولو يوما واحدا ! ... ولماذا تريدني على النهوض في هذا الوقت ؟ .. اليس عندك بقية من طعام امس تكفينا طوال اليوم ! ... والله لقد اصبحت اكره كل شيء ... الصنارة ، والقصبة ، والبحر ، والسمك .. والنهوض الباكر ... هذه الاشياء التي لا ارى غيرها كل يوم .. »

ولم تكن العجوز بحاجة الى الاهتمام بهذه الثرثرة ، فهي المعزوفة المألوفة في كل صباح ، لذلك اخذت في رفع الغطاء عنه وهي تقول بصوتها الجاف البارد: عز ايجيك يادالله .. اشكر الله ان آتاك الصحة ، وهيأ لك القصبة والشص ... والبحر والسمك ... ولولا هي لأكلني واياك الجوع .

ولم يبق له مندوحة من القيام فرفع رأسه ، ثم اخذ يدفع جسمه عضوا فعضوا في طريق النهوض ، ولبث دقائق مقعيا في فراشه يضع رأسه على راحتيه ، كانه يخشى ان ينقطع حبل تصوراته ، حتى اذا اخذ قسطه من الاستجمام جعل يتحرك في بطء كثير حتى استوى على قدميه ، ورفع ذراعيه الى الاعلى ، ثم مدهما بموازاة كتفيه ، ثم اطبق اصابعه وراح يلوح بساعديه الهزيلين في الفضاء كانه يهدد مجهولا .. ومن ثم غادر الفراش الى فضاء الدار الصغيرة ليقضي حاجته ، وبعد ذلك عاد ليصب على وجهه من الابريق الذي اعتاد ان يجده بانتظاره في مدخل الغرفة .. وما هي الا لحظات حتى كان دالة متنكبا قصبته المديدة . يجتاز الصخور الفاصلة بين الدار الحقيرة والبحر ... وهناك وضع كرسيه الخشبي القصير الذي الف صحبته كل صباح ، وجعل يفتش عن بعض الحشرات البحرية التي تصلح طعما للشص ، ثم لم يلبث ان طوح به على مدى الخيط ، بعد ان طوح بعض كسر الخبز على سطح الماء .. ومن ثم اخذ مجلسه على الكرسي بانتظار الرزق .

ويظهر ان وضعه النفسي قد تبدى المألوف هذه الصبيحة ، فهو لا يزال على الحال التي كانت تعذبه منذ منتصف الليل ، وقد اصبحت ذاكرته كالصفيحة التي ابلى اسفلها الصدأ ، فاخذ الماء يتسرب من حوانبها على غير هدى ..

ان الصور لتختلط في ذهنه دون ترابط ... صور السفن الماخرة بعيدا بعيدا .. صور الاسفنج يموج على وجه القاع كانه المنديل الموشى على جبين (الدهمة) ينت الجيران .. صور المقاهي الشتوية يغيم فضاؤها بضباب التراجيل البراقة .. وصور اللحوم الشهية منضودة من اسياخها على الجمر .....

انها لصور عجيبة لا يدرى كيف انسع لها رأسه ، ومن أين جاءته الا ان تكون من صنع الحرمان الذي ما برح ينيخ صدره على منذ فتح عينيه على الدنيا ...

لقد ابتلع هذا البحر الجبار أباه قبل خمس عشرة سنة ... ولم يكن ذلك بالحدث الغريب في هذه الجزيرة التي لا يعرف فيها داراً نجا أهلها من نكبة بغريق ،

فكأن للبحر حقاً في سكانها لا بد من ادائه قرب الوقت أو بعد ... وهو قدر كتب عليها منذ ربط القدر بين أهلها وهذا البحر ، فجعل رزقهم بين مخالبه فيسير عليهم حينا فيغمرهم بالخير حتى لا يعرفون كيف يتصرفون به ، ويشح عليهم أحياناً فتضيق بهم حدود الدنيا حتى لا يكادون يهتدون الى منفذ لخير . وقد أفرغ هذا الواقع على نفوسهم صفات مميزة لعل من أبرزها روح المغامرة التي تجعلهم يقدمون على صراع البحر في شجاعة اكبر من المعهود في حياة الناس .. ثم روح الاستخفاف بالمال فلا يكادون ينالونه حتى يعمدوا الى بعثرته .. وكان جو المغامرة قد ركز نظرهم في حاضرهم فلا يعتبرون بماض ، ولا يتطلعون الى آت .. وقد علمتهم حياتهم المغامرة ان كل شيء الى تحول ، فلا رجاء بباق ، ولا شقاء بمقيم .

ولقد كان من الطبيعي ان يتأثر دالله بجو ارواد هذا فيجعله أكثر قبولاً لواقع الحياة ، وأشد انسجاماً مع هذا الواقع الذي آن له أن يألفه فلا يحس أي رغبة في التمرد عليه .. ولكن الذي يحول دون ذلك هو ان دالله لم يعرف من الحياة الا جانبها الاسود طوال عمره الذي سجل ـ في غالب ظنه ـ عامه العشرين .. وكان معقولا ان تتغير به الاحوال كغيره بين اليسر والعسر لو انه القى نفسه مثلهم في أحضان هذا البحر العريض ، ملاحاً ، او غائصاً على الاسفنج ، أو مشاركا في صيد جماعي بالجرافة أو الشباك أو المتفجرات .. ولكنه لم يتح له ان يجرب شيئاً من ذلك ، لان العجوز قضت عليه ان لا يعرف من طرائق الحياة الا هذه القصبة ذات الشص يصارع بها هذا الشاطيء منذ ان وجد نفسه قادرا على السعي .. وأني للشص الحقير ان يرتفع به فوق مستوى الفقر .. انه لثقب ضيق قد يدر عليه من الرزق ما يؤمن له ولجدته بعض الحاجة ... ولكنه عاجز عن ان يغير واقعها المظلم ... بل انه كثيراً ما يضن عليها حتى بالقوت الضروري فيضطر ان الى الاكتفاء بالهواء والماء وبعض الكسر اليابسة التي يجمعانها لعملية الصيد . ولا سيما في فصل الشتاء ، حيث تسد أبواب الرزق على سكان هذه الجزيرة ، فلا يحظى بحاجته من الحياة الا اولئك السعداء الذين واتاهم الحظ ،

فجعلوا من بيوتهم كمخازن للنمل تدخر الحبة البيضاء للايام السوداء .. وبذلك فصل الشتاء بالنسبة لهؤلاء موسم الراحة والاستجمام ، يستمتعون فيه باطايب الطعام ، واطايب الحديث يتداولونها في حلقات السمر ، سواء في البيوت او المقاهي حيث يتجمع الشباب من رفاق العمل في صفوف على محاذاة الجدران ، وقد صفت أمامهم النراجيل الذهبية في ترتيب أنيق .. ترسل زفراتها سحباً خفيفة شذية ، وتضطرب احشاءها بقرقرة موسيقية تغمر المقهى بجو من الخدر اللاذ .

ولكن الشتاء بالنسبة الى أمثال دالله - وقليل أمثاله في ارواد - هو موسم الشقاء الأشد كلوحاً انه الفترة التي يعاني فيها وجدته أسوأ ضروب الحرمان ولولا ذاك الكيس الذي اعتادت الجدة ان تملأه من كسر الخبز اليابس كل سنة لكان على أحدهما ان يأكل الآخر أو يموت كلاهما معاً من الجوع .

وعلى الرغم من سخاء الارواديين ، وعناية الموسرين منهم بأمر معسريهم في مثل هذا الفصل القاسي لم يكن حظ دالله وجدته بالشيء الذي يحسد عليه ، ذلك لان العارفين بأمرهما يكادون يجمعون على النفور من هذه الجدة ، وأكثر الناس يتهمونها وحفيدها بالشح ، لانهم يعتقدون لان لديها من المال ما يقيها العسر ، ولكنها يؤثران ادخاره ليعيشا على ذلك الدخل التافه من صيد الشص ، وليحركا الشفقة عليهما في قلوب المحسنين .. حتى أقرباء دالله لم يكونوا أقل من الآخرين قسوة عليهما ، فهم يجهرون بهذه التهمة ، وكثيراً ما واجهوه بها قائلين : أين مال أبيك !.. والله لن تنال منا خيراً ما دام مخبئوا لا ينتفع أحد منه ...

ويضيق صدر دالله بهذه الاسئلة ، وتلك التهم توجه اليه والى جدته .. وكاد أول الامر ان يصدقها فيظن في جدته الظنون ، غير انه ما لبث ان رجع الى عقله ، وأيقن انها أكاذيب ملفقة لا مسوغ لها إلا ذلك الحقد الذي يحمله اقرباؤه نحو جدته كما أخبرته .. وهو لم ينته الى هذه النتيجة الا بعد كثير من البحث والتنقيب ولقد أصبح يتجنب جهده ان يذاكرها بهذا الموضوع ، لانه رآها تقابل كل سؤال من هذا القبيل بالبكاء والعويل ، وتستعدي الله في انكسار على كل من يرميها بهذه المفتريات .. ومع ان يأسه من هذه الناحية قد دفع عنه الكثير من

القلق ، فهو لم يزل عاجزاً على التوفيق بين ما يسمعه من الناس عن مال أبيه ، وما تؤكد له جدته من كذب هذه المزاعم لان أباه في رأيها لم يملك قط من متاع الدنيا ما يتجاوز حد الكفاف .. وهي تتمنى لو ان والدته كانت حية ليسمع منها كيف كانوا يقضون الايام لا توقد في بيتهم النار لطبخ أو استدفاء ..

ولعل هذا كان واحداً من العوامل التي تزيد في كآبته اذ يتصور ان الحرمان الذي يعانيه اليوم قد عاناه أبوه وأمه من قبل : فكأن الله قد قسم عباده الى أغنياء وفقراء ، وجعل الفقر شيئاً في دماء أهله يورثونه ابناءهم كما يورثونهم أمراضهم وألوانهم وأسماءهم .

ولكن دالله لم يكن بحاجة الى كبير ذكاء حتى يدرك مبلغ الشطط في هذا الزعم .. انه يرى أكثر من واحد كان اباؤهم على الارض فاصبحوا بعدهم على الاسرة .. وآخرين تحدروا من آباء اغنياء فلم ينقض عليهم سوى القليل حتى باتوا في المعدمين .. وكم من رجل كان يملك سفينة او اثنتين ثم هي عشية او ضحاها حتى التهم البحر كل ما يملك ، فاذا هو صفر اليدين لا يملك شيئا !. وهو هو نفسه لا ينبغي ان يتهم بفقره القدر .. ومن يدري فلعله لو عمل في احدى سفن النقل او الصيد لتبدل به الحال ، ولتدارك الكثير مما ينقصه ..

وهنا لمح القصبة في يده ... فلم يتمالك ان يلقي عليها بصقة كبيرة اردفها بدفقة من الشتائم . انها ـ دون ريب ـ القيد الذي يحبسه عن الانطلاق في دنيا الله ، وسيظل على شقائه مادامت وسيلته الوحيده الى الرزق . قد تكون جميلة حين تصبح شيئا من ادوات الترف ، يتسلى بها الاثرياء في اوقات فراغهم لدفع السأم . اما ان تكون كل شيء في حياة الانسان فهذا من البلاء مما لا يطاق ! ..

واحس دالله هنا بشيء من الراحة ، اذ وجد نفسه يفكر بهجر هذه القصبة الكريهة الى اي عمل آخر .. وتصور انه بذلك يفتح لنفسه نافذة من الامل لحياة افضل .. وكان لهذا اثر غير قليل في تركيز تخيلاته اخيرا في هذه

النقطة .. حتى كاد ينسى ما كان يراوده قبيل قليل من ذلك التمزق الذي اغرقه في اشتات التصورات المؤلمة ..

ومد يده الى الصخرة يتناول بعض كسر الخبز ليطرحه في منطقة الشص .. فاخذت عينه صورة وجهه وصدره معكوسين على صفحة البقعة الراكدة تحت قدميه ، فلم يسعه الا ان يثبت بصره عليها قليلا ... لقد راعه ذلك الهزال الشديد الذي يمزق وجهه وذراعيه وصدره ، فتبدو عظامه فاتئة لا تستر الناظر .. وخيل اليه انه يجد هنا التفسير الطبيعي لذلك النفور الذي تبديه (الدهمة) بنت الجيران الصغيرة كلما وقعت عيناها عليه وهو خارج الى الزقاق .. لقد رآها اكثر من مرة تبتسم لابن عمه اسماعيل فاذا وجه اليها بصره عبست واعرضت ، ثم ارخت ستار الخيش المعلق فوق بابهم لكي تتخلص من منظره ! .. وانه الان ليجد لها كل الحق في هذا الجفاء ، فما في وجهه ولا هيكله مايرضيه هو فضلاً عن الآخرين ..

وجعل يقلب نظره في ساعديه فيتعجب من نحولهما .. ويقول في سخر بالغ : بالتأكيد لو انني خلطتهما بساعدي جدتي لما امكنني التفريق بين يدي ويديها .. فاي فرق اذن بين ابن العشرين وام السبعين !! .. ثم يتابع في حسرة : وكيف تستطيع مثل هاتين اليدين ان تحركا مجذافا ، او تشدا شراعا ! .. بالتالي كيف يجوز لمثله ان يطمع بالحصول على زوجة .. وهو في حالته هذه من الفقر والضعف ! .. ان جسما كهذا لم يخلق لغير هذه القصبة وليس في القصبة مطمع باكثر من الكفاف .. فليرض بواقعه ، وليقضي حياته في عناق الوسادة القذرة .. فليس في الدنيا فتاة تفكر بهذا الضرب من الصعاليك .. !

وكاد يعود الى يأسه لولا تذكره ان الهزال ، وهو الذي يؤلف كل موانع الطموح ، جدير بان يزول في وقت قريب اذا تسنى له الحصول على بعض المغذيات .. لقد كان (الدحمان) ، وهو احد جيرانه الاقربين ، في اشد المرض والضعف حين وصف له الطبيب الاكثار من عصير العنب والتفاح ، والاقتصار على الكبد

والخضار .. فاذا هو في اقل من عام يزيد ضعف وزنه ، وليس هو بشاذ عن ذلك . وحين ينال حاجته من هذه المآكل سيقفز الى الصحة بخطاً واسعة ، وعندئذ سيتبدل وزنه وشكله .. وستغير الدهمة .. احل الدهمة نفسها يومئذ رأيها فيه ، وسيكون له منها الموقف الذي يرد له اعتباره ..!

٢

وجلس دالله في فراشه يفكر مليا في واقعه الجديد ..

لم يبق في البيت سواه .. وقد انقطع الى الابد ذلك الصوت الجاف البارد الذي كاد يهدهده قبل الشروق من كل صباح لينهض الى طلب الرزق : « دالله .. دالله .. قم يا حبيبي قم .. لم يبق نائماً غير الوطاويط ... »

والابريق المطحلب الذي كان ابداً ينتظره بالماء على مدخل الغرفة ، اصبح الآن يتيماً فارغاً لا يجد من يملؤه اذا هو لم يقم بذلك ...

لقد ذهب الى القبر ذلك المخلوق الذي ظل رفيقه الفرد طوال خمسة عشرة سنة ، فخسر بفقدانه الانس الذي ما كان ليعرف قدره قبل هذه الايام .. وحرم الصوت الفذ الذي كان يجود عليه بكلمة الحب التي لم يسمعها قط منذ ان تفتحت في صدره الحاجة الى الحب .. فلن يطمع بعد اليوم بصوت آخر يسكب على مسمعه تلك النجوى القديمة السعيدة .. ولقد بات بعد صاحبة هذا الصوت يتشبث بفراشه لا يكاد يطيق له فراقاً .. تماماً كواحد من هذه الوطاويط التي ينظر اليها الآن لاصقة بعوارض السقف الذي فوقه . لم تعان جدته طويلا من المرض وانما خرجت من المطبخ عقيب الاغتسال ، فوجدت نفسها مهشمة الصدر ، على حد تعبيرها ، يغلبها السعال حتى تبصق قطعاً من الدم .. ولم يكن يدري ماذا عليه ان يعمل لاسعافها ، فذهب الى الجيران يستشيرهم ويستنجدهم ، ولما شاهدوها في حالتها تلك جاؤوها بمطبب .. فاشار

هذا برزقها انواعاً من الحقن زعم ان حياتها متوقفة عليها !.. ولكن من اين يأتي بالمال للحصول على هذا العلاج !.. وكاشفها حفيدها بما يزعم المطبب .. واستشارها فيما يعمل لتأمين الدواء .. فقلبت كفيها من اليأس .. وماذا تستطيع مسكينة مثلها في حالة كهذه سوى الاستسلام لقدر الله وانتظار رحمته ..

ولم يبطيء الاجل فوافاها عصر اليوم نفسه .. ثم لم تغرب شمسه حتى انتقلت الى مقرها الجديد من المقبرة ، مجهزة من قبل المحسنين بما سترها من الاكفان ..

ولأول مرة بعد أكثر من عشر سنوات يدخل غرفة العجوز بعض اقرباء زوجها ، فيساعدون في تجهيزها وخياطة كفنها .. ويصلحون وضع الغرفة لهذا المسكين الذي حرم المساعد .. ولم ينسوا ان يطهروا البيت من بعض الاثار التي لا فائدة منها سوى زيادة الاوساخ .. فطووا فراش العجوز المحشو بالخرق البالية ، وتركوا الى دالله ان يجره ليقذف به الى اعماق البحر .. ومنذ ذلك اليوم لم يغفلوا الفتى من عطفهم ، فاخذوا يمدونه ببعض الطعام بين الحين والآخر .. وجعلوا يدعونه الى تناول الطعام عندهم في بعض الاحيان ..

وبالامس ـ وكان دالله في بيت خاله لطعام العشاء ـ اثار خاله موضوع مال ابيه .. وجعل يؤكدُ للفتى أنه بعينيه اللتين سيأكلهما الدود شاهد اباه يودع ثلاثمئة ذهب كيسين من فوارغ « الخردق » .. ويخبره بانه سيشتري بمئة منها داراً ، وسيبني ببقيتها (كيكاً) .. وبعد اربعة ايام فقط عاجله القدر فغرق مع الغارقين ، ولم يكن ثمة من يأتمنه على ماله سوى امه العجوز التي انكرت كل شيء .. ثم لم يبد عليها أي أثر للمال خلال هذه السنين جميعاً !..

وراح دالله يهمس لنفسه وهو على الفراش : « ولنفترض ان ذلك صحيح .. وان جدتي قد احتضنت هذا المال فاين تذهب به .. وكيف تستطيع اخفاءه عني

حتى الموت !!... وها نحن اولاء قد نبشنا الارض ، ونقبنا الجدران ، ولم ندع قدراً ولا صرة ولا خشبة الا حركناها ونفضناها فلم نجد سوى الجرذان .. وبعض الفلقل القديم .. وقطعة نقد واحدة بنصف قرش! فأين . أين ؟.. ولماذا ضنت على نفسها بليرة ذهبية واحدة ثمن علاج ينقذها من الهلاك . وهي تسمع الى وصف الطبب لوضعها الخطر .. لو انها كانت تملك شيئاً ولو يسيراً من ذلك المال !!! .. »

وبعد هدأة يسيرة رفع صوته يقرر في تصميم : الحق انني لا أستطيع فهم شيء .. وخير لي أن أريح نفسي من هذا البحث ..

ونهض لتوه .. وفي غير تردد حمل قصبته وكرسيه ومضى الى البحر ..

وسمى الله .. وطرح كسر الخبز على وجه الماء الهادىء ثم لوح بشصه وقذف به على مدى الخيط وانتظر .. ولاحظ السمك يحوم عليه ، الا انه لم يحس بحركته في القصبة ، فرفعها الى الأعلى قليلا لتوازي مسبح السمك ، ولكنها لم تستجب ، اذ كانت مشدودة الى شيء هناك .. فجعل يحتال عليها ، بيد انه لم يستطع تخليصها حتى أخرج ما علقت به ، فاذا هو فراش جدته !..

يالله .. لقد طرحه في الطرف الايمن من هذه البقعة .. ولم ينس ان يربط به بعض الحجارة المثقوبة ليمنعه من الطفو ، فما الذي جاء به الى هنا بعد عشرة ايام ..!

وجر الفراش مرة أخرى بعيداً عن البقعة كلها .. وأثقله بمزيد من الحجارة .. وعاد الى مكانه يطلب رزقه ..

٣

.. وتتابعت ايام دالله على هذا النسق ، يقضيها كدابه بين البيت

والبحر . وكان الفصل ربيعاً ، والربيع موسم الخير في الماء والياسة ، فشغله وفير الرزق عن شعور الوحشة ، ووثق علاقته باهله اكثر فاكثر ، فبات يهدي اليهم بعض السمك بين يوم ويوم ، وفي صدره امل بان ينتقل الى مركب خاله للعمل ، فيتاح له بذلك ان يحقق الحلم الذي طالما راوده في تغيير واقعه .. ووجد لديه بعض الوفر ، فاحب ان يعاود تلك التمة التي جربها ذات يوم في التربع على احد مقاعد المقهى المجاور ، ومداعبة مصاصة الترجيلة بعد الغروب . كما يفعل اكثر الشباب في هذه الجزيرة .. ومن هنا بدأت حياته تتطور ، واخذ يحس تفتحا جديدا للحياة ما لبث ان آتى ثماره في تخفيف تلك الكآبة التقليدية عن وجهه ، حتى خيل اليه انه اصبح ادنى الى القبول مما كان عليه .. انه الان ليمشي بنشاط ، ويستشعر في جسده قوة تمكنه من النجاح في اي عمل يعهد اليه في الملاحة .. واذا استمرت الامور في طريقها الطبيعي فسيكون له حصة كغيره من عمال سفن الشحن ، تيسر له ان يتخذ لنفسه كسوة جديدة ، وان يوفر لبطنه الاغذية التي لا بد منها لاستكمال الصحة .. وحينئذ يقترب جدا من امنيته الكبرى في الزواج .. تلك الامنية التي لم يعد لذهنه شاغل اكبر منها ..

وشاء القدر ان يدغدغ خياله مرة بعد مرة ، فيعلق شصه بشيء في القاع ثم لا يستطيع تخليصه الا باخراجه ، فاذا هو هو الفراش الطريد نفسه ! ..

وكوم الفراش أمامه على الصخرة المقعرة .. وجعل يتساءل : هذه الكرة الثالثة التي يزحف فيها هذا الفراش القذر ليعض شصي..!.. أضاق به البحر فلم يجد غير هذه البقعة يتنزه فيها ! ... أم ان وراءه بداً خفية تريد زعاجي بهذه المداعبة الثقيلة ! ! ..

وشبه له انه يسمع صوت جدته يهتف به من وراء الطبيعة في جفاف

وبرودته المألوفين : عزا يجيك يا دالله . اشكر الله على هذه القصبه التي لولا فضلها لهلكت من الجوع ..

ويلقي على نفسه بصوت مسموع هذا السؤال : أصحيح انني سأموت جوعا اذا فارقت هذه القصبة ! .. »

وسرعان ما يجيب بقوة مصممة : لا .. لن اظل محبوساً على هذه القصبة .. وان اعيش كما اريد إلا بمفارقتها .. »

وبلغ الهياج به اشده .. وتجمع حقده على هذه القصبة اللعينة فاذا هو يجلد بها الصخر .. ولا يتمالك ان يجز عليها عضا باسنانه فيفتتها اربا اربا .. ثم يقذف باشلائها صدر البحر .. ويتقدم نحو الفراش وقد صمم ان لا يدع له مجالا لمضايقته بعد الآن .. فأخذ يمزقه في عصبية .. ويبعثر احشاءه من الخرق في كل اتجاه ! ..

وفي غمرة هذه الثورة اصطدمت يدا دالله بشيء صلب بين الخرق ، فراح يشده بعنف يريد ان يدفع به الى الماء ..

وشد ما كانت المفاجأة كبيرة ومدهشة عندما تكشف ذلك الشيء الصلب عن كيسين من فوارغ الخردق .. سرعان ما ادخلت احشاؤهما من خلال اصابعه قطعاً من الذهب مستديرة .. ما لبث ان واجهت الهواء حتى اخذت تتسابق الى معانقة الصخور هنا وهناك . في شوق السجين الذي يرى الدنيا لاول مرة بعد عديد من السنين ..!

★ ★ ★

وجلجلت في سمع ابي جبها قهقهة سيارة شاحنة تصب محتوياتها من الاتربة في الفجوة البحرية القريبة ، فانخلع من غفوته ، وراح يحدق بما حوله وما بين يديه .. فيرى البحر الممتد الى ابعاد الافق الذهبي .. ويرى الشبكة التي شرع يرتقها منذ عصر اليوم لا يزال

منشباً بها اصابعه ..

ولما استوثق من ان مرثياته الرهيبة لم تكن سوى حلم طويل ثقيل هدأت اعصابه ، وفتح صدره عن زفرة مديدة أودعها كل ما في قلبه من حبيس القلق ..

وفي حركة عاطفية مؤثرة اكب على شبكته يقبلها في حنان عميق وهو يتمتم : (الحمد لله .. الحمد لله ..) !

قصة هرة

كان سعيد - كما سمته امه - او سعدو - كما يسميه الناس - شابا في الخامسة والعشرين ، على جانب من القوة الجسدية غير يسير ، مديد القامة ، عريض الالواح مدمج الاعضاء ، وهو شديد الاعتزاز بهذه الصفات كثيرا ما يتخذ منها مظهرا لتحدي الضعفاء من جيرانه ورفاقه ، وكثيرا ما يتوسل بها الى زيادة حصته من اي عمل مشترك قد يقوم به مع بعضهم ... يضم الى ذلك كله لسانا كالمسدس المختل لا يكاد يؤمن انطلاقه على غير هدى فهو كتلة من السفه والسباب والتجديف ، لا تكاد تسمع منه اينما سار وحيثما تكلم الا ذلك البذاء يصبه على جيرانه ،ورفاقه... ولعل زوجته اوفر الجميع حظا منه ، اذ عودها الا يناديها بغير لفظة (وليك) والا يخاطبها اذا غضب الا بالالفاظ التي ورثها من ايام الازقة ... نبذا بالفجور ، ومسبة للدين ، وشتما للخالق . . ويكاد شتم الخالق ان يكون لازمته المفضلة ، فهو اذا فاتته الغنيمة التي يريد شتم خالقها ، واذا عصاه عود الثقاب قذفه بمثل ذلك ، وقد تعثر قدمه بطرف الفراش فيسب اله كل من وضع فيه قطبة ... وقد عود اطفاله الثلاثة اسوأ هذه الالفاظ حتى باتوا يتبادلونها غاضبين او راضين ، مستيقظين او نائمين ...

ومن هنا كان سعدو بغيضا الى قلوب كل عارفيه ، حتى لا تكاد تجد له محبا ، ولا تكاد تسمع انسانا يذكره بخير ..وقد نفر منه كل اقرانه فاصبح فريدا لا يجد شريكا يتعاون واياه في اي من الاعمال ..

وكانت له حرف كثيرة ، لا يستقر منها على واحدة ، فحينا تراه حمالا يعمل في مواقف السيارات ، وآنا تراه يدفع عربة نقـــل ، ومرة تجده نوتيا في احدى السفن ، او معاونا في احدى الشاحنات ... ولكن حرفته المفضلة هي قتل الاسماك بالمتفجرات ...

ويبدو انه وجد في هذا العمل جوه الطبيعي ، فيوشك ان لا يفارق البحر الا ليبع حصيلته من الســـمك او ليقضي ليلة في البيت ... وقد تمر عليه الايام المتلاحقات لا يطالع خلالها وجها لنيه ، ولا يخطر في باله ان يسأل عن احـــد منهم ... فهو مشـــغول عن كل ذلك بهذه المتعة الشافية التي يمارسها في مراقبة الاسماك والقضاء عليها كلما وجد لذلك سبيلا ... وكثيرا ما انصلت احـــلام نومه بعمل يقظته فتراءى له جموع الاسماك سابحة حوله ، تستفز شراسته الى القتل ، فلا تستقر اعصابه حتى يسمع الغامه تتفجر فيادوي متتـابع ، تطفو على اثره ضحاياه افواجا وراء افواج ...

ولقد عمق هـذا المراس في طبيعته خلائق القسوة فجعله اشـــد استهتارا بالمسئولية ، يرفع قبضته باصابع المتفجرات مهددا متوعـــدا ، ولا يتورع عن فعل ذلك حتى مع اطفاله انفسهم ، الذين الفوا منظر هـــذه المتفجرات مطروحة على طبق تحت صندوق الثياب ، او في سلة الخبز ، ففقدت بذلك رهبتها في اعينهم ، واصبحت لهم اللعبة المفضلة يلوح بها كل نحو الاخر ، او يركضون بها وراء ارانبهم ! . .

٢

وهب سعدو من فراشه مسرعا يقذف الشتائم ، اذ وجد نفسه قـد تاخر عن موعده . . ورفس ظهر زوجته فنهضت لفورها تعد له زاده من الطعـام . ولما سحبت القدر جمدت مبهوتة اذ لم تجد فيها اللحم الذي حفظته له ! .. وجعلت تراجع نفسها لعلها اخطأت المكان ، ثم لم تستطع الا ان تسأله : على علمي اني تركت لك الفك الاسفل في هذا القدر ... وما ارى منه الان غير العظم ... لعلك أكلته ؟ ..»

ولم يجد اقرب من وسادة القش فقذف بها رأسها وهو يصيح : انا اكلتها يا ..! وتدحرجت الكلمات القذرة من لسانه في سرعة متلاحقة .. واقسم بالطلاق لينسفن بهذ الديناميت البطن التي احتوت ذلك اللحم ...!

واخذ يركل اطفاله فيهبون مذعورين واحدا بعد الاخر وعلى لسان كل منهم تحديقة من الضرب الثقيل !..

واخذ سعدو يحقق مع كل منهم : أانت ... أأنت ...؟ أنت ..!

وكان الجواب بالطبع هو النفي ... ولم يكن بحاجة الى توكيد اكثر ، فهو قد رآهم غارقين في سباتهم حين مجيئه ، ولا مجال للظن بنهوضهم للأكل اثناء الليل ، واذن فلم يبق هناك موضع للتهمة سوى زوجته ،وهذه الهرة التي تتمرغ فوق هذا المفرش الممدود غرب الباب ....

وأمسك بالهرة يجس بطنها ويقلب نظره على مدخل فمها .. وكاد يجن من الغضب عندما رأى نثارة من اللحم لا تزال معلقة منها فوق الانف شاهدة بالجريمة ! ..

واستل من جيبه بعض الخيوط ، وراح يلفها على شيء حول بطنها ... وقد وجدت الهرة في ذلك مداعبة لاذة ، فجعلت تمسح وجهها بصدره وهي ترسل مواء حنوناً أنشودة الشكر ...

ثم لم يلبث الا يسيراً حتى خرج بالهرة الى ساحة الدار ، وهناك أشعل دخينة ، ثم أدناها من بعض أربطتها ، وبكل قوته قذف بها فوق جدار الدار في اتجاه الساحة المقابلة ...

وما هي الا ثوان معدودات حتى كان الدوي يصم الآذان ... ثم يتراكض الجيران ليروا الى هرة بيت سعدو وقد نثرت اجزاؤها في كل اتجاه ...

٣

ولاول مرة يوجس سعدو خيفة من جيرانه ، اذ لم يطيقوا كبت مشاعرهم تجاه عدوانه الشنيع على تلك الهرة ، فاخذوا يتصايحون ، وراح

كل منهم يثير نخوة الآخر للانتقام من هـــذا الارعن الذي ما زال ينغص حياتهم ...

ولم يشأ سعدو ان ينظر أكثر .. فملأ جيبه اليمنى بالمتفجرات المعبأة ، وجعل أطراف فتائلها بارزة الى الخارج ، ثم أطبق راحته اليمنى على واحدة منها بشكل ظاهر ، وأمسك بالثانية دخينة ، ثم خرج الى الساحة في هدوء مثير كأن ليس ثمة من شيء يعنيه فاذا الصمت يسود الساحة ، وينسحب القرويون من بيوتهم الى داخلها في سكون ، ويأخذ هو طريقه الذي اعتاد ان يسلكه كل صباح نحو البحر !...

وعلى غير عادة سعدو كان هذه المرة يتجه نحو الشاطىء وفي رأسه أفكار غير التي ألفها في مثل هذه اللحظات أفكار لا تتصل بالبحر ولا بالزورق ... هي أبعد من ذلك وأغرب ... الا انه لا يستطيع لها تجسيما ولا تحديداً ولعلَّ من التجاوز ان نسميها أفكاراً ، فما اعتاد الرجل أن يفكر ، بل ألف ان يأخـــذ الاشياء على علاتها ، يتناولها بالشعور العابر ، والتدبير المرتجل ، فـــلا يجهد نفسه بمحاولة التمييز بين شيئين ... وهي أقرب الى أن تكون تصورات تنتشر في أعماقه دون وعي ولا تفكير ولا انتظام ... تصورات يلمح من خلالها هرة ... وفضاء .. وناساً ... وتخيل اليه انه يرى نفسه في هـذا الطريق نفسه .. يسير كالشبح لا يعي ما حـــوله ... ويغالبه شعور مبهم بشيء من الاشمئزاز يكاد يدفعه الى التقيؤ ... ثم يحدث شيء ليس في وسعه أن يعرف ما هو ... ولكنه موجع ومؤلم ...

وهنا أحس بضيق يثقل صدره ، فهز رأسه بقوة ، كأنه يريد التخلص من من تلك الاوهام المزعجة ، ورفع دخينة أخرى أشعلها من العقب المتخلف بين أصابعه ، وتذكر كتلة التفجير التي في يده فردها الى جيبه ثم مضى يعب الدخان في عمق وهياج ...

وعندما وصل الى المفرق الذي اعتاد اجتيازه انفتل نحـــوه بغير وعي ، وكانت هناك اغصان شائكة يظهر ان اصحاب الارض قد سدوا بها مدخل الممر

مساء اليوم الفائت ، فوقف بنجيها في عصبية ؛ ودفعها عن ثيابه التي راحت تنشب بها في قوة ، ولكن دون ان يحرك شفتيه بحرف ... وعندما توقف لينزع آخر شوكة من فوهة جيبه اليمني فوجيء بمثل الانهيار تحت قدميه ودوى خطف سمعه ... فقطعه عن ادراك ما حوله !

وكانت سيارة تعبر الجسر القريب في اتجاه المدينة ، فوقفت لنجدة الرجل الذي رآه ركابها يهوي الى الحضيض عقيب الانفجارات الاربع ...

ولقد هال هؤلاء ان يبصروا الرجل وقد طارت عيناه ، وبترت يمينه ومُزقت فخذه وبُقرت بطنه ... ولكن سرّهم انه لا يزال في صدره بقية من النفس تبعث الأمل ببقائه في عداد الاحياء . لذلك أسرعوا بنقله الى أقرب مركز للاسعاف .

ولقد صدق الأمل ، وبعد علاج طويل ، وعدد من الجراحات . نجا سعدو من الموت ... لكي يحمل الى الناس صورة مجسمة من العدالة الالهية التي لا تغفل ... ولا تنس حتى الهرة الحقيرة !...

وحتى اليوم لا يزال جيران سعدو يذكرون تلك الهرة ، كلما رأوا الرجل المشوه المسكين يعبر ساحتهم متكئاً على كتف زوجته ... ولكن ما أقل الناس الذين يتفكرون ويعتبرون !!!

ثلاثة مشاهد

الرجل الذي اكتب الآن قصته معروف .. لا استطيع حجب شخصيته عن معظم القراء ، ولو البسته غير اسمه ... ولو جعلته يعيش في جزيرة واق الواق ...

ان كثيرين من قرائي سيقولون فور اطلاعهم على وصفه : انه (طالب) صاحب السمكة المشهورة ..

ولست اريد في هذه القصة عرض حياته واحداثه من جميع جوانبها ... لانها متشابهة لا طريف فيها ، وحسب امرأ ان يعرف بعضها ليلم بسائرها ...

انه واحد من هذا القطيع الكبير الضارب وراء المال وما يحققه المال من زائل الحطام . : لا يستطيع ان يتجاوز ذلك بتفكير ولا تصور ... وهو في سبيله مستعد لأن يدوس كل الفضائل ، ويكفر بكل المقدسات .

لم يملك موهبة قط .. ولكن العوامل غير المنظورة ، التي تفرق وتجمع ، وتسخر القوى المختلفة لتحقيق غاياتها الكبرى ، هي التي يسرت له عبور عشرات الدهاليز للوصول الى مركزه المرموق كصاحب سمكة .. ! وطبيعي انني أصفه بالمرموق تصويراً لواقعه في مفهوم الذين هم في مثل مستواه العقلي والنفسي ... ذلك لأن كثيرين يتمنون بجدع الانوف لو يحتلون مكانه ... ويتوفر لهم

مثل امتيازاته المغرية من المال والقدرة على الاساءة .. والجرأة في السباب... والوقاحة المتناهية في التجديف على الخالق .. وهي امتيازات مكنت لطالب ان يكون مرهوب الجانب ، مسئول الخاطر لدى الكثيرين من عبيد القوة ... واتاحت له فضلا عن ذلك ان يكون ما لكا لسيارة خاصة يسوقها بنفسه .. وان كانت مهلهلة من الطراز القديم ..

وبالنظر لتشابه حياة طالب كما قدمت .. فسأقف من قصته على فصل واحد ذي ثلاثة مشاهد حدث اول هذه المشاهد في مقهى بلدي .. حيث كان طالب هذا ينازل بعض الرفاق بلعبة الورق ، وكانت المعركة حامية كما يبدو ، اذ غلبت ضجتهم على صخب المقهى كله ... وامتاز صوته خلال ذلك بالقذائف الضخمة تنصب باسوأ الشتائم على اسم الله ! ...

وطبيعي ان السامعين لم يكونوا سواء في تقبل هذه الوقاحة ، ولكن حتى المنكرون لها وهم قلة لم يكونوا مستعدين للدخول في معركة من اجل ربهم ودينهم ، فاكتفى بعضهم بالتسلل من المقهى . وتجاهل الآخرون ما يسمعون ، وغرق الباقون في شئونهم الخاصة ثرثرة اللعب... ورشف القهوه ... ومص اطراف السجائر او النراجيل ... الا ان واحداً من لاعبي المنضدة المجاورة لم يستطع كف لسانه ، فالتفت الى طالب يقول : « لا تنس ياسيد طالب ان الله ليس ملكك فتوجه اليه شتائمك.. انه ربنا جميعاً ..»

ودون ان يرفع طالب عينيه عن الورق ، وفي لهجة مشحونة بالاستهتار قال : « .. ومع ذلك فانا اشتمه الآن اكراما لغيرتك عليه. » وراح يتقيأ دفقة من الالفاظ القذرة .. تجاوزت هذه المرة كل حد ..!

في هذه اللحظة كان رجل غريب الاطوار يعبر الشارع .. فما ان لامس هذا السيل من السفه سمعه حتى اقتحم مدخل المقهى الى مقابلة طالب ، وبلا مقدمة أهوى براحتيه على جانبي الوجه الوقح ، يغسله

بصفعات متتالية ، تجاوز صداها المدى الذي وصلت اليه اصداء شتائمه ..

وألجمت المفاجأة لسان طالب .. فلم يفه بكلمة .. ونظر عشرات الحضور في دهشة عميقة الى هذا المشهد العجيب غير المتكافيء .. (م ط) الذي لا يزن جسمه الخمسين كيلا ، والذي لا يكاد الناس يسمعون له صوتاً ، يتجرأ على هذا البغل البشري بمثل هذه الصفعات المهينات ...!

حقاً انه لمشهد غير مألوف .. من العسير على العادي من الناس أن يجد له تفسيراً ...!

واستمرت المفاجأة ثواني طويلة .. لم تتحرك خلالها يد ولا لسان .. وقبل ان يسترد الحضور أنفاسهم رأوا طالباً نفسه ينهض متراجعاً الى الوراء قليلا ، وقد ارتسم الجزع على جميع وجهه ، وبدت شفتاه ترتعشان ، وفي كثير من الانكسار أخذ يقول : الحق بيدك ..

ويلمع صوت (م ط) في لهجة خطابية تتفجر : متلك لا يفهم معنى الحق .. ولا راحة من لسانك الا بقطعه .. وسأرفع ضدك دعوى تؤدب امثالك ايها الوقح ...!»

ويتوجه الى الحضور ببقية كلامه ليقول : لو كان هذا السباب موجهاً الى آبائكم لأخذتكم النخوة ، ولكن مقدساتكم الآلهية آخر شيء تهتمون به .. يا للأسف ! .

وغادر المقهى ليأخذ طريقه الى دار القضاء .. والعيون تلاحقه .. وكأنّ على السنة الجميع اغلالاً تمنعها الكلام ...

٢

وكان لحادث المقهى اثره البعيد في مختلف الاوساط .. صدم السفهاء الكثيرين ، الذين اعتادوا اطلاق شتائمهم على قوارع الطرق ، وشجع أولي البقية من الحياء والاخلاق على الجهر بكلمة الحق ، يهدون بها الضالين ، وينبهون الغافلين .. وكثيرون من هؤلاء واولئك اخذوا يتتبعون ذيوله في الدعوى التي رفعها (م ط) ضد ذلك السفيه

المستهتر ...

وحدد موعد النظر في الدعوى .. وتوسط طالب الناس ممن يحسبهم ذوي جاه وتأثير اجتماعي ليقنعوا خصمه بسحب دعواه .. ولم يتورع حتى بعض المنتسبين للدين من اصحاب العمائم ان يراجعوا هذا الخصم العنيد في القضية ، راغبين اليه ان يطويها ، كما يطوون هم امثالها كل يوم ... غير ان عناده كان اقوى من حجتهم وتمنياتهم .. فابى الا ان يمضي بالدعوى الى غايتها ، ليجعل منها وسيلة الى تطهير المدينة من هذه السفاهات التي اوشكت ان تصبح من طوابعها المميزة ..

وجاء اليوم المقرر .. واكتظت باحة المحكمة بالنظارة على اختلاف أصنافهم ... ولما تبين (م ط) شخصية الرئيس . لم يكن في حاجة الى كبير ذكاء حتى يحزر مصير دعواه ... ذلك لان الرجل كان من النزاهة في المقام الذي تعرفه جيدا البيوت السرية ، والمقامر الارستقراطية ... !

وخرجت (الحرية) يومئذ منتصرة شامخة الانف تتحدى ..

وعلى مدخل دار القضاء عقيب ذلك التقى (م ط) بطالب ممسكا بمقود سيارته التي اعدها للانطلاق .. وسمعه يقول في تهكم جارح : سأنسى اهانتك اذا سمحت لي بأن العن ..

واتم شتيمته الشنيعة وهو يبتعد بسيارته المسرعة عن متناول يده .. ولكن (م ط) استطاع ان يسمعه قوله : خسئت .. واذا عجز القضاء عن قطع لسانك فسترى كيف يقطعه الله .. !

٣

لم تكن براءة طالب يوم المحاكمة نصرا لشخصه ولكنها كانت من حيث النتيجة إلهاباً لنزوات السفه التي يتكاثر انصارها في كل مكان .. وقد بلغ من اثر هذه التبرئة في نفوس هؤلاء انهم جعلوا يتحدون دعاة الخير بكل الوسائل ، حتى لا يتورعون عن اسماعهم تجديفاتهم على قوارع الطرق ، دون ان يستطيع هؤلاء شيئاً سوى الشكو الى الله ...

وكان رد الفعل في نفس طالب اشد .. اذ اخذته العزة بالأثم ، فراح يطلق حماقاته بمناسبة ودون مناسبة ، فكانه ينتقم بذلك من مخالف لطريقته ، ومن كل شامت به يوم صفعات المقهى ..

وما ادري في اي الايام التي تلت تبرئته كان موعد السكرة التي احياها مع اخس الرفاق ، تخليدا لذلك الانتصار الباهر ! ولكن الذي اذكره وسيظل الكثيرون يذكرونه جيدا هو ما حدث اثر ذلك ... لقد انطلق طالب يومئذ يقود سيارته المهلهلة في طريق احد المصايف ، وعلى رأس احد المنعطفات غلبه السكر فافلت المقود من يده ثم انتهى .. ومنذ تلك اللحظة انقطع لسانه الى الابد .. ولعل تجديفة منكرة كانت آخر مانطق به ذلك اللسان ..!

جريمة في قطنا

كان الرقيب برهان غارقاً في نوم ثقيل ، عندما انطلق جـــرس الهاتف الموضوع بمحاذاة رأسه يقرع سمعه برنين مزعج طويل . ويبدو انه كان مستغرقـا في حلم غـــير سار سرعان ما اختلطت احـداثه بهـذا الرنين ، فاذا هـو يهب مذعوراً ، وفي غـير وعي يجذب جهاز الهاتف ويقـــذف بعيداً ، فيـكاد يصدم رأس زميله المساعد ، لولا ان رده جانب الوسادة ، الذى كان مرتفعاً فوق ذراعه التي اعتادت ان تأخذ مكانها تحت الوسادة ، كلما أخذ رأسه موضعه فوقها .. وفي وفي هذه اللحظة أخذ الرقيب يسترد كامل يقظته ، فاعتذر لرفيقه بأنه كان يحـلم انه في خط النار ، وقد سقطت بجانبه قذيفة يدوية ، فالتقطهـا ورمى بها ليتفادى انفجارها ..

وكان جرس الهاتف مستمراً في رنينه ، فرفع الرقيب السماعة ..

ـ من هنا ؟.. ـ هنا مركز قطنا .. ـ هنا مركز الضابطة العامة في قوة اليرموك بدمشق .. الرقيب برهان يتكلم .

ـ شكراً .. هنا زميل لكم من ضابطة اليرموك في معسكر قطنا وجـد قتيلا عند مدخل البلد

رقيب .. قتيل ؟!.. أهـكذا قلت ؟!..

ـ نعم .. رقيب من ضابطة اليرموك الخاصة في قطنا .. وجدته جوالة الدرك .. قتيلا أو ميتاً

ـ قتيل .. ميت !!.. أقتيل هو أم ميت ؟؟

ـ المكان يوهم ان في الامر جريمة .. ولكن لا يبدو في الجثمان ما يدل على ذلك .

ـ شكراً .. أحرسوا الجثمان .. سنجري اللازم حالاً .

وأعاد الرقيب السماعة .. وأطرق يفكر : الساعة الآن الثانية ، ومعنى ذلك انه لم يمض على نومه سوى ساعة .. وقد قضى يومه في عمل متواصل يراقب المتطوعة ، ويستمع الى الشكاوي و ... عشرات الاشياء الأخرى ، وكان يمني نفسه باغفاءة لا يقطعها الا النهوض لصلاة الفجر .. وهاهو ذا مضطراً الى الى مغادرة فراشه قبل الموعد بثلاث ساعات ، ليبدأ عملا لا يعلم متى ينتهي .. ومن يدري فقد يكون الرجل ميتاً لا قتيلا ، ما دام الدرك وهم الذين شاهدوا جثمانه ، لا يستطيعون القطع بأحد الامرين . وفي هذه الحال سيكون مجهوده خالياً من كل معنى ..!

وتذكر برهان ان مثل هذا التفكير لا يحسن بالانسان الذي وهب نفسه لواجب الجهاد الذي لا يكون قتالا للعدو فقط ، بل قتالا للاهواء ، وقتالا للكسل الذي يدفع صاحبه لايثار النوم على التحقيق في قضية كهذه ... أياً كانت نتائجها .

على انه لم يخطر في ذهنه موضوع الجهاد حتى أحس بانقباض موجع .. لقد انتظم في سلك المجاهدين ، في غمرة من الحماسة الروحية التي تجعل الاستشهاد أروع ما يتصوره القلب المؤمن وهو الروح الذي كان يسيطر على معسكرات المجاهدين جميعاً ، وبه بدأت المعارك الاولى ، فكان النصر ، وكان القتل ، وكان كلاهما شيئا جميلا في نظر هؤلاء الذين فارقوا اهليهم واعمالهم ابتغاء رضوان الله . ولا يزال يذكر الساعة التي فقد فيها رفيقه ومواطنه اللاذقي (محمد الصباغ) ... ذلك الفتى الذي لم يستطع والداه صده عن خوض هذه الغمرة ، لأنه كان شديد الرغبة في الشهادة ، فأبى الله الا ان يحقق له رغبته ، وتم ذلك برصاصة يهودية حطمت فكه

الا فل ، وحملت اليه المنية ، بينما كان الى جانبه يطلق نيران بندقيته على العدو .. وتحول الاصابة بينه وبين الكلام ، فيسلم الروح وعلى ثغره ابتسامة الرضى بما اتاه الله من فضله . ولقد خاض برهان بعد معركة القدس تلك عدة ملاحم ، ورأى العديد من رفاقه المؤمنين يسبقونه الى الجنة ، وفي كل مرة كان يتطلع الى حظه من هذه النعمة ، مزودا نفسه لها بكل ما يسعه .. ولكن الله لم يقدر له هذا المصير ، ومد باجله حتى اليوم .. ليشهد التدهور المريع الذي بدأ يراود النفوس ، فيطفيء شيئا فشيئا توهج الوقدة المقدسة ، التي ساقتها الى هذه الساحات .. وهاهو ذا يرى بعيني رأسه ذلك التطور الفاجع الذي اعقب الهدنة ، فجعل يحول الطاقات ،التي كانت معبأة لدك معاقل اليهود ،واستنقاذ الارض المقدسة الى تدمير نفسها بهذه الخلافات اليومية التي يثيرها المتطوعة فيما بينهم لاتفه الاسباب .. ثم بهذه الانحرافات التي اخذت تطل هنا وهناك من بعض النفوس التي اعتادت الانحراف من قبل ، ثم وجدت في الجهاد من اجل فلسطين فرصة للتوبة والتطهر .. حتى اذا تسرب روح الوهن الى جهاز النضال العام ، استيقظت فيها عوامل الضعف القديمة ، فتكاد اليوم تستأنف سيرتها الاولى ، لا يمنعها من ذلك الا هذه البقية الباقية من روح النظام الذي تكافح الضابطة من اجل صيانته في هذه المعسكرات ..

ومما يساعد على مضاعفة هذا الانهيار المعنوي تلك الانباء التي تأخذ طريقها بقوة الى كل شفة ولسان بين المتطوع .. انها انباء خيانات التي تنسب الى طائفة من الكبار .. الذين تصدروا لقيادة الجهاد ، فاذا هم فيما يقال ، يتواطؤون مع العدو على تسليم الارض المقدسة ! . لقد بدأت هذه الشوائع همسات في الخلوات ، ثم انتهت الى العلانية ، يتداولها الجميع بين مصدق ومكذب .. وكفى بهذا وحده مثيراً للشكوك مثبطاً للعزائم ، مدمراً للحماسة ، محطما لكل تصميم روحي ..!

وكانت هذه التصورات تتفاعل في صدر الرقيب برهان وخياله ، بينما هو متجه في سيارة الجيب نحو منزل القائد .. ولما وقفت به السيارة لدى الباب انتزع نفسه من شروده ، واعلن مهمته لحرس المنزل ، وبعد قليل اقبل العقيد في ثياب النوم ليستمع الى الخبر ، وليتلقى الرقيب توجيهاته اللازمة .. ثم عاد الى السيارة ليصحب الرئيس الذي كلف التحقيق في القضية ..

٢

وكانت الساعة لا تعدو الثالثة إلا قليلا ، عندما وصل مكلفو التحقيق الى حيث يستقر الجثمان تحت شجرة الجوز العجوز ، التي تظلل اغصانها بعض الطريق الداخل الى قطنا .. وترجل الرئيس وكاتبه ، وتبعهما الرقيب برهان ليلقوا النظر الذي لا بد منه على الجسد الهامد .

كانت الظلمة طاغية .. والجو ، كشأنه في مثل هذه الليلة من اذار ، قارساً ، ولكن مصباح الضغط ، الذي احضره رجال الدرك لحراسة الجثمان ، بدد الكثير من تلك الظلمة ، ونشر شيئاً غير قليل من الدفء ..

ونظر المحقق ومن معه الى ذلك الجسد الممدد على صدره ، وقد امتد كل من ذراعيه في شبه زاوية قائمة ، وانفرجت ساقاه .. ولم يبد من وجهه سوى جانبيه ، لأن مقدمته لاصقة بالأرض ..

وتراءى ذلك الهيكل العملاق تحت الضوء الشحيح مهيب المنظر ، يوحي بأن صاحبه كان على حظ من القوة الجسدية غير يسير .

ولم يشأ المحقق ان يغير وضع الجثمان ، بانتظار الطبيب الشرعي .. ولكنه جعل يدقق النظر من اعلاه الى آدناه ، فلم يلمح أي أثر لجريمة .. اللهم إلا ذلك التماس الشديد الذي بدأ بين وجهه والارض حتى لكأن انفه قد كسر او بسط تحت ضغط ثقيل . غير ان مثل هذا قد يتأتى من أيدي آثمة كما يحدث من سقطة فادحة .. ومن يدري ، فقد يكون الرجل مصابا بالصرع ، وقد فاجأه هنا ، فأكبه

على وجهه بهذه الصورة !

وبدأ المحقق استيضاحاته مع كبير الدرك :

ـ من الرجل . . وما أسمه . . ومن أي البـــلاد هو ؟ ـ اسمه عبد الله خليل . . وهو أردني من اربد . . كان يتردد على مركزنا اثناء تجواله لمراقبـــة المتطوعين . .

ـ اذن فانتم تعرفون الكثير عن سلوكه الخلقي ؟

ـ بالتأكيد .. انه رجل شهم يتحلى باخلاص كبير .. وكان صارماً في حماية النظام .. مما جعل الكثيرين غير راضين عنه ..

وأمسك المحقق عن متابعة الاسئلة ، ليفكر بما يسمع ، ولاح عليه انه وجد في بعض هذا الوصف ما يستحق اهتمامه .. ثم طلب الى الرجل ان يطلعه على التقرير الذي كتبوه عن مشاهداتهم .

وقرأ التقرير .. ووقف عند هذه الاسطر : « . . وكان آخر عمل قام به في قطنا هو اخراجه بعض المتطوعة بالقوة من خمارة (أبو جورج) . . وفي تمام الساعة الثانية عشرة مرّ بنا في طريقه الى المعسكر ، ثم حوالي الساعة الواحدة والنصف شاهدته جوالتنا فاقد الروح تحت شجرة الجـــوز . .

وسأل الرجل مرة اخرى : هل تعرفون احداً من اولئك الذين اكرههم على مغادرة الخمارة ؟! وجاءه الجواب بالنفي . . فالتفت الى الرقيب برهان : يحسن ان تحضر لي صاحب الخمارة . وسيرافقك أحـــد الدرك ليرشدك الى داره . . وستجدني بانتظاركم في مخفر الدرك . . »

وترك المحقق الجثمان للطبيب الذي وصل آنئذ .. ومضى بسيارته الى داخل البلد ثم لم يكد يستقر الا قليلا حتى اقبلت سيارة الرقيب برهان بالخمار . الذي اوشك قلبه ان يقف من شدة الرعب ولما رأى المحقق اضطرابه سكن روعه ، واشار اليه بالجلوس ، ثم جعل يسأله في لهجة لا تبعث القلق :

ـ الرقيب في الضابطة الخاصة لقوة اليرموك في قطنا عبد الله خليل الاردني . .

قد مر بحانتك مساء اليوم . . هل تذكر ؟

ـ نعم اذكر جيداً ـ ماذا عمل عندك ؟ ـ اخرج المتطوعة الذين كانوا يعربدون . . وعلى الفور اغلقت حانتي ودخلت الدار . . ثم لم اغادرها إلا الساعة .

ـ حسن . . تذكر . . هل تعرف هؤلاء المتطوعة ؟

انهم من اقطار مختلفة اليمن . . الحجاز . . العراق . . و . . لذلك من العسير ان اعرفهم جميعاً .

ـ اذن فانت تعرف بعضهم ؟ ـ طبعا . . ـ اذكر لي اسم هذا البعض .

ـ لا اعرف اسماء الآخرين . . ولكن اظنني اعرف وجوههم . .

ـ ولم يشأ المحقق ان يقطع تسلسل العمل فدعا بالرقيب برهان ، وكلفه ان يحمل الخمار في سيارته . وبعد مكالمة هاتفية قصيرة انطلقت السيارتان في الطريق الى معسكر اليرموك خارج قطنا .

٣

ودخل المحقق مع رئيس مثله من المعسكر ، ووراءه كاتب التحقيق والرقيب برهان . . دخلوا جميعا احدى قاعات النوم ، وان نزلاؤها الثمانية يغطون في نوم عميق . .

وطلب المحقق ان يوتى اولا بسعيد وعبده . . فاوقظا بصعوبة ، وكلفا ارتداء ثيابهما ، ثم اخرجا الى غرفة مجاورة حيث جهز للمحقق مكتب مرتجل . . .

ونظر المحقق الى المتطوعين، قد اخذتهما رعشة ظاهرة . . وبدأ الجحوظ في عينيهما القلقتين ، فلم ير في ذلك ما يسترعي الاهتمام ، بل وجد له ما يسوغه في برودة الجو ، والنهوض المباغت من النوم ، واشار الى احد الاثنين بأن يدنو منه ، ولكنه لم يفهم ما يريد ، وجعل ينقل بصره بين رفيقه والمحقق في

نظرات زائغة ، فاضطر المحقق ان يشعره بقصده اليه ، وقال له في لهجة الامر : « انت .. تعال » ..

ولكن الرجل غلبه الارتباك ، فأخذ يحمحم ، وهو يسارق رفيقه النظر ، انا !! . لا ... ما انا .. هو .. هو .. !

وبدأ رفيقه فاغر الفهم ، كأنه عجز عن النطق ، وقد بهتت عيناه ، وأنطفأ بريقهما ، فكأنهما مصنوعتان من الزجاج ، ولم يستطع ضبط ساقيه ، فجعلتا تهتزان بصورة افقدته التوازن ..

وهنا امر المحقق باخراج هذا الى مكان آخر ، ودفع الاول نحو مكتبه مكرها ..

- لم يبق مجال للكتمان .. خير لك ان تعترف .. والا فقدت كل حق بالعطف ..

- اقسم لك .. اني .. اني .. لم اشترك بالقتل ..

واهتزت اعصاب المحقق وهو يسمع لفظة القتل الذي لم يذكر انه رأى في هيئة القتيل اي دليل على حدوثه .. وثارت رغبته في معرفة التفاصيل التي بدأت تتدفق جهد ..

لكن دورك بارز في الجريمة .. قلت لك : تكلم بصراحة وصدق لتستحق العطف .. وسترى ان كل شيء معروف .. ولا سبيل الى الانكار ..

- وبلغت اعصاب المتهم نهاية الانهيار ، ولم يبق له من سلطان على نفسه ، فأخذ يتكلم ، ويسجل الكاتب كل حرف من كلامه . حتى اذا استنفد التحقيق غرضه امره المحقق بالجلوس .. وحذره ان يتكلم الا باذنه .. ثم دعا بالمتهم الثاني : أي عبده ... لقد اتضح كل شيء .. فعليك بالصدق اذا شئت ان يكون لك حظ في الرحمة ..

وحدق في وجه رفيقه سعيد قبل أية كلمة .. ورآه يحرك كتفيه ويقلب كفيه اشعاراً باعترافه .. فلم يدر بأي كلمة يجب ان يبدأ ، وجعل يتمتم : الشيطان .. الشيطان .. لـ ..

وشد على أسنانه يريد اتمام كلمته ، ولكنه عجز عن ذلك .. ثم لم يستطع كلاما الا بعد ان نضح وجهه بالماء ومص بعض قطرات منـــه .. ثم راح يفضي بمكنونات في حال من الاعياء الارادي التام .

وتوالى الافراد باعترافهم واحداً تلو الآخر .. وكان في اقرار كل منهم ضرب من الايحاء القاهر ، يجر الآخر مكرها الى الافضاء بكل ما في نفسه ..

وكانت الساعة قد قاربت السادسة .. وأطلت تباشير النهار ، فلم يبق من مانع دون تمثيل وقائع الجريمه في مكانها ..

وعند شجرة الجوز توزع الثمانية مهامهم وأمكنتهم .. فتسلق عبـــده وآخر معه الفرع الممتد فوق الطريق ، وكمن اثنان في الخندق الأيمن من الطريق واحتل آخران خندقه الايسر .. ثم تولى الباقيان مراقبة طرفي الطريق ..

.. وكان لا بد للرقيب من المرور بهـــذا المكان .. فلما القى مبروك حصاته على الشجرة تأهبنا للعمل ، وانتظرنا حتى كان الرقيب تحتنا ، فقذفنا بانفسنا عليه وكاد يتغلب علينا رغم المفاجأة .. لولا ان أدركنا الرفاق من الخندقين ، فأخذ بعضهم بيديه وبعضهم برجليه ، وتمكنا بذلك من دفعه على وجهه .. وكان على ان أتولى عرك اخدعه الأيمن ، وعلى عبده عرك الأيسر ، فما زلنا بها حـــتى خمدت حركته تماما ... وهنا جاء دور سعيد فغرس دبوســـاً في النقرة الخلفية من عنقه حتى مزق الحبل الشوكي .. وبذلك تمت الخطة ، ونهضنا عن جسده ..

وكان (شحادة) يسرد هذه المعلومات وهو يتبع كلا منها بتمثيل عملي ويستشهد كلا من رفاقه على دوره في ذلك ، فيأتي الاقرار مؤكداً لا خلاف فيه ولا غموض ..

٤

.. واستغرقت محاكمة القتلة قرابة الثلاثة الاشهر .. وصدر الحـــكم باعدام ثلاثة منهم .. وتفاوت نصيب الباقين من السجن بين الخمس والخمس عشرة

من السنين ..

وكان الرقيب برهان واقفاً خارج قوس المحكمة يستمع الى قرارها ، فلم يستطع ان يتمالك دمعتين كبيرتين تدحرجتا على وجنتيه ..

انه لا يشك في عدالة الحكم .. ولكنه يتساءل في حيرة وحرقة : لقد جاء هؤلاء ليظفروا الشهادة في فلسطين ، او يسهموا في انقاذها ، فلماذا حرموا احدى الحسنيين ؟.. ومن المسؤول عن تحويلهم الى هذا المصير الحقير !!!

اللهم ... لك الحمد

حدث هذا في احد الايام في عام ١٩٢١ وفي مدينة بانياس الساحلية ... كنت اذ ذاك في الثالثة عشرة من سني ، ومع ذلك لم ير والدي مانعا يحول دون ارسالي الى ذلك البلد ، الذي كان من اخطر مناطق الاعمال الحربيه التي تدور بين الثوار ومرتزقة الفرنسيين ... وكانت مهمتي في هذه المغامرة تسقط اخبار جدتي العجوز التي لزمت مع بعض الاسر في قلعة المرقب مساكنها ، على الرغم من الرعب الذي يثيره من حولهم صباح مساء ازيز الطائرات ، ودوي القذائف التي لا تكاد تسكت ...

كانت جدتي اول الامر قد تأخرت مع ولديها الفتيين لجني المحصول ، ولكن القدر سرعان ما حال بينها وبينهما ، اذ سقطا في يد الحملة الفرنسية ، بينما كانا في طريقهما الى احدى القرى القريبة .. وبذلك لبثت وحدها معرضة لمختلف الاحداث ، وهذا ماشغل بال والدتي ، واقلق خواطر الجميع ، فلم يكن بدمن السعي لاستنقاذها باية وسيلة ، وقد وقع الاختيار علي لان صغر سني كفيل بأن يصرف عني الشبهات فيجعلني في مأمن من مراقبة الفرنسيين الذين لن يمنعوني من التجول بين بانياس والقلعة عندما يتاح لي ذلك ...

واقمت في بانياس اياما عند اقرباء والدتي ، وكثيرا مادفعني الفضول الى التغلغل في منطقة الميناء ، حيث تفرغ مشحونات الجيش الفرنسي من

البواخر والسفن .. ولم اجد صعوبة في التتبع لاخبار جدتي ، ومعرفة اوضاعها عن طريق بعض النساء اللواتي يترددن لامر ما بين القلعة والمدينة في مختلف اوقات النهار ، وكدت انجح في التسلل مع بعضهن الى القلعة ذات صباح لولا ذلك الازيز الهائل الذي فاجأ اسماع الناس في بانياس، منطلقا من مئات البنادق ، وعشرات المدافع ، وبعض الطائرات ...

وتسرب الهمس في كل مكان : أن الثوار يهاجمون القوى الفرنسيه.. وقد بوغت بهم العدو على مشارف البلد ..

وما لبثت أن أبصرت احدى الطوائر تدور على نفسها قادمة من ناحية القلعة ، وقد اندفع من احد جانبيها الاغبرين سيل من الدخان لم يلبث ان استحال نارا لاهبة .. ثم رأيتها تهوي متأرجحة على بعد غير كبير من طرف المدينة الجنوبي ...

وتتابع القذف من هنا وهناك .. وكانت الشوارع قد خلت من المارة . ورأيت جماعة من الجنود ينطلقون على غير هدى ، ويطلقون نيران بنادقهم دون هدف ..

ويبدو ان الثوار لم يكونوا مصممين على احتلال البلد ، او على الاصح لم تكن لديهم القوة العددية الكافية للاعتصام بالبلد ، لذلك ما لبثوا ان انسحبوا من حيث اتوا ، بعد ان اوقعوا في قلوب عدوهم دقة من الذعر لا ينساها .. وحملوا ما استطاعوا من اسلحته ومؤنه... وفي مساء ذلك اليوم سمعت عم والدتي الشيخ العجوز يقول لزوجته : هل علمت ان (مصطفى ليلى) ... قد سقط اسيراً في ايدي الفرنسيين !! لقد نفذت ذخيرته ، ولم يبق في البلد سواه من المجاهدين ، وكان على ابواب السجن يريد اطلاق من فيه عندما دهمه العدو واودعه السجن).. وتمتم الشيخ وزوجته في ضراعة عميقة : اللهم احفظه .

ولقد استغرقني يومئذ شعور حار بالعطف على ذلك الاسير البطل .. واحسست بلهفة قلقة لمعرفة مصيره ، ولم يكن في وسعي ان اصنع شيئا

له سوى الدعاء عقيب كل صلاة : اللهم احفظه .. »

وكان تطور الاحداث اثر ذلك قد قضى على أملي فى الاتصال بجـــدتي العجوز ، ولكنني أصبحت مطمئن القلب عليها ، اذ علمت انها انتقلت من القلعة الى دار ابنتها الثانية في قرية البساتين ، وهي القرية التى يحميها من الفرنسيين كونهـا مقر أسرة آل (أ ..) التي عرفت باخلاصها لهم ، وتفانيها في الزود عن مصالحهم منذ وطئت أقدامهم هذه الارض ولهذا كان علي ان اغادر بانياس بعد ان استنفد وجودي فيها غرضه ، وانتهزت فرصة مرور احدى السفن الارودية بميناء بانياس وكان ربانها من اقرباء والدي ، فاخذت منها مكانا الى طرطوس .. وبذلك فقدت كل أثر لأخبار ذلك الاسير .. ثم درجت الايام والاعوام على ذاكرتي فلم يخطر ذكره في خلدي قط الا حين أيقظه حديث صديقي البانياسي بعد ثلاثين سنة من ذلك التاريـخ ...

٢

وكان صديقي حي الخيال ، دقيق الوصف ، تخير لحديثه طريقة العرض القصصي ، فردني الى الجو نفسه الذي عشته تلك الايام ..

قال صديقي البانياسى :

« .. كان الفرنسيون قد احتلوا دار جدي ليجعلوا منه مقراً لقيادتهم ، وهي مجاورة لدارنا كما تعلم ، فأتاح لي ذلك ان أتعرف الكثير من انبائهم ، وأعقد بعض الصلات مع اكثر من واحـد من الجنود المغاربة ، الذين يقومون على حراسة المقر .

وقد تجرأت يومئذ على سؤال أحد هؤلاء المغاربـــة عن مصير الاسير (مصطفى .) فهمس في أذني : انه هنا في احدى غرف الدار ... أمر القـائد الفرنسي بنقله اليها حرصاً على بقائه .. وليتخـذ منه وسيلة للضغط على الثوار ..

وأخبرني الجندي انه هو المكلف بحراسته ... والعناية بأمره ، ولكي يرضى قضولي راح يؤكد لي انه يوفر له كل ما يسعه من الرعاية ، فقد حل وثاقه ،

وجعل يشاركه بطعامه ، ويقدم اليه الشاي والقهوة والتبغ .. وحتى الماء الموضوء ... ولا ينسى ان يؤكد علي بضرورة الكتمان لذلك خشية تسرب الخبر الى القائد .. « الحلوف » كما سماه ..

وكان الحاجز بيننا وبين دار القيادة جداراً قصيراً تجللة فروع الياسمين والنسرين ، فلم أستطع منع نفسي من التطلع بين الحين والحين الى فناء القيادة من خلال تلك الفروع ، رغبة في رؤية ذلك الاسير المغوار .. ولكنه كان محجوبا عن عيني في حجرة جانبية أحكم اغلاقها ، وسدت نوافذها ، فما يتاح لأحد ان يطل على جوفها الا ذلك الجندي الموكل به ..

حتى كانت ذات ليلة .. وقد قارب فجرها ان يلوح .. فاذا نحن بطلقات رشيش تتعالى من البستان المقابل .. تؤازرها طلقات بنادق متقطعة هنا وهناك .. ولم أعد أطيق لزوم الفراش فتسللت من خلف والدي الى فضاء المنزل ، ثم أخذت أتابع من خصاص الباب حال الجنود ، الذين كانوا في حركة دائبة ، يتجمعون ثم يتفرقون .. وسمعت أحدهم يهمس الى آخر : وكيف استطاع الهرب ؟ ..

وهنا أدركت ان الاسير قد فر من محبسه ، وان الجنود يطاردون برصاصهم الفضاء ارهاباً .. فشعرت بمزيج غريب من البهجة والحزن والخوف .. ثم رحت أتابع حركاتهم في حذر بالغ ، وما هو الا يسير من الزمن حتى بصرت بالجندي المغربي « خليل » في حراسة عدد من مرتزقة الفرنسيين يقتادونه الى دار القيادة .. وقد أمسكوا بيديه ، وأحاطوا به من كل جانب ..

وتسلقت السلم المسند الى الجدار في كثير من التؤدة ، ودسست رأسي خلال فروع الياسمين .. وجعلت أضغط على أنفاسي ، فلا تتسرب الا في أقل ما يمكن .

وفي سرعة كبيرة .. أخذ القائد الفرنسي مكانه على مقعد خلف منضدة احضرت لتوها من داخل البناء ، واوقف الجندي المسكين تجاهه .. في وسط نصف دائرة من الجنود الشاكي السلاح ..

وارتفع صوت القائد ، ثم اعقبه المترجم يقول : بسرعة تكلم .. لم اطلقت (الشتا) ؟ .. !..

وفي نبرة يمزقها اليأس والاستسلام تكلم خليل : لم أطلقه .. ولم انتبه اليه الا وهو يتسلق الجدار الخارجي .. فحركت زناد البندقية لاطلق النار فوق رأسه .. ولكن الرصاصة لم تنطلق .. وهرعت وراءه وانا احرك الزناد .. دون جدوى .

وبالطبع لم يكن (الحلوف) راضيا عن هذا الدفاع ، فسمعت وقع اضراسه وهو يضغط عليها من الغيظ .. ثم اخذ يتكلم ... واذا الترجمان ينقل حكمه الى الجندي المسكين قائلا : ان القائد قرر ان تطلق عليك عشر رصاصات من جعبتك نفسها .. وسيتضح حينئذ مدى صدقك فيما زعمت ..

ولم يمهل القائد فريسته .. فاذا هو يقف ليصدر اوامره .. وما هي الا لحظات حتى كان خليل مشدودا الى شجرة الازدرخت المواجهة لي .. وعشرة من الجنود يسددون اليه فوهات بنادقهم التي حشيت بعشر من خراطيشه ..

وكان الفجر قد بدأ يرسل خيوطه الكاشفة على الافق ، فتتلاشى امامها اكداس الظلمات .. ورأيت وجه سويلم شاخصا الى السماء ، وهو يتمتم بالشهادتين .. ثم سمعت صوته يتدافع في مثل حشرجة المحتضر ليقول: اللهم رحمتك ... »

وهنا احسست ان الجدار يميد بي ، وكأن رجلي قد شلتا فلم تمكناني من الهبوط .. فاغمضت عيني في ذهول موجع .. وترأى لي انني في حلم مزعج .. ثم خيل الي انني اسمع من خلال ذلك الحلم صوت (الحلوف) يهتف في وحشية رهيبة : (أتاش)

واعقب ذلك دفقة من الصدمات الحديدية الجارحة ... الا أنني لم أسمع قط اي اثر للانفجار ..!

ووجدتني انفض رأسي ، لاستوثق مما ارى .. ثم ارسلت بصري من

خلال الفروع كرة اخرى ، أدقق النظر في اجزاء المشهد .. وشد ماسعدت عندما رأيت الحلوف يصدر امره بالافراج عن خليل .. ثم رايت هذا ينزلق الى الارض ، وقد عجزت قدماه عن حملة ، واهوى بجبهته ساجدا على التراب ، وهو يقول : اللهم لك الحمد ..!

وكنا مأخوذين بقصة الصديق ، فاذا نحن ننسى ما بيننا وبين الحادثة من حواجز الزمن ، فنردد مع خليل في خشوع فطري حار : « اللهم لك الحمد .. » !

من وحي الموت

أنا اليوم في نهاية الاسبوع الثالث من عمر الفاجعة التي افتقدني بها القدر .. الساعة الآن الثامنة والنصف .. وهو الموعد المشؤوم الذي حدثت فيه الكارثة .. في مثل هذه الدقيقة قبل أسابيع ثلاثة كنت في طرف اللسان الغربي من مقهى المنتزه أرسل عيني في أبعاد البحر الممتد الى غير نهاية .. أراقب الصيادين وهم يعبرون في سفنهم الشراعية والآلية باحثين عن السمك .. متفقدين الفخاخ التي نصبوها منذ مساء أمس .. وألاحظ زوارق السباحة التي يدفعها التلاميذ بمجاذيفهم الممتدة كذراعي اللاعب الهزيل ، وهو يقوم بتمرينات الصباح في الهواء الطلق ..

كان كل شيء جميلا مغريا كمواكب الاساطير .. يثير في نفسي مزيجاً من الأسى الخفيف ، والغبطة الراقصة .. ولست أعرف لذلك الأسى من تفسير الا ان يكون غصة الشعور بالحرمان من مثل هذه المتع البريئة ، التي يعبر بها الصيف عن معناه الجميل في هذه البقعة الناعمة من شواطي اللاذقية .. غصة الكهولة التي تستشعر الانفصام عما حولها من روائع الحياة ، التي قضت قوانين الحياة غير المكتوبة ان لا يكون لأمثالي فيها من حق ..

وكنت وحدي .. لان حاجتي الاولى في هذه الايام هي أن أقرأ .. وأكتب .. فأنا هارب من الناس ، يمر بي أحدهم من معارفي فأرد تحيته في حب ، ولكن في غير تطويل ، اذ لا أريد أن يشغل نفسه بي .. فينصرف عن كتابه

ومتعته الى مجالستي ، أو أنصرف عن كتابي وقلمي الى محادثته ...

واستمر بقائي هناك الى قرابة الظهر .. ومن ثم كان علي ان أغادر مجلسي الى السوق ، لتدارك بعض الحاجات الضرورية .. فتركت المقهى وأنا راض عما أنجزت من عمل ، اذ يتيسر لي ان انهي معظم أقسام القصة التي ابدأ بها انتاج الصيف ...

وعلى مدخل الدار .. وقبل ان أبلغ السلم لمحت جاري الضابط يقف بانتظاري ، فما أن بصر بي حتى سمعته يقول في لهجة لم تخل من طابع العتاب : لم أدع مكاناً ذكر لي انك ترتاده الا ألممت به سائلا عنك .. فأين كنت ؟...

ولم أستطع تصور السبب الذي يدعو الى كل ذلك فتقدمت منه ، وصافحته وأنا أقول ؟ لو اتصلت بي عن طريق هاتف المدرسة ، أو مقهى المنتزه لوفرت عليك هذه المشقة ، التي يؤسفني ان اكون سببها .

ودعوته لدخول الدار .. فاعتذر .. وأمسك قليلا عن الكلام كأنه يفتش عن اللفظ المناسب ثم قال ؟ لقد ورد إلي هاتف من طرطوس ...

ـ من غسان !! ـ هو كذلك . ـ خيراً ان شاء الله !..

وعاد الى الصمت لحظة .. ثم قال : أرجو ان يكون خيراً ..

قلت يبدو ان هناك أمراً ما تريد ان تفاجئني به !.

وبعد تردد ملحوظ قال : ولكن ثقتي بحكمتك تجعلني أتخلص من التردد ان (المنذر) في خطر .. لقد سقط من النافذة .. وهو الآن مع أبويه في طريقه الى اللاذقية ..

وبغتة وجدتني في شبه غيبوبة .. لا أدري ما أعمل ، ولا كيف أتجه ، ولا ما أقول .. ولكن هذا لم يدم سوى فترة يسيرة ، اذ تذكرت انني في موقف يتطلب الصبر والتمالك .. وجالت في رأسي عشرات الظنون والتصورات .. انه جريح .. كسير .. مشوه .. يجاء به الساعة الى اللاذقية لاجراء جراحة .. لتأمين اسعاف فني لا يتوفر في مشفى طرطوس !... أم تراه قد لقي حتفه وانتهى ؟.. وليست كلمة (خطر) الا حيلة يراد بها التمهيد لتقبل النتيجة

الحاسمة !..

ورسمت على وجهي ابتسامة فارغة .. وقلت لجاري الطيب : أحسبك تخفي عني الخبر الصاعق .. لقد مات المنذر .. لقد مات .. أليس كذلك يا جاري العزيز !..

ولم يشأ الرجل ان يكذب علي .. ولكنه أكد إلي انه ينقل النبأ الذي تلقاه .... واستأنف يقول : لقد هتف إلي قريب لكم ان يطلب ان أخبركم بسقوط المنذر ، لكي تحضروا معالجته ... وبعد قليل عاد ليهتف إلي ألا حاجة الى سفركم .. لانهم قادمون به الى اللاذقية ...!

وكان النبأ قد تسرب الى اهل البيت بالاسلوب نفسه .. فلما رآوني احاطوا بي يسألون في لهفة ... ويرددون على مسمعي التصورات نفسها ، التي رددتها على نفسي قبل دقائق .. ولكن أياً منهم لم يجرؤ على ذكر الموت .. فالتفت حينئذ الى أم غسان ، وهي التي اخاف عليها النبأ أكثر من الجميع وقلت : لا تنسي انه امانة الله ... وله ان يتصرف بها كما يشاء ..

وكأنها احست من كلماتي بعض ما أريد فصرخت : لا .. لا يمكن .. انه جريح جريح فقط !..

قلت : هو كذلك .. والجرح كما يبدو خطر جداً .. فيجب ان نوطن انفسنا على تحمل كل شيء ..

ولم نلبث إلا قليلا حتى رأينا سيارة غسان تقف تحت الشرفة .. وتسلل منها ابن اخي .. ثم خاله .. وآخر ، وتكاد ارجلهم تنوء بهم .. ولم استطع البقاء هناك . فذهبت اطوف البيت على غير هدى ، وانا اذكر الاهل بوجوب التسليم لامر الله ، والتأدب معه ، فلا يسمع منا مالا يرضى من القول ..

وأدخل جثمان الحبيب البيت الذي كان يعد الايام والساعات لموعد زيارته الاسبوعية .. ادخل قبل ذلك الموعد المرتقب بيوم .. ادخل صامتاً هامداً ، ليستريح قليلا في الفراش الذي طالما احتضنه في الامساء وهو يغني باسم (جدو) و (تيتا) .. وطالما احتضنه في الصباح وهو يسأل عن (جدّو)

و (تينا) و (عمو) . واليوم يستقبله لكي يسلمه بعد قليل الى اليد الغريبة التي ستتولى غسله الاخير . . والتي ستودعه مقره الذي لا قيام منه قبل النشور . .

ثلاثة اسابيع تنقضي من عمر الفاجعة .. تغيرت خلالها الحياة ، وتبدّلت المفاهيم ، وتتابعت الاحداث وفيها الكوارث والزلازل التي ذهبت بآلاف البشر في شرق وغرب .. وانا منها كيومها الاول ، لا يجف لي دمع إلا في فترات الغفلة .. التي تمر بنفحات الرحمة الالهية على القلوب المكلومة ، فتكون لها كمنازل القافلة في طريقها اللاهب ، تحط فيها لتستجم ، ثم تواصل جهادها في الهواجر التي لا تعرف الشفقة ..

يذكرني صفاء البحر ، وهو يعكس زرقة السماء ، ببريق عينيه الزرقاوين تبددان بوحيها هموم نفسي . . وكأني أرى في انبثاق الفجر ابتسامة منذر الحبيبة تتلألأ على ذلك المحيا ، الذي لا أجد في قلمي القدرة الكافية على وصف اشراقه . . والمساء كذلك . . لا أرى اصيله الذهبي إلا تذكرت الوهج المتألق الذي يتوج رأس الحبيب الصغير .

ولعمري . . لقد لبثت عمراً أقرأ شعر الخنساء في صخر ومعاوية .. واشرح معانيه لنفسي ولغيري ، ولكنني ما كنت لأحيط بمرادها في قولها :

يذكرني طلوع الشمس صخرا واذكره لكل غروب شمس

كما احطت به بعد فاجعتي بمنذر ..

وها أنا ذا اغادر البلد الى الجبل .. لأحول بين عيني وقبره .. اطل في ساعات النهار كلها على السفوح والذرى ، تغيب في أزرع السماء القريبة ، وأتعرض لاشعة الصباح تضحك للدنيا من خلال القمم المعممة بالغيم . . وقد ندتها نفحات النسيم ، المحملة برائحة التراب واريج الفواكه وعبير الزيزفون الخشوع .. ولكن هذا كله الذي كنت اتوقع منه ان ينسيني

حبيبي لا يزيدني الا تذكراً لروائح ذلك الحبيب .. ولعل أشد ما يؤرث احزاني ، ويجدد أشجاني ، تلك القبور التي تتبعني أينما ذهبت ، فلا أكاد أفقد رؤيتها في مدينة وقرية .. فأقف أناجيها ، وأحيي أرواح ساكنيها .. وتخيل لي ان تحت كل جثوة منها أخاً أو أباً أو صغيراً عزيزاً .. حتى لأذهل عن واقعي أحياناً فأقف على أي ضريح أناديه في أنين محرق : سلام عليك يا حبيبي .. سلام عليك يا منذري .. أنت من السابقين وأنا على أثرك من اللاحقين .. فكأن متمماً بن نويرة إنما يسجل واقعي النفسي حين يقول في القبور التي تذكره بأخيه مالك :

لقد لامني عند القبور لدى البكا ... صديقي لتذراف الدموع السوافك
فقال ابكي كل قبر رأيته ... لقبر ثوى بين اللوى والدكادك
فقلت له : ان الشجا يبعث الشجا ... فدعني فهذا كله قبر مالك

وليغفر الله للائمي متمم .. لقد كانوا يريدونه ان يصم اذنيه عن نداء القبور ، وان ينظر اليها من خلال عيونهم ، فلا يراها الا أكداسا من التراب والحجارة ، لكل رجمة منها نزيلها ، ولكل نزيل من يبكيه .. وقد نسوا او جهلوا ان الموت هو القوة الوحيدة التي تزيل الحواجز بين بني الانسان ، حتى لتجعل الموتى كلهم في نظر المنكوب ميتا واحدا هو فقيده ، والضرائح جميعها ضريحاً واحداً هو ضريح هذا الفقيد ...

وليغفر اللائمي في بكاء منذر وذكره .. ان ابلغ حكمه يسوقونها إلي في هذا الصدر هو قولهم : ان غسان لا يزال شابا ... وسيرزقك الله منه خيرا ممن فقدت .. ! « وقد فاتهم ـ سامحهم الله ـ ان ملء الارض من الاحفاد لا يسد فراغ واحد منهم . واني لا ادري اى فرق بين تعزيتهم هذه ، وبين قول احدهم لرجل فقئت عينه : عليك بالصبر لان شعرك والحمدلله لا يزال ينمو ، وحلايا جسمك لا تزال في تجدد .. ولو اتيح لهم ان يعيشوا لحظة

احاسيس القلوب المفجوعة لعلموا ان ابن الرومي لم يكن هاذياً عندما قال :

واولادنا مثل الجوارح .. ايها فقدناه كان الفاجع البين الفقد
لكل مكان لا يسد اختلاله مكان اخيه من جزوع ولاجلد

ولكني مع ذلك اشكرهم لانني اقدر عطفهم ، واعذرهم لاني اقدر جهلهم .. ولقد اتى علي حين كنت اتصور فيه الصبر على قدر العقل ، وان البكاء ضعف لا يليق بالرجل المؤمن ، حتى اذا امتحنت بالمنذر ادركت ان الخلي غير الشجي ، وان الدمع احب مؤنس للقلوب التي اوحشها فراغ الاحبة . . ورحم الله ابا ذوئيب الذي عاش هذه الحقيقة كاملة ، فصورها صارمة في هذه النفحة النابعة من صميم روحه :

ولقد ارى ان البكاء سفاهة ولسوف يولع بالبكاء من يفجع

قبل ثلاثين سنة ذهب الموت ببنت لكبير اعمامي ، فاده الخطب حتى اوشك ان يذهب ببصره ، بل ذهب باكثر بصره .. وكان الناس يسمعون منه اينما رأوه هذا النجوى الجريح : يا نصر ـ وهذا اسمها ـ آه يا نصر ..! وتنهمر دموعه حتى تنفد . ثم توفاه الله وهو يناجي نصرا .. ويستعجل لقاءها . ولقد بت والله اشد ما اكون شبها بهذا العم ، رحمه الله ، لا اكاد استطيع صرف لساني عن ذكر منذر ونجواه .. وعلى الرغم من الحيطة البالغة التي ابذلها لصون دمعي ولساني عن اعين الناس واسماعهم كثيراً ما افاجأ باعين تلمح دموعي ، وآذان تسمع نجواي من حيث لا اتوقع .. فلا اعرف كيف اداري نفس ولا ادري كيف اعالج موقفي ، فامضى على وجهي بين حرقة الاسي وغصة الحياة ..

وقد عرفت مثل هذه الرقة البالغة في عمي والاخرين ، وفي والدي الذي كان رحمه الله أشد الناس قسوة علينا اذا ما اعتراه الغضب ، فاذا ما نالنا السوء أرقه الجزع ، وغلبه الدمع حتى

تخضل به لحيته . . .

ولعل في نفسي شيئـــاً منهم انتهى إلي عن طريق الارث الذي لا يدفع .. ولكنني أحس مع ذلك ان ثمة شيئاً أكاد أختص به دونهم ، هو الذي يضغط على قلبي بهذه الاثقال الفادحة من الاسى . . انـــه الوحدة الروحية التي اعيشها في معزل حـــتى عن أقرب الناس إلي . . هؤلاء الذين لا يكادون يفقهون عني شيئاً . .

لقد كان منذر أنساً لروحي المتوحـــدة . يطل علي يوم الخميس والجمعة من كل اسبوع ، فيصل ما انقطع بيني وبين الحياة . . ويمنـــح قلبي اليتيم ما هو في مسيس الحاجة اليه من الحب .. الحب الذي لا معنى للحياة بدونه ، والذي قضت القوانين غير المكتوبة الا يكون للكهـــول حق في أي حظ منه ..

أجل . . انني أبكي منذراً لانه كان ينطوي على السر الذي لا غنى لقلبي عنه .. لانه كان بقية الشعلة التي استطاعت ان تبدد ولو لبرهة يسيرة بعض ظلمات حياتي .. بل أنا في الواقع أبكي نفسي الـــتي جفت بموته . . كما يبكي الحقل المهجور الجدول الذي طالما ندى صدره بالبلل المخصب ، وشفف سمعه بالخرير المحيي . . . وداعب أحلامه بزهو الجمال .. وأغلب الظن انني سأظل أبكيه حتى تبيض عيناي من الحزن كيعقوب .. وحتى يوافيني الأجل فيجمعني به في ظل رحمة الله ، كما أنقذ القدر عمي من وحشة الفراق .. فجمع بينه وبين فلذة كبده ..

تلك هي الحقيقة . . انني أبكي نفسي لا منذراً . . ولو كان الامر بالمنطق ، لكان علي أن اهنئه لان الموت ، وهو قدر الله الحكيم قـــد أنقـــذه من عيشنـــا . . . عيشنـــا الذي لا يحســـد ميت عليه حياً ...

فليدع لومي اولئك الطيبون الذين يؤلمهم حزني ..
وليصرفوا عني أعينهم حين تترقرق عيناي بالدموع ..

اني لا أبكي منذراً .. ولكنها نفسي التي أبكي . . .
اني لا أرثي ذلك الحبيب . . . ولكـــنه قلـــبي هـــو الذي يرثيني . . .

أجل : أنـا لست أرثي منـــذراً . . . لكنه قلبي بعض دموعه يرثيني

★ ★ ★

خطأ في خطأ

كان الناس في جسر الشغور وما حولها ينظرون الى الشيخ غانم، والاوسطه احمد على انهما الحاكمان الفعليان للقضاء . . لا يقطع القائمقام التركي خيطاً الا بمشورتهما ، لذلك كانوا يتسابقون لاكرامهما ، وقد بات مألوفاً ان يرى الانسان بعض القرويين والبدو يسألون عن دار الشيخ والاوسطه لايصال ما يحملون من الهدايا وليس ضرورياً ان يكون للقوم بهما أية حاجة ، ولكنها العادة التي لا سبيل الى تغييرها او تعديلها ، ما دام في الامكان ان تحدث لهؤلاء حاجة ما اليها او الى احدهما ذات يوم .. !

وكانت الصلة بين الشيخ والاوسطة ذات وجهين، فهما على وفاق تام في الاخلاص للقائمقام ، واطلاعه على كل ما يهمه الاطلاع عليه من شؤون الناس . . وقد عرف لهما هذا الاخلاص ، فهو يقدر رأيهما ، ويأخذ به في كثير من الاحيان وهذا الشيخ غانم قد أصبح بسبب ذلك من أقرب المقربين اليه ، يستشيره في الصغيرة والكبيرة ، ولا يكاد يفارق مجلسه في دار الحكم طوال ساعات الدوام، الا ان يحول دونه عائق من مرض او سفر . وكذلك الشأن بالنسبة الى خادمه الاوسطة احمد ، فهو يعامله كالأخ البر ، يحوطه بعطفه . ويفوض اليه الامر في كل ما يتعلق بشؤون الدار والاسطبل . وكثيراً ما يباسطه ويبادله المزاح ،متخليا بذلك عن كل ما عرف به من تزمت وعبوس عند تصريف امور الادارة. .ويكفي دليلا على ثقته فيه هو الذي اخترع له لقب (الاوسطة) مبالغة في اكرامه ..

اما الوجه الثاني من هذه العلاقة فيتجلى في ذلك التنافر الذي تتسم به أحاديثها الخاصة ، ولاسيما في النواحي الدينية ، التي لا يستطيع الشيخ غانم التخلي عن اثارتها كلما وجد نفسه في خلوة مع احمد !. وقد اوشك الخلاف بينهما ان ينحصر اخيراً في نقطة ضيقة ، ولكنها ، كما يبدو ، حساسة لا تفسح المجال لأي تقارب او تهادن بين الاثنين .

فالشيخ غانم يصر على ان الملاك جبريل قد اخطأ في تأدية رسالة الله فبدلا من ان يسلمها الى علي كما امره الله ، وجهها الى محمد !.. لان كلا منهما كان أشبه بالآخر من التوأم بأخيه ..!

وطبيعي الا يستسيغ الاوسطة احمد هذا الادعاء ، لأنه لا يستطيع ان يتصور جبريل ، وهو امين الله على وحيه ، معرضا لمثل هذه الغفلة ، التي لم يتعرض هو لمثلها قط في اية مرة حمل فيها رسالة من القائمقام ..! ولو ان احمد هجر عقله ورضي مثل هذا الادعاء الذي لا دليل على صحته ، فلا بد له ان يسأل نفسه: وكيف رضي الله ان يقع مثل هذا الخطأ ، ولماذا لم يحل دونه ، ولم لم يصححه فيما بعد ، اذا هو قد وقع حقا .!! ولا شك ان كل تخطئة لجبريل في هذا الموضوع تنطوي على اتهام الله نفسه بالغفلة ، او العجز على منعها ، او السكوت عليها .. وكل اولئك مما ينؤ به دماغ الاوسطة احمد ..!

اما دعوى التشابه بين محمد وعلي .. فما كان لمثله ان يقطع بها ، لان ذلك امر تاريخي يعرفه العلماء ، وقد رجع الى احدهم يستفتيه فجاء الجواب مهدما لكل مزاعم الشيخ غانم ، لان محمداً ـ حسب كتب التاريخ ـ بعث في الاربعين ، وآمن به علي وهو ابن عشر ، فالفرق بينهما مما لا يتسع لاي خطأ .. ويكفي هذا وحده حجة تسكت كل معاند .. غير الشيخ غانم الذي ظل مكانه لا يقبل اي تعديل لرأيه ، بحجة ان الحقائق الالهية لا تؤخذ من الكتب ، لانها صورة الظاهر وحده ، فلا مندوحة لمعرفتها يقيناً من الرجوع الى الباطن ، وهو موقوف على اهله .. الذي نقلوه عن امثالهم بطريق المشافهة والتلقين ..!

وكان ثمة فرق آخر بين الرجلين .. لا بد انه ترك طابعه في

علاقتهما أيضاً ...

فالشيخ غانم ذو مزاج بارد ، تغلب عليه الرصانة والصبر ، فهو قلما يستسلم الى اندفاع الحماسة كما يحدث لاحمد . انه يكتفي بالقاء كلمته في عبارة مثيرة موجزة ، صبت في قالب الحزم فلا مساومة . ولا تردد .. وقد أوتي عينين نفاذتين تموجان بالغموض ، فاذا واجهتاك لم تعرف ما وراءهما من اسرار . وهو طويل الاطراق ، قبل ان يرسل كلمة في امر كهذا قبل ان تخلل اصابعه كل شعرة في لحيته العريضة المفروقة على جانبي صدره .

ولا كذلك احمد .. فهو مثـــل صاحبه اقرب الى النحافة والقصر ، واعله في مثل سنه ايضاً .. ولكنه بعكسة تماما من حيث المزاج ، اذ هو سريع النكتة ، خفيف الروح ، يضع في كلامه اعصابه ، كأنه خطيب متحمس ، غير انه مـــع ذلك مهذب المنطق ، لا تعرف اللفظة النابية طريقاً الى لسانه ، .. يعرض حجته التي اقتنع بها ، فاذا وجد في محدثه لفاً ودوراناً ومكابرة قابل ذلك بنكتة طريفة مثيرة ثم مضى لسبيله !..

ومن هنا كان تنافر الرجلين ...

بيد ان هذا التنافر المستمر ظـل في حـدوده المعقولة ، فلم يجرهما الى أية خصومة ، بل ظلا على وفاق تام في ظاهر امرهما ، تماما كما يحدث بين حيوانين متعاديين ، جمعت بينهما تربية منزلية فأنست كلا منهما غريزة العدوان ..؟

٢

وذات يوم التقى الاوسطه احمـــد بالشيخ غـانم عقيب صلاة الجمعة ، فلم يشاءا ان يفترقا قبل ان يطـلا على مجرى العاصي .. وهنـاك التفت الشيخ الى صاحبه يقول : ان منظرك لمهيب في هذه الصبغة الجديدة ..

وجعل يمسح على لحيته ويقول : لقد كنـا حتى صبـاح اليـوم متشابهي الشعر كلانا مخلوط السواد بالبياض .. سلق بلبن .. فلمـاذا تعود الى الصبا ، وتتركني وحدي في نطاق الشيخوخة . !

وهذه اول مرة يستعمل غانم فيها اسلوب النكتة مـع رفيقه ، ولكنها

نكتة ظلت في حدود اللفظ ، اذ لم تستطع ان تمحو عن وجهه عبوس الجد ..!

واجاب احمد : وما الذي يمنعك من استرداد شبابك ؟ ..

ـ وكيف ؟ .. واين اجد ذلك ؟ .

ـ في الحمام . لقد كلفني الحمامي تحضير الخضاب المناسب، وعقب الاستحمام قام هو باجراء الواجب . فاذا شئت كلفته ان يحضر لك مثل ذلك ، ويقوم بأمرك على وجه يسرك ..

ـ سأكون شاكرا لك هذا .. ولكن متى نفعل ؟

ـ خير البر عاجله .. اليوم اذا أردت .

ـ وما لبثا ان عادا ادراجهما الى داريهما المتجاورين ، بعد ان تواعدا على التلاقي في الحمام بعيد صلاة العصر ..

ولم يكن ثمة سبب يدعو الى اخلاف الموعد أو تأخيره ، فما ان حان الوقت المقرر حتى كان الرجلان في صحن الحمام ..

وجاء صاحب الحمام نفسه يحتفي بالرجلين .. وأشار الاوسطة احمد عليه بمضاعفة الاكرام للشيخ .. ورأى الشيخ غانم صاحبه يهمس في سمع الرجل ، فلم يشك في انه يوصي به خيراً .

ولم يخب ظن الشيخ فقد لزم الحمامي خدمته ، فاعد له مقصورة خاصة ، ولفه بانفس الاقمشة ، وأقبل عليه يدلكه بقوة وعناية ، كأنما يريد ان يكسوه جلداً جديداً .. حتى اذا استوفى عمله ، عمد الى طبق ذوب فيه ضرب من المساحيق، فجعل يلطخ به لحيته ورأسه ، في دقة وتعميم ، ثم قدم اليه طبقاً آخر وهو يقول :اذا تكرمتم دهنتم بهذا شعركم السفلي .

واسدل الحمامي ستار المقصورة ، ليفسح للشيخ مجال العمل، فيؤمن لنفسه الخدمة التي ليس من حق غيره ان يقوم بها ..

٣

كاد القائمام يتفجر من الغضب ، فقد أرسل بطلب الشيخ غانم مرتين،

وانتظره طويلا ، وها هو ذا يوشك ان يسمع اذان الظهر قبل ان يرى وجهه ..! انه في البيت ، لا شك في ذلك .. وقد أخبره الحاجب انه كلما سأل عنه في الدار جاءه الجواب عن لسانه بأنه لا يستطيع مبارحة البيت !.. وما كان الشيخ ليتخلف عن مجلسه الا لعذر قاهر .. فما هو عذر اليوم ؟.. أهو مريض ؟.. أم هو متمارض !..

واستدعى الحاجب للمرة الثالثة . وجعل يضرب النضد ، وهو يصيح بلكنته المضحكة : غانم . . يجب حضوره حالا .. لا تؤد الا به .. فهمت ؟؟. لا أقبل أذراً الا أن يكون مريداً .. أو ميتاً ..

وأحس الحاجب ، وهو يستقبل ثورة القائمقام ، كأنه يعاقبه على غيره ، لذلك خرج وفي نيته تصميم على ان لا يعود الا بالشيخ أو بخبره . ولكنه ما كاد يتجاوز الباب الا قليلا حتى عاد وهو ممسك بيد الرجل .. وقال: ها هو ذا يا سيدي .. وستسمعون عذره من فمه ..

وألقى الشيخ غانم سلامه على القائمقام في صوت يكاد لا يسمع ، ودون أن يدنو لمصافحته . وبدلا من ان يجلس في مقعده المعتاد قريباً منه ، وضع نفسه على أول كرسي بجانب الباب ، وأطرق جامعاً نظره فيما بين يديه ..

على ان الاغرب من هذا كله هو انلا يرى القائمقام من كل وجهه سوى عينيه وانفه ، اذ كان قد تقنع بكوفية بيضاء ، أسدلها من فوق عمامته ، وأدار أطرافها حول عنقه ، وتعمد الا يبدو منها للناظر سوى هذا الذي أظهره .

وشغل القائمقام عن فتوره وتغيير مجلسه واغفال مصافحته ، بهذا التنكر العجيب . وراح يسأله في لهجة لم تخل من الدهشة : ولكن غانم !.. ما هذا الشكل الغريب ؟.. لماذا تغطي وجهك هكذا ؟!

ولكن سؤاله بقي دون جواب . فأعاده بصوت أعلى .. وكرره ثالثاً ممزوجاً بشيء غير قليل من الغضب .. فاذا الشيخ يرفع رأسه ، وفي وفي أناة ينزع لثامه وعمامته ، دون ان يغير اتجاه عينيه ، أو يحرك لسانه بكلمة ..؟

وفوجيء القائمقام برأسه كأنه البطيخة المسلوخة . قـــد فقد كل أثر للشعر حـــتى الحاجبين ..! فلم يتمالك همهمة طويلة انفرج عنهـا فمه الذي ظل فاغراً من الدهشة .. وفي غـــير وعي امتدت يداه الى لحيته ورأسه ، كأنـــه يتفقد شعره .. ولم يطق احتمال ذلك المنظر فأشاح عنـــه ، وأشـار اليـه باعادة لثامه ، وهو يقول : .. وِيَانْ .. ما هذا ؟!.. من فأل بك هذا ؟!..

وفي بروده المعتاد أجاب : اسأل احمد ..

ـ الاوسطة احمدا .. ـ نعم الاوسطة أحمد يا حضرة القائمقام .!

ـ أهو الذي فأل هذا ؟..

ـ أو أمر به !..

وجن جنون القائمقام ؛ ونهض ليذرع أرض الغرفـــة ذهوباً وجيئة .. وهو يصيـح : أحمد .. ينتف لحيتك ورأسك ..؟! كيف حدث هـــذا ؟! .. ومتى ؟... وأين ؟!؟..

ـ هو يخبرك بكل شيء .. اسأله اذا أمرت ..

ويفتح القائمقام الباب ، ويصرخ بالحاجب : أحمد .. الاوسطة أحمـــد .. هالاً .. هالاً . !..

وقبل ان يرد مصراع الباب رأي صديقه الآغا يقبل نحوه محييا ، ثم يصافحه وهو يقول : لا حاجة الى ارسال الحاجب .. سآتيك باحمد .. »

ودخل القائمقام مع صديقه الذي اغلق الباب وراءه . والتفت الى الآغـا يسأله : اين هو ؟.. اريد ان اراه .. الموت لهذا الوكه ..

وجعل يحرك قبضته في الهواء كأنه يضارب شبحا غير منظور ..

وجلس الآغا وهو يقول : هديء اعصابك .. وستعمل باحمد ماتريـــد . ولكن الا تسمح له بالدفاع عن نفسه ؟ ..

ـ دفاع ! .. اي دفاع ! . اذا كان هـو الفاعل فلا بد من الأكوبة .. الأكوبة الكبيرة .. هل تأمل ماذا أمل ! ..

والتفت الى الشيخ غانم يقول : اكشف .. اكشف ليرى الآغا .. »

وكشف الشيخ .. ولم يتمالك الآغا ضحكة مدوية ، وهو يشير الى الشيخ بستر نفسه . ثم قال : فظيع حقا ! .. ومع ذلك فمن العدالة ان تسمع دفاعه عن نفسه .. »

وقال القائمقام : حسنا .. احضره لنسمع دفاعه ..

ـ هل اعده بأنك لن تناله بسوء حتى تسمع كلامه !!

ـ طبعاً .. طبعاً .. سنصبر حتى نسمع حجته كلها .. افندم .. »

وغادر الآغا حجرة القائمقام دون ان يغلق بابها .. وماهي الا دقيقة حتى عاد ومعه الاوسطه احمد ، يمشي وراءه في حالة اقرب الى الخوف ..

والقى احمد تحيته .. وحاول ان يقبل يد القائمقام . ولكنه لم يسمع ردا على تحيته .. وسحب القائمقام يده فلم يمكنه من تقبيلها . ودون ان ينظر الى وجه خاطبه في نبرات كأنها فرقعة السوط : « .. انت نتفت لحية الشيخ غانم ورأسه ؟! .. لماذا ؟ .. كل هالاً .. لماذا ؟ ! . »

وتكلم احمد في اصرار : معاذ الله ! .. انا افعل ذلك ! ..

ووجه القائمقام كلامه الى الشيخ : اليس هو ؟ ..

قال الشيخ وهو لا يزال مطرقا : هو الذي امر بذلك ...

ويصيح القائمقام باحمد : انت أمرت بذلك ...

ـ بالعكس تماما .. لقد اوصيت به خيرا ، ثم حصل الخطأ .. واي الناس معصوم عن الخطأ ! .

وكان لا بدّ من سماع التفاصيل فواصل احمد كلامه : « .. لقد اعجب الشيخ بما رآه من خضاب لحيتي ورأسي ، وطلب الي ان اهيء له مثله ، فصحبته الى الحمام ، وكلفت الحمامي ان يصنع له ما صنع لي . وفي لحظة من الغفلة وقع الخطأ المؤسف ، اذ جعل وعاء النتف مكان وعاء الصبغ ، وهكذا ممط شعره الاعلى ، وصبغ شعره الاسفل ! .. فكان ما كان ...

ولم يستطع الشيخ الا ان يفارق رصانته وهو يسمع الى هذا الدفاع المشبوه ، فقال : هذا غير معقول .. غير معقول ان يكون خطأ .. انه مؤامرة

متعمدة ، ومتفق عليها ! ..»

وصاح القائمقام ايضا : هـذا غير ممكن .. مستهيل ان يكاء هـذا بتريك الخطـأ ..»

واصر احمد على زعمه ، وراح يماحك : «واي غرابة في هذا .. مادام جبريل نفسه يخطيء ..؟ !

وكان احمد قد وجد في هذا الاستنكار فرصته المنشودة فاندفع يقول في حماسة : «. ليس هذا كلامي . انه رأي الشيـخ غانم نفسه .. انه يؤكد لي دائما ان الله قد ارسل جبريل الى علي ولكنه اخطأ فسلم الرسالة الى محمد ! ..»

ويلتفت الى الشيـخ غانم : «اليس هذا كلامك ياسيدي الشيـخ ؟! ..»

وساد الجو صمت ثقيل حائر .. لم يلبث ان قطعه صوت الاوسطة احمـد كرة اخرى : «.. إذا صح ان جبريل قد اخطأ في اداء الرسالة ، فلماذا لا يحق للحامي ان يخطيء في تمييز الوعاء ! ..»

والظاهر ان دفاع احمد كان مقنعا مفحما ، فلم يجد الشيـخ غانم مايقوله .. واعتبر سكوته اقرارا بأن القضية كلها خطأ في خطأ ...!

* * *

ذكرٌ وأنثى

عرفته جاراً لنا طيباً غير شرير ، على كثرة الاشرار ... وقد عاد من المهجر الاميركي بعد غياب يقارب العشرين سنة ، وكأنما قضاها سجيناً في قيود ثيابه وعاداته ، فما ان وطئت قدماه ارض بلاده حتى استرد زيه البلدي القديم من السروال والصدار ، ثم اتخذ لنفسه زوجا محافظة من بعض اقربائه ، وراح يقضي حياته في دعة وهدوء بين داره وحانوته الصغير ، الذي اتخذه في ساحة المدينة القديمة ، والمسجد الذي لم يفقده بعد ذلك في أي وقت من الصلوات الخمس ، إلا ان يقعده مرض ، او يصرفه عن حضور الجماعة سفر ...

وكان محمود في اواسط العقد الخامس من العمر ... فلم يكن له من زواجه ارب الا ان يرزقه الله غلاما يكمل وجوده .. ولكن طال عليه الامد قبل ان يستبين حمل زوجته ، ولما اطمأن الى ذلك راح يعد الايام ، ويوفر لها كل ما تصور الناس ممن حوله انه نافع للحوامل ... وحين وافاها المخاض لازم الغرفة المجاورة يدعو لها الله ، ويتابع استغاثتها وتوجعاتها في لهفة لا تقل عما تعانيه ... وشاء الله ان يمتحن صبره وحسن يقينه فرزقه بدل الذكر المنتظر انثى .. ولكنها كما ، وصفتها القابلة ، خير من عشرين صبياً .

والحق ان الخيبة كانت مرة ... ولكنه استطاع ان يحتليها بجميل الصبر .. فاستقبل المولودة بالشكر لله ، واقبل على زوجه ببشاشة مسعدة ، يهنئها بالسلامة ، وينثر طريف النوادر ، ثم لا ينسى ان يقوى املها برحمة الله ، الذي لن يضن على المولودة الجميلة بأخ لها حبيب ..

واطلق محمود على الطفلة الجميلة اسم امه (امينة) .. ولم يستطع الا ان يفتح اذنيه وقلبه لتلك التفسيرات الشعبية اللطيفة ، التي تعتبر وجه الانثى مفتتح خير يجر وراءه البركة والخصب .. وقد جاءته الايام بتوكيد هـذا التفاؤل ، اذ شعر بأن رزقه قد أخذ يتسع ، وحياته المنزليـة باتت اكثر رواء وبهجة ، بما تضفيه الصغيرة عليه وعلى امها من احساس جديد ، فجر في قلبها منابع من النشوة والحنان لم يعهدا مثلها من قبل .. وبدأت محاسنها تبرز بين الحين والحين بشكل ممتع حقاً .. فالشعر تاج من الذهب تنمو خيوطه من المالوف .. والوجه البارع الانيق يزداد كل يوم نصوعا واشراقا ، والعينان الخضراوان على غاية من الروعة الآسرة ... وقد اتم الله نعمته فحصنها من امراض الطفولة التي تكتسح اترابها فتمزق اجسامهم ، وتطفيء شعاع الحياة في وجوههم .. وتجعلهم كهياكل التشريح الا جلداً على عظم ...

وجاءت طلائع الخير المرتقب تطل في الحمل الجديد ، بعد عام ونصف من ولادة امينة ، فكانت فرصة اخرى لامـل عريض ملأ البيت نورا واماني .. وتركزت خواطر محمود حول هذا الجنين الذي سيحيا به اسم والده (خالد ..) وقد احب ان يحافظ على شكله وهو في الرحم ، فلم يدخر وسعا في تدليل زوجه ، واحاطتها بكل وسائل العناية ، وحاول جاهدا ان يصون نظرها من ان يقع على قبيح ، لما سمعه من تأثير ذلك في تكوين الجنين .. ومع انه لم يكن ممن يهتمون باقتناء الزهر او زراعته ، فقد داب على احتلاب الانواع منه الى الدار ، ليجعلها على مرآى من زوجه ، رجاء ان يكون لها عملها في تحسين صورة القادم السعيد .

وهكذا لم يستكمل الجنين تشكله التام في بطن أمه حتى استكمل كيانه كله في ذهن أبيه .. وبات في استطاعته لو شاء ان يحدد رسمه ، ويعين لون بشرته .. ولم يقف عند هذا الحد ايضاً بل تجاوزه الى أبعد في الزمان ، فهو يتابع نمو خالد ، ويتصور طفولته السعيدة تملأ بيته وحياته غبطة ونشوة وجمالا ...

وكليلة ولادة أمينة ، جلس محمود في فراشه يتابع صراخ زوجته وهي تغالب المخاض .. فيتململ ويضرع . ويبكي ... وينهض بـين الفينة والاخرى

ليسأل القابلة العجوز اذا كان الوضع بعيداً .. فتجيبه : لا .. بل هـ ـ و قريب .. قريب جداً .. انتظر قليلا حتى أريك الصبي الجميل .. ولكن قل لامه تساعدني ..

وتوجه القابلة كلامها الى الوالدة تهتف بها : أعيني ولدك يابنتي .. اضغطي على نفسك قليلا .. استمري في ذلك ..

ويردد من حولهـــا من النساء وهن يدغدن زاجيلهن : أعيني ولدك .. الله معك ..

ويعود محمود الى فراشه ، ليستأنف حشومه هناك متلهفاً ضارعاً باكياً ..

وفجأة ينطلق صوت امرأته بـآهة مخنوقة طويلة ، تعقبها ضجة النسوة ، وصيحة من القابلة .. ثم يلي ذلك سكون استمر أكثر من دقيقـــة ... ولم يعد محمود قادراً على التماسك ، فأخذ يدلك أذنيه ، ثم وثب من الفراش نحو غرفـــة الولادة ... وما لبث الا لحظات يسيرة حتى عاد أدراجه في بطء دون ان ينبس ببنت شفة ..

لقد رأى المخلوق الجديد بين يدي القابلة ، تسوي وضعه في صمت كئيب .. وأبصر زوجته ملقاة على الفراش ، مغمضة العينين من الاعياء كأنها كيس من القمامة .. وقد خيم الوجوم على النساء ، فانقطعت أصواتهـــن ، وسكتت قرة زاجيلهن ، فلم يجـــد حاجـة الى أي سؤال ، اذ كان كل شيء ينبيء بولادة البنت الثانية ..

وفي ذلة ممزوجة بالحنق دس محمـــود رأسه في فراشه ، وغطى رأسه باللحاف ، وأطلق لعينيه زمام البـكاء .. غير انه لم يستطع البقاء طويلا على هـذه الحال ، فاذا هو يقذف باللحاف بعيدا ، ثم يأخذ طريقه الى خارج المنزل ، ليقضي بقية ليلته في طواف حائر على مقربة من الشاطيء ..

لقد كانت الصدمة اكبر من ان تحتملها اعصابه ، ذلك لأنه مكن الأمل من نفسه زمنا غير يسير ، ثم فوجيء بزواله على غير توقع ، فكان أشبه برجـل بذل مجهوده في تشييد بناء فخم ، فلما هم بسكناه بوغت به يسقط الى الحضيض فيطمره في ركامه !.

ورأى خير ما يعمله هو ان يغادر البلد لبضعة ايام ، فلعله لا يعود الا وقد بردت وقدة الأسى بين جوانحه ، وذلات نفسه لواقع القدر ..

وبين طرطوس ودمشق قضى محمود اسبوعا سائحا لا يقر له في مكان قرار ، ثم اضطر الى العودة كما بدأ .. دون ان يستطيع لنكبته نسيانا .. ولقد حاول ان يضبط لسانه امام زوجته ، فلا يقول مالا يحسن ولكنه أخفق ، وسرعان ما غلبه الانفعال ؛ فاذا هو يحلف بالطلاق ان لا مكان لها في بيته اذا هي جاءتـــه بينت في المرة القادمة ..!

٢

والحق ان محمودا لم يكن بالانسان الميئوس من خيره ، وانما هو رجـــل عاطفي ، يبلغ به التوتر أقصاه فلا يستطيع تصريفه الا بمثل هذه الثورات ؛ التي تنتهي به الى مالا يريد .. اذ يستيقظ ضميره النائم ، ويتذكر ما هنالك من الحلال والحرام ، وما وراءهما من الثواب والعقاب ، فاذا هو في بحران من النـــدم ، لا يلبث ان يدفعه الى التفكير عن اساءته بكل ما يتاح له من الوسائل .

وهكذا استيقظ ضمير محمود عقيب اطلاقه يمين الطلاق .. وجعل يتصور مقدار الأذى الذي اصاب به قلب امرأته ، وهي البريئة التي لم تقترف اثما ، فـلا يرتاب في انها نزوة من عمل الشيطان ، ويود لو امكنه التغلب عليه ، إذن لكان الآن في منجاة من هذا القلق الذي يعتصر صدره ..

لقد كان قبل ايام على مثل اليقين من انه لن يطيق النظر الى وجه طفلتـه الثانية ، ولن يستطيع الاقتراب من امها .. ثم لم يمض اكثر من شهر الا قليل حتى شرع هذا التصميم في التلاشي ، وهاهو ذا الآن ينظر الى طفلته بكل عينيه ، لا بل انه ليضمها بكل ذراعيه ، وقد طفق يحس نحـــوها ببوادر من العطف لم يتوقعه .. ولا شك ان لجمال قسماتها ، وما يرافق نظراتها من الاغراء نصيبا في اجتذابه ، فهي كاختها الاولى لا يكاد يميز بينهما لولا فوارق السن . ومن يدري فقد ياتيه يوم قريب او بعيد تنال آمنة من حبه مثل الذي نالته اختها أمينة ، وتهب له من الانس والغبطة مثل الذي يجده قربها ..

حقا ان القلوب بيد الله يقلبها ، كيف يشاء ! ..

بالمقدار نفسه بدأ احساسه يعتدل نحو امها .فهو يحس اليوم نحوها بمثل شعور المذنب بازاء البريء الذي اساء اليه .. ولقد اخذت نظارته تتركز على فضائلها الزوجية وحدها فاذا هي كنز من مودة ورحمة واخلاص ،لا تشوبها اية خصلة مكروهة ،او تصرف غير مرضي .. فكيف يسمح لنفسه بالتنكر لها دون ما سبب ، سوى انها لم تلد له الابن الذي يحب ؛ وهي التي لا تحمل من المسئولية في هذا الامر اكثر من الذي يحمله هو ! .. هذا وليس ثمة داع لليأس .. فهو لا يزال دون الخمسين، وهي في الخامسة والثلاثين ، ومجال الانجاب امامها فسيح ، وقد يرزقه الله في غد بدل الغلام الواحد غلاما ...واليأس من رحمة الله ضنو الكفر ، فلا عليه الا ان يصبر وأن يكون قوي الرجاء بالله ..

وجدير بمثل هذه التصورات ان ترد محمودا الى هدوئه الطبيعي ، وقناعته بالمقدور ، فيستأنف حياته المنزلية المطمئنة .. ولكن شيئا واحدا ظل يقلق نفسه ، كالعقبة تعترض الطريق فلا سبيل لازالتها او اقتحامها .. انه الطلاق الذي اطلقه في ثورة الغضب فجعل حياته معها مهددة بالانفصام ، ومن يدري فقد تطل البنت مع الولادة الثالثة فتقع الكارثة ، ويضرب الدهر بينها ضربته الكبرى .. !

على انه لا يلبث ان يراوده الامل برحمة الله حتى تتساقط اعباء نفسه ، ويتبدد الكثير من اوهامه القلقة ، ويستشعر نفحة في الرضى تدغدغ روحه ، وتغمره في نشوة لا تقدر من الاطمئنان ..

ولم يطل به الانتظار هذه المرة ، فما هي الا سته اشهر حتى ظهرت طلائع الحمل الثالث وبدامعه صراعا نفسيا طويلا تسيطر عليه دوافع الرغبة والرهبة ، وتتقاذفه نوازع الياس والرجاء .. يتذكر اليمين والانثى فيغيب في دوامة من الروع تشحن صدره بالكرب والخوف .. ويتراءى له وجه الحلم الحبيب من وراء الغيب ، فينسى اوهامه وتفيض عيناه بادمع الحبور ...

ويبلغ هذا الصراع قمته في مرحلة الوضع ...

ويشتد مخاض الزوجة الحزينة .. فيرتفع توتر اوهامه الى حـــدود التفجر ...

وبدلا من الجلوس في الفراش بانتظار النبأ ، ترك الدار ومضى يطوف في الزقاق المقابل ، مصغيا الى كل حركة وسكنة تصدر عن داخلها ، ونام كل شيء في الحي الا هذه الخفافيش المحومة في طلب البعوض الطائر ، وهذا المسكين الذي شغل باضطرابه وتوقعاته حتى عن تعب ساقيه ...

ويقف بين الفينة والفينة تلقاء الباب يلصق به اذنه ، ليميز كل كلمة تقال من ورائه ، فلا يسمع الا صوت امرأته صاعدا بالضراعة الى الله ان يتدارك بيتها برحمته .. والا همســـات النساء وهن يثرثرن حول الموضوع بما يبعث على القلق ...

وفي احدى الجولات بوغت بانقطاع الصوت والهمس .. فلم يشـك ان الفاجعة قد تمت ، ودون وعي وجد نفسه مستندا الى ركن الباب ، كمن اصيب بدوار مفاجيء ...

وكان اذان الفجر قد اخذ يتسرب الى مسمعه مع طلائع النهار ، فأحس بقوة تشده اليه ، فمضى يجر قدميه باتجاه المسجد ، وهو يردد مع المؤذن : الله اكبر .. اشهد الا اله الا الله ....

وقد خيل اليه ان في كل حرف من هذا النشيد العلوي قـــوة عجيبة ، تهز الاعصاب ، وتفتت الاوصاب ... وتغير وقائع النفس ...

وانتظم في الصف الوحيد خلف الامام يؤدي الصـــلاة ، دامع العينين ، كسير النفس ، يضغط على صدره بكل ما بقي له من القـــوة ليحبس انينه وراء حلقه ، فلا يتسرب الى اسماع المصلين .. وبعد انقضاء الصلاة هم بمحمود بالانصراف مع الناس ، ولكن اشارة من صديقه الشيخ دفعته الى التريث فالتزم موضعـــه ، واخذ يجفف عينيه بباطن راحتيه ..

وتكلم الشيخ في لهجة كأنها انشودة تعزيه : مثلك يا أخي جدير ان يتقبل عطية الله بكل رضى ..

ودون ان يرفع محمود رأسه قال : وهل رأيت مني غير ذلك ! ..

ـ اجل .. انك حزين لتتابع البنات عليك . ولعلك لم تسمع بعد بقول رسول الله (ﷺ) : « من عال ثلاث بنات او ثلاث اخوات ، او اختين او بنتين ، فادبهن واحسن اليهن وزوجهن فله الجنة .. »

ولم يتمالك محمود من رعشة سرت كالكهرباء في اوصاله ، ثم رفع الى وجه الشيخ عينيه المغرورقتين وهو يقول في صوت لا يكاد يبين : ولكن .. لم يعد الموضوع خاصا بالبنات .. انه اليوم موضوع البيت الذي كتب عليه الخراب .. انه موضوع المرأة التي فرقت هذه الولادة بيني وبينها .. »

وأحس وهو يلفظ كلماته الاخيرة بمثل لذع الجمر يحرق لسانه . فلم يكد يفرغ منها حتى انفجر حلقه بدفقة من الانين ، اعياه حبسها ، فانفلتت برغمه تكشف عن اعماق حزنه .. غير ان ذلك لم يستمر الا ريثما عاد الشيخ الى الكلام قائلاً : هون عليك ان الامر لأيسر من ذلك ...

ـ وكيف !.. لعلك لم تعلم ان طلاقا قد صدر عني !.

وقاطعه الشيخ : أعلم .. إنك حلفت اذا ولدت بنتاً فهي طالق ..

ـ اجل . هذا الذي كان ..

ـ ولكن الطلاق لم يقع .. لأن زوجتك قد ولدت بنتين . . لا واحدة .! إنك لم تعلم هذا لأنك لم تذهب الى دارك بعد . وقد علمته من زوجتي التي حضرت الولادة بنفسها ..

وكانت مفاجأة بالغه ... شحنت صدر محمود بردود الفعل المتناقضة .. لقد جف دمعه لتسّوه ، وجمد بصره على وجه الشيخ ، ولبث ثواني طويلة فاغر الفم من الدهشة ! ...

وألفى نفسه بغتةً في فراغ نفسي عجيب .. لا يدري : أعليه ان يبكي . أم له ان يضحك !.. أفي يقظة يسمع كلام الشيخ .. أم ذلك حلم لا يعرف له تأويلاً !..

ثم راح يدير نظرة الحائر في ارجاء المسجد .. كأنه يفتش عن شيء .. ثم لم يلبث ان نهض ليغادره دون ان ينطق بشيء ...

٣

حقاً ان أمر هؤلاء العاطفيين من الناس لعجيب ...

انهم ليغضبون حتى يفارقهم كل أثر للرضا ...

وانهم ليرضون حتى يتجردوا من كل ملابسات الغضب ...

وانهم ليخشعون من التقوى حتى لتذوب قلوبهم في حب الله ...

وانهم ليثورون باحداث القدر كأن لم يذوقوا قط جمال التسليم الى حكمه...!

ولقد غضب محمود ، ورضي ، ثم خشع ، وثار .. وفي لحظة قاسية من الهيجان العاطفي ارسل قذيفته الحاسمة الثانية : طلاقا بائنا مثلثا لا رجعة فيه ، اذا جاءته امرأته بعد اليوم بأي أثر للبنات !..

لم يعد ثمة متسع للصبر والشفقة وتخوف الفراق .. انه بحاجة الى ذكر ، يصون ذكره ، ويستمر به وجوده ، ولا مطمع به كما يبدو عن طريق امرأته هذه ، فلم لا يبحث عنه عند سواها !..

ولعل مما يضاعف هواجسه انه يتلفت الى جاره الذي تزوج واياه في الشهر نفسه من العام الواحد ، فاذا هو ذو ثلاثة من الذكور لا انثى معهم ، بينما هو لا يزال يعاني وحشة القلب باحثاً عن اثر الذكر فلا يجده !.. فكأنما كتب عليه ان يعيد لابناء هذا الجار وغيره العرائس المجفوة ، وكتب لهذا وذاك ان ينعموا دونه بالرحمة المرجوة .. وشتان بين بيت اختص بالبنات ، فهو كحانوت كاسد يتلهف الى وجوه الشارين ، يتملق عواطفهم ويترضاهم لتنفق بهم سلعته ، وبيت امتاز بالذكور ، فهو كمصرف المرابين يستهوي ابدا قلوب الناس ، فيقبلون عليه راجين راغبين ، يتكبر عليهم ، فينحنون له ، ويرجع دائماً منهم بالصفقة الرابحة ، ولو اصبحوا جميعهم من الخاسرين !... وهذه والدته العجوز لا تزال تؤكد له هذه الحقيقة بذلك المثل الذي تقرع ابدا به رأسه : « ام البنات للتسليم ، وأم الشباب للتكريم » .

أجل ... ان الغيب لله .. فرب بنت أوعب للخير من عشرين صبياً ، وكثيراً ما تكون البنت وسيلة الى رضوان الله إذا أحسن الابوان تربيتها وتأديبها ، كما حدثه الشيخ عن رسول الله ، ولكن ليس من شـــأن هذا ان ينسيه تلك الحقيقة الكبيرة ، وهي ان الرجل انما يخلد وجوده بولده دون بنته .. وان الرغبة في الذكر انما هي غريزة ربانية أودعها الله بيده في قلوب الرجال .. فـلا سبيل الى انتزاعها الا بالموت ...

وكانت الايام تكر تتلوها الشهور على حمل امرأته الرابع .. فـلا يزيده ذلك إلا تصميماً على عزيمته ، التي نجح الى حد بعيد في نفي كل تردد عنها ..

لقد قرر ان يتمالك نفسه ، ويضبط اعصابه امام الحدث القادم ، فلا يفاجئه على غير انتظار .. انه راض بكل ما يصنعه القدر .. فان جاء المولود غلاما كان هو الحلم المنشود ... الذي سيملأ حياته وزوجه هناءة ورغدا وشكرا لله .. أما اذا كان من نوع ســـابقاته فسيحرر الله الذي لا يحمد على مكروه سواه ، وسيكون ذلك نذيراً لكل منهـــما ، هو وزوجه ، بمرحلة جديدة من الحيـاة .. يسلكها كل من الاثنين في معزل عن الآخر ...

وقد استطاع ان يحتفظ بهدوئه هذا الى يوم الولادة الحاسم ... لذلك لم يغادر الدار .. بل اتخذ مجلسه في الفراش يراقب الحالة برباطة جأش غير مألوفة ... ولعل تجاربه السابقة هي التي جعلته اكثر توقعاً للجانب المحزن ...

ولشد ما كانت المفاجأة صارمة عندما انطلقت اصوات النساء تـدق سمعه بالزغاريد ... التي تعلن ولادة المعجزة ..

ولم يعد يستطع صبراً فاذا هو يثب من مكانه ... ليندفع الى داخـــل الغرفة الاخرى ، قبـل ان يترك للنســاء غـير القريبات مجالاً لســـتر وجوههن ...

واحتضن المولود ليشبع عينيه من رؤيته ... وليتحقق من ذكورته ...

ولكنه ما لبث ان اعاده الى القابلة لينسحب الى مكانـــه في انكسار موجع ..!

أجل .. لقد كان المولود ذكراً .. بيد انه اشبه بالكتلة المشوهة منه بالطفل السوي ! ..

لقد إحدودب ظهره .. واقمو عس صدره .. وكاد رأسه يغيب الى ذقنه بين كاهله وترقوته !..

وبذلك فقد الطلاق قيمته فلم يقع .. ووقعت العبرة التي كانت جد كبيرة !..

الحاج فتحي

١

كان واحـداً من أترابي في مكتب الشيخ مصطفى ، نتلقى معـاً مبادىء القراءة ... ولا أزال أتذكر جيداً مدى التفاوت بينه وبين اكثرهم من الناحية الخلقية ... كان هؤلاء خليطا من أنوع شتى ، فيهم ابناء الاوساط الذين يعلمون أبناءهم اعداداً لهم ، لمعاونتهم في أعمالهم التجارية او الزراعية أو الصناعية . وفيهم ابناء (الذوات) الذين يرسلون الى الكتاب للترفيه والتخليص المنزل من انزعاجهم ... ومن هنا كان الفرق واسعا بين هؤلاء واولئك في مجال الاجتهاد والنجاح ... اذ قلما تجد واحداً من هؤلاء المدللين قد ذكر بين المتفوقين .. لانهم واثقون من كونهم غير مسئولين عن أي تقدم أو تأخر ...

ولم يكن فتحي ليختلف عن اقرانه أبناء (الذوات) في شيء ، اللهم الا تلك الخلال النظيفة التي تجعله كالزهرة في الصحراء ... انه بالغ الرقـة ، مسرف الحياء حتى لتخاله بنتاً في ثوب صبي ... لا يؤذيه شيء مثل تلك الالفـاظ الوقحة التي يتقاذفها من حوله اولئك السفهاء من الصغار . وكان تهذيبه وحياؤه قد اطمعا به الخبثاء منهم ، فهم ابداً يحوكون له المقالب وينصبون له الاشراك ، فلا يتورعون عن ان يختلسوا بعض ادواته يشهدوا عليه عند الشيخ ببعض ما يسيء لكي يتمتعوا برؤيته معلق الرجلين في الفلقة ... هذه الفلقة اللعينة التي قلما تنال غير أرجـل الابرياء ، الذين فوض آباؤهم الشيخ بعقوبتهم كما يشاء : فهو يتخذ من

تعذيبهم ذريعة لارهاب الجميع ، مستنداً الى ذلك القانون الذي بايعوه عليه حين اسلموا اولادهم اليه ، وهم يقولون : اللحم لك والعظم لنا .

وكان فتحي موقنا الا سبيل الى أي اعتراض على هذا الوضع ، لان أباه يريد له الخير ، ولا مطمع بهذا الخير الا عن هذا الطريق ، طريق الفلقة والعصا التي توشك ان تأكل قدميه .. ومما يزيد في ألمه واستخذائه هذا البطء الذي يعانيه في فهم الدروس ... فهو لا يكاد يفقه شيئا مما يسمع ، بل انه ليقرأ السورة القصيرة متابعة الشيخ ، فاذا حاول اعادتها تعثر لسانه ، واختلطت علية الحروف ، فما يفرق بين متشابهاتها الا بشق النفس ، وبعد كثير من قرع القضيب . . ولذع التأنيب ...

ولقد حاول التخلص من هذا الجو أكثر من مرة ، وذلك بالهروب الى القرية ، حيث عمال أبيه الزراعيون ، ولكن ذلك لم يجد عليه سوى مضاعفة العقوبة ، اذ سرعان ما يحمل مكرهاً الى هذا الكتاب فيحاسب على الدرس والغياب ... على ان الفرج قد جاءه اخيراً على يد والدته التي أشفقت عليه من هذا العذاب وأوعزت للشيخ ان يخفف من شدته عليه ، واعتبرت وجوده في هذا الكتاب فترة للراحة لا يكلف فيها عملا فوق طاقته ... ومن عجب ان ذلك قد عاد عليه ببعض الذي لم يكن متوقعاً ، اذ أصبح يأتي الى الكتاب بنفسه ودون اي حراسة وبات أسرع فهما لدروسه ، وأكثر عناية بأشيائه .. حتى اذا شارفنا مفارقة عهد الكتاب كان له من مبادىء القراءة ما يمكنه من فك الخط ، وتذكر مقدار غير يسير من القرآن ...

ومرت سنون قطعت ما بيننا من وشائج الطفولة ، ثم أطلعنا على الحياة من خلال المراهقة ، وكان هو قد سبقني اليها ... وانتهى بصحبة بعض المغررين الى وضع مؤلم لا يأتلف مع تلك الاخلاق التي عرفتها به ..

لقد جرفه وباء الشباب الفارغ فاقبل على الخمر يعبها ... ويسرف في عبها حتى صارت به الى ادمان شديد يهدد حياته بالخطر ... وقطع عنه أبواه الخرج الضئيل الذي كانا يمدانه به ، رجاء صرفه عن هذه المفسدة ، فكان ذلك مدعاة

الى ان يسقط في اشراك سماسرة الشر ، الذين ما لبثوا ان راحوا يدربونه على سرقة محاصيل ابيه ليوفروا له بثمنها حاجته من الخمر ومستلزماتها ...

على ان فتحي الذي فقد بهذا الانحراف صحته ووعيه ... لا يزال يحتفظ بالكثير من خصائصه النظيفة الاولى ، فهدؤوه القديم ، وبراءته النفسية ، وبساطته المميزة هي نفسها التي صاحبت طفولته في الكتاب . ولعلها هي التي ساعدت على دفعه الى هذا المصير ...

ان اسعد لحظات حياته هي تلك التي يخلو فيها بعدد من صعاليك الكأس ، حول مائدة مشحونة بمتطلباتها ، فيشرب ويشرب الى ساعة متأخرة من الليل ، وتراه خلال ذلك يستمع الى صخب رفاقه يضجون باللغو او الخصومة او الضحك ، وهو شاخص اليهم ، او مطرق الى الارض لا يكاد ينبس بنبت شفة .. وكثيرا ما يخرج من هذا الصمت الى البكاء ، فيطلق لدموعة العنان ، ويرتفع خلال ذلك نشيجه ... ثم لا يزال كذلك حتى ينعقد لسانه ، ثم يغلبه النوم .. وهنا تنتهي حفلته ثم ينقل الى مكان ما ليقضي بقية ليله في غطيط كثيف .... فكانه لا يشرب رغبة في اللذة ، او غراما بالخمر ، وانما ليشرب ليقتل شعورا يعذبه فلا يزال به حتى يغيب عن وجوده ...

ومات ابوه ... وحاولت امه تغيير حاله المؤسسة هذه ، فعرضت عليه ان يصحبها الى الحج ، فلم يرفض بل لم يكن لديه من الارادة ما يستطيع استعماله في رفض او رضى ، فرافقها الى الحجاز ، وجد نفسه فجأة معزولا عن كل مغريات الامس ، فصبر على مضض .. وانساق في تيار الحجيج يصلي صلاتهم ، ويلبي تلبيتهم ، ويطوف طوافهم ، ولم يفته ان يدعو لنفسه بالخير والمغفرة ، ولكنه لم يستطع مع ذلك ان يطرد من خياله تلك الاطياف التي تذكره بنداماه ... وصخبهم ، ولغوهم .. فيشعر بحاجة لا ترد الى استئناف تلك الامسيات ...

ويعود فتحي وقد ربح لقب الحاج بيد انه لم يكن يحس له باي معنى .. فما هو الا ان القي اصحابه من اولئك الصعاليك حتى انحاز اليهم يستأنف معهم ما انقطع من حياته الماضية ...

٢

وكانت صبيحة ثقيلة مزعجة .. تلك التي ملأت البلد بأخبار اسوأ الجرائم .. ولا شك ان لفظاعة هذه الجريمة اثر كبير في انتشار اخبارها بسرعة عجيبة على كل لسان ...

لقد سمع الناس يومئذ ان احد السكان قد وجد مذبوحا في دوره المياه في داره ... وان القاتل أو القاتلين قد نفذوا جريمتهم هناك بكل هدوء ، اذ كفئوا ضحيتهم على حافة المرحاض ، فلم تسل قطرة من دمه خارجة ... وهذا يعني انهم كانوا من المحترفين للقتل ، لا يخافون ولا يضطربون ...

وكداب الناس في مثل هذه الحالة اذ يدعون ظواهر الجريمة الى البحث عن اسبابها ، وتقدير عواملها وبواعثها ، راحوا يستنتجون ويختلقون ويقيسون ويحاولون تذكر ماكان وما عسى ان يكون .. وعلى الرغم من انهم لم يقطعوا بشيء فقد اجمعوا على ربط الجريمة بالناحية الخلقية وحدها ...

ولقد سمع بعضهم يومئذ يهمس الى بعض : لقد كان المسكين زير النساء ، وهو ذو مغامرات كثيرة لا بد لأن يكون لاحداها صلة بهذه النهاية ...

وقال آخرون : ولقد كان شديد القسوة على زوجته التي هجرها في سبيل مغامراته تلك ...

وهنا قال غيرهم : فلماذا لا تكون زوجته واولادها هم القاتلين اذن !!

ولكن هؤلاء ماكانوا ليعملوا عقولهم في ما يقولون ، ولو فعلوا

لذكروا ان اولاد القتيل لا يزال اكبرهم في العاشرة ... ويستحيل على امرأته ان تفكر بالقتل ، وهي التي عرفها جيرانها كالحمل الوديع ...

ولكن المفاجأة الكبرى جاءت عصر ذلك اليوم ... عندما شاع في البلد ان القاتل قد كشف وانه هو الحاج فتحي نفسه ... مع رجل من عمالهم الزراعيين ! !

ولم يكن لدى الناس ما يدفعهم لانكار هذا الخبر .. ذلك لأن الحاج فتحي رجل سكير ... وهو ذو قرابة بتلك المرأة التي قيل الكثير عن علاقتها بالقتيل ، فما يمنع ان تدفع النخوة بذلك الفتى الى الثأر لكرامته فيقضي على غريمه !...

ولا حاجة الى التردد في قبول الخبر ... فقد اعترف الحاج فتحي وعامله بالجريمة ، وقد قاما بتمثيل دورهما فيها امام المحققين ... وامام الكثير من المتفرجين ...

على ان الموقف لم يخل من بعض الشذوذ ، فقد وجد من الناس من يدعو الى التريث في الحكم على الحادثة ... لأن دركياً قد أسر اليه ان التعذيب الذي صب على الحاج فتحي وعامله جدير بأن يدفع أي بريء لاتهام نفسه بأكبر الجرائم ... ويزعم هذا الدركي انه رأى بعينيه كلاً من الرجلين يخالف الآخر في طريقة تمثيله للجريمة امام المحققين !...

ومهما يكن من أمر فقد كان في ذكر النخوة والثأر والكرامة ثم الاعتراف بالجريمة ما يحيط القضية بعناصر مغرية تجعلها مقبولة في خيال الناس ، وان كانوا كلهم يعرفون حق المعرفة ان الحاج فتحي من الوداعة والغيبوبة في وضع لا يسمح له بالاعتداء على بعوضة ...

٣

ولبث الناس اياما ينتظرون احالة القاتلين الى المحكمة .. وتطاولت

اعناقهم لمتابعة وقائعها التي يأملون ان تكشف الستار عن الكثير من الاسرار ...

وكانت الشوائع قد شرعت تتسرب من دائرة المحقق ... فيتلقفها الناس في لهفة ، ويأخذون في معالجتها بالمقارنة والتحليل والاستنباط ...

ولم تخل هذه الشوائع من بعض الحقيقة ، اذ كان المحقق لا يزال قلقا لفقدان بعض الحلقات من سلسلة القضية ، واهمها عباءة القتيل والساعة والمحفظة التي رئيت معه في ليلة الحادثة محشوة بالأوراق ذات القيمة الكبيره ...

وعبثا حاول التحقيق اقناع الحاج فتحي ورفيقه بالارشاد الى هذه المفقودات ، فكل منهما يصر على نفي علمه بها ، الاحين يعرضان للتعذيب فيعترفان ولكنهما لا ينتهيان بالمحقق الى اي اثر علمي ..

★ ★ ★

وذات مساء ، وبينما كان المحقق خاليا لنفسه في دائرته يقلب نظره في بعض هذه الأوراق المشحونة بضبوط الدرك ، واعترافات المتهمين والشهود .. ! تفجر جرس الهاتف برنين قطع تاملاته ، فتريث ريثما اتم قراءة بعض العبارات ، ثم تناول السماعة ، وجاء صوت بعيد يقول :

هنا مخفر (ش) ... رئيس المخفر يتكلم ... القينا القبض على قروبين كانا يقتتلان على اموال وثياب وساعة ..»

ولم يستطع المحقق انتظار بقية المحادثة فقاطعه يقول : ابينها عباءة بنية من وبر الجمل ؟! موجودة ! حسن جدا ... احضر الموقوفين حالا مقيدين مع الموجودات في حراسة شديدة ...

وفي ساعة متأخرة من الليل صدر الامر بالافراج عن الحاج فتحي ورفيقه ... اذ وضعت العدالة يدها على القاتلين الثلاثة ، الذين كان على رأسهم رجل من حرس المستشار ، هو الذي كلف بتعذيبهما

حتى انتزع منها ذلك الاقرار الكاذب ...

ومنذ ذلك اليوم بدأ الحاج فتحي مرحلة اخرى جديدة ... لم يكن على حافة الموت فانقذته عناية الله .. اذن فحياته منذ اليوم يجب ان تكون في طاعة الله ...

وصحت توبة الرجل ... وثبت على العهد حتى ذبالة ذلك الجسد الذي لم يستطع البقاء طويلا ، بعد ان هدمته الحمرة ، وأجهز عليه التعذيب ...

★ ★ ★

جدول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٤	١٤	عند	عندما
١٢	١٩	أنست	أمست
١٦	١٨	القانيه	الفانيه
٢٠	٧	درويات	دوريات
٢٣	٧	ويفيض	ويغيض
٢٤	١٦	القاضب	الغاضب
٢٧	٥	تبعيراً	تعبيراً
٣٠	٢١	فاستهلتهم	فاستمهلتهم
٣١	٨	المتواضح	المتواضع
٢١	١٧	وسرع	وشرع
٣٦	٢٠	أ ل	أهل
٤٠	٩	نحوه	نحو
٤١	٤	الاجنتي	الاجنبي
٤٢	٢٠	تعميراً	تعبيراً
٤٥	٨	الاعطـاء	الاعضاء
٥٧	١٧	وحال	وحاول
٧٠	٨	مسرى	سوى
٧١	١	دلاقه	ورقه
٧٤	١٧	مقارفة الخور	مفارقة الخمر
٨١	١	تليمي	تعليمي

الصفحه	السطر	الخطأ	الصواب
٨٢	١٤	يسمح	يسمع
٩٧	٢٣	يدجل	يدخل
١٣١	١٣	متي	ومتى
١٣٥	٢٢	سلمها	لتسلمها
١٣٩	١٣	يتلف	بتلهف
١٤٤	١٦	تسميح	تسميع
١٥٠	٨	توقره	توتره
١٣١	١٥	أهب	أحب

الفهرس

القصة	الصفحة
ابو جهاد	٣
قصة قنبلة	١٨
المفاجأة الاخيرة	٢٣
الطاغية	٢٩
نبأ صفير	٣٧
راحت	٤٥
أبو اسعد	٥٠
فؤاد بك	٦٠
ثوره	٦٦
البرميل	٧٣
عبده	٧٩
الراعي الطموح	٨٦
الطبيب الناجح	٩٥
بين اليقظة والحلم	١٠٥
إجازة	١٤٢
من احاديث الموت	١٥٣
حكيم من صافيتا	١٥٩
الرحمة السوداء	١٦٨

القصة	الصفحة
حرفان	١٧٧
قصة هرة	١٨٩
جريمة في قطنا	١٩٩
ثلاثة مشاهد	١٩٤
اللهم لك الحمد	٢٠٨
من وحى الموت	٢١٤
خطأ في خطأ	٢٢٢
ذكر وأنثى	٢٣١
الحاج فتحي	٢٤٠

Library of

Princeton University.

Princeton University Library
32101 074077965

(NEC)
PJ7846
.A489
Q573
1960z